اعتمدت وزارة التربية الوطنية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

الأدب والنصوص

الجزء الرابع

للسنة الرابعة الثانوية

أدبي وعلمي

تأليف

محمد الفاسي
مدير الجامعة المغربية

عمر الدسوقي
أستاذ بجامعة القاهرة

محمد صادق عفيفي
عضو البعثة التعليمية بالمغرب

منشورات
مكتبة الوحدة العربية
الدار البيضاء

اعتمدت وزارة التربية الوطنية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانويــة

الأدب والنصوص

الجزء الرابع

للسنة الرابعة الثانوية

أدبي وعلمـــي

تأليف

محمد الفاسي — مدير الجامعة المغربية

عمر الدسوقي — أستاذ بجامعة القاهرة

محمد صادق عفيفي — عضو البعثة التعليمية بالمغرب

منشورات

مكتبة الوحدة العربية

الدار البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة

يعالج هذا الكتاب – الذي نقدمه اليوم بين أيدي إخواننا المدرسين وأبنائنا الطلبة – موضوع النثر وفنونه ، والشعر وفنونه ، بعد مقدمة موجزة عن ماهية الأدب ، والعوامل المؤثرة فيه .

وعلى الرغم من أن موضوع الفنون الأدبية شائق ممتع فقد احتاجت معالجته إلى كثير من الجهد ، وكان علينا أن نتخير من هذا الإنتاج العربي الضخم ما يوائم مستوى تلاميذ السنة الرابعة الثانوية (الشعبة الأدبية) ويبين التطور الذي لحق هذه الفنون ، ويوضّح الأقلام التي اشتركت في إبداع هذه الفنون الأدبية .

هذا وقد كان عمادنا في معالجة هذه الفنون الأدبية التقيّد بالمنهج الرسمي لوزارة التربية الوطنية – الذي صيغ ليؤدي رسالة جديدة في برامج التعليم العربي بالمغرب حسب التصميم الخماسي – اللهم إلا بعض الفنون التي رأينا أن نضيف إليها بعض الزيادات إتماماً للفائدة (كفن القصة مثلاً) وقد نبهنا في الهوامش إلى هذه الزيادات .

كذلك عمدنا إلى الفن – في إطار موجز – نعرف به بحسب ما كان مفهوماً في الأدب العربي قديماً ، وبحسب ما أصبح مفهوماً لدينا اليوم ، ونلمّ بتطوره ، وأقسامه ، والجديد الطارىء عليه بعد تأثرنا بالأدب الغربي ، ثم نردف ذلك بالنصّ المقرز معلقين عليه بترجمة الشاعر أو الكاتب في إلمامة موجزة ، ثم بتحليل النص تحليلاً مركزاً وافياً يبين

المعنى ، ويوضح مدى ارتباطه بالفن الأدبي ، كما يوضح الأحكام العامة التي لا غنى عنها في تذوق الأدب .

وإنا لنرحب بكل اقتراح ونقد من شأنه أن يعين على تحسين هــذه السلسلة التي قمنا بإخراجها ، وهي أول سلسلة مدرسية من نوعها توضع للأدب العربي بعد الاستقلال في المغرب والله الموفق للصواب .

الرباط في فاتح
أكتوبر ١٩٦١

المؤلفون

وزارة التربية الوطنية المغربية
قسم التعليم الثانوي

برنامج الادب وتاريخه

للسنة الرابعة الثانوية

من الطور الثانوي الثاني
الشعبة الأدبية

تمهيد

الأدب بمعناه الخاص والعام

الفصل الأول :

تقسيم الأدب إلى إنشائي ووصفي (أمثلة تطبيقية) .
تقسيم الأدب الإنشائي إلى شعر ونثر (أمثلة تطبيقية) .
المؤثرات العامة في الأدب .

الباب الأول

(النثر وفنونه)

الفصل الثاني : (الرسائل) .

(مثال تطبيقي) رسالة عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبي موسى الأشعري .

الفصل الثالث : (القصص) .

أنواع القصة ، أمثلة تطبيقية : « قصة قديمة » تؤخذ من الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني – قصة حديثة لمحمود تيمور « الشحاذ » ، من المطالعة العربية الجزء الثالث – المقامات : المقامة الصنعائية للحريري .

الفصل الرابع : (الرحلات) .

(أمثلة تطبيقية) تنتخب من رحلات ابن جبير ، وابن بطوطة ، وأمين الريحاني .

الفصل الخامس: (الخطابة) .

نشأتها ، ودواعيها ، وأنواعها : السياسية والقضائية والدينية ، خطبة حجة الوداع للرسول عليه السلام — الخطبة البتراء لزياد ابن أبيه — خطبة الحجاج في الكوفة — استخراج خصائص الأسلوب الخطابي من هذه النماذج .

الفصل السادس: (التراجم والسير) .

(نماذج تطبيقية) من كتب :

أولاً : الأيام لطه حسين .

ثانياً : حياتي لأحمد أمين .

ثالثاً : محمد لحسين هيكل .

رابعاً : في الطفولة لعبد المجيد بنجلون .

الفصل السابع: (النقد الأدبي) .

تعريفه ، جوانبه ، عوامل ظهور الأثر الأدبي ، المبنى والمعنى قيمتها ، (نماذج تطبيقية) من :

أولاً : الأدب الجاهلي لطه حسين .

ثانياً : بين الكتب والناس ، لعباس محمود العقاد .

ثالثاً : التعاشيب لعبدالله كنون .

الفصل الثامن : (التاريخ) .

نشأته عند العرب ، (نماذج من المؤلفات التاريخية) :

أولاً : المقدمة لابن خلدون .
ثانياً : الخطط للمقريزي .
ثالثاً : المعجب للمراكشي .

الفصل التاسع : (الأسلوب العلمي) .
موازنة بين الأسلوب العلمي والأدبي ، خصائص كل منهما، التجرد والموضوعية في الأسلوب العلمي (أمثلة تطبيقية) .
أولاً : من ضحى الإسلام لأحمد أمين .
ثانياً : من مقالات عبد السلام الدويري في الذرة.

الباب الثاني

(الشعر وفنونه)

الفصل العاشر : الشعر وفنونه ، التعريف به ، نشأته .

الفصل الحادي عشر : (النسيب) .
مختارات من رائية عمر بن أبي ربيعة (أمن آل نعم أنت غاد فبكر) .

الفصل الثاني عشر : (الحماسة والفخر) .
مختارات تطبيقية من (لامية السموأل) إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه ، ومن قصيدة (ملكت بحلمي فرصة ما استرقها من الدهر مفتول الذراعين) للشريف الرضى .

الفصل الثالث عشر : (الشعر الوطني)
نماذج مختارة للشاعر علي محمود طه المهندس (يا شرق) من المطالعة العربية الجزء الثاني : وللشاعر سليمان العيسى (يا موكب النور) .

تمهيد

الادب بمعناه الخاص والعام

الفصل الأول

تعريف بالأدب

الأدب والفن :

الأدب فن من الفنون الجميلة، والفن إذا كانت أداته الألحان والأنغام سُمّي (موسيقى) ، وإذا كانت أداته الخطوط والألوان سمّي (رسماً)، وإذا كانت أداته الظّلال والنقش سمّي (نحتاً) ، وإذا كانت أداتـه الحركة والإيقاع سمي (رقصاً) وإذا كانت أداتـه اللسان والخيال سمي (أدباً) .

تطور كلمة أدب :

تطوّرت كلمة (أدب) على مَرِّ العصور عدّة تطورات :

١ – استعملت في العصر الجاهلي : بمعنى الدعاء إلى المأدبة، أي الطعام ، قال طرفة بن العبد :

نَحْنُ فِـي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى   لا تَرى الآدِب فِينَا يَنتَقِر[١]

٢ – استعملت في العصر الإسلامي : بمعنيين ، بمعنى العـادة الحسنة ، واكتساب الأخلاق الحميدة ، وبمعنى تهذيب النفس ، وتعليم المرء ما أُثر من المحامـد . قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « أدّبَـنِي رَبـي فأحْسَن تأديبي » .

٣ – استعملت في العصر الأموي : بمعنى التعليم ، وأصبح لفظ المؤدب

(١) المشتاة : زمن الشتاء إذ يحتاج العرب كثيراً إلى الملجأ والضيافة . الجفـلى : الدعوة العامـة . الآدب : الداعي ، ينتقر : يخص بالدعوة قوماً دون آخرين .

يرادف لفظ المعلم ، فقالوا أدّب المؤدّب فلاناً ، أي علمه الأخبار والأنساب والأيام والشعر ، وكل ما من شأنه أن يثقف نفس الصبي ، ما عدا العلوم الدينية ، بحيث كان للمسلمين في ذلك العصر نوعان من الثقافة : إحداهما دينية ، وهي : القرآن والحديث وما يتصل بهما ، والأخرى غير دينية ، وهي : الشعر والأخبار والأنساب وما يتصل بها ، وهذه الأخيرة هي التي كانت تسمى (أدباً) ، قال عبد الملك بن مروان لمعلم ولده : « أدّبهم برواية شعر الأعشى ، فإنه — قاتله الله — ما كان أعذب بحره ، وأصلب صخره » .

٤ — استعملت في القرن الثالث وما بعده زيادة على ما تقدم — في الكلام الجيد من المنظوم والمنثور، وما كان يتصل به ويفسره من الشرح والنقد والأخبار والأنساب وعلوم العربية .

وأُلفت في الأدب بهذه المعنى كتب معروفة منها : كتاب الكامل لأبي العباس المبرد وكتاب البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ .

وفي هذه الفترة تنوعت الثقافة تنوعاً كبيراً بفضل رقيّ الحضارة ، واتصال العرب بالأجانب ، ونقلهم علوم الأمم الأخرى ، فكانت هناك ثقافة دينية ، وثقافة فلسفية، وثقافة عربية .

كما دلّت كلمة أدب آنذاك على ما يدخل في باب المعرفة من فلسفة ورياضة وفلك وكيمياء وطب ، وكان لفظ الاديب يؤدي ما نفهمه الآن من لفظ المثقف ، أو لفظ المستنير .

ثم اشتدت العناية بالنقد وكثر الكلام فيه ، فأخذ يستقلّ وينفصل عن الأدب ويصبح فناً قائماً بنفسه ، حتى تمّ له الاستقلال في أواخر القرن الرابع وانتهى أمره الى ان نشأت منه علوم ثلاثة ، وهي علوم : المعاني ، والبيان ، والبديع .

وهذا المعنى الاخير الذي انصرفت اليه كلمة (الادب) من دلالتها على الشعر والنثر معاً : لبث يلازمها الى اليوم .

الأدب الخاص والأدب العام

الأدب بمعناه الخاص :

هو القدرة على التعبير الصادق عن التجربة الحيّة : وعما يجول بالنفس من فكرة أو عاطفة ، وهو يحتاج إلى مهارة فائقة في اللغة والبيان ، كي يصل إلى أذهان السامعين . ويمتاز هذا النوع من الأدب ببلاغة العبارة، وجلال المعاني ووضوحها ، وروعة الخيال والصورة، بحيث يحدث لذّة فنية في نفس قارئه أو سامعه . وكلما كانت المعاني أصدق وأعمق كانت أفضل وأبدع وكان الأدب أنفس وأخلد .

وهو بهذا المعنى يشتمل على العناصر الآتية :

أولاً : العنصر الذاتي (الانفعال أو العاطفة **Emotion**) وهو ما يحسه الأديب وما يجيش في صدره .

ثانياً : الناحية الموضوعية (الحقيقة أو الفكرة : **Thought, Pensée**) وهي أن ينظر إلى الأدب باعتباره وسيلة لتأدية غرض ومعنى .

ثالثاً : طريقة التعبير التي يسلكها الأديب: وهي التي تحدث بين الأديب والقارىء بالكلام ، أو بالعبارة اللفظية التي هي أداة للفهم ووعاء له ، والتي قد تسمى أسلوباً (**Style**) .

رابعاً : الصورة : وبها تُعرض الفكرة ، وتظهر في ثوبها الخيالي الذي ارتضاه الشاعر أو الكاتب لها ، وبدونها لا يستطيع الأديب أن يثير عواطفنا ، والخيـال يسمى (**Imagination**) فمن الشعر الجيد قول البحتري :

أتاكَ الربيعُ الطّلق يختال ضَاحكاً   مِنَ الحُسْن حتى كادَ أن يتكلما

ففي هذا الشعر نتبين قوة العاطفة التي انفعلت بهـا نفس الشاعر ، وملكت عليه حواسه ، فقد أحس بجمال الربيع ، وتدفقت عاطفته لتأخذ

في ذهنه أفكاراً وصوراً ، ثم سكبها في وعائها ، وألبسها حلة فضفاضة من الثياب اللفظية ، معتمداً على مقدرته الفنية ، وموهبته الخلاقة لإبرازها في حلة الخيال المبتكر ، وقوة التشخيص .

الأدب بمعناه العام :

هو الإنتاج العقلي الذي يتناول جميع الدِّراسات التي تكمل الإنسان من الناحيتين الحسية والمعنوية ، وتدعو إلى تثقيف العقل ، وتقويم الفكر ، وتهذيب النفس ، وتربـي ملكة الفهم والبيان ، وتقوي الشعور والإرادة .

فالقصيدة الرائعة ، والمقالة البارعة ، والقصة الممتازة ، كل هـذا أدب بالمعنى الخاص ، لانك تقرؤه او تسمعه فتجد لذة فنية كاللذة التي تجدها حين تسمع غناء المغني ، وتوقيع الموسيقي ، وحين ترى الصورة الجميلة ، والتمثـال البديع ، فهو إذن يتصل بذوقك وحسك وشعورك ويمس ملكة تقدير الجمال في نفسك ، وبقدر ما في هذه الالوان الادبية من قوة التعبير ، وحسن التصوير ، وجودة اللفظ ، تكون الصلة بين الشاعر والسامع .

والكتاب في الفلسفة والاجتماع ، او في الطبيعة والكيميـاء ، او في التاريخ والجغرافية أدب بالمعنى العام ، لانه كلام يصور ما انتجته قرائح العلماء من انواع المعرفة ، سواء أحدثت في نفسك في اثناء قراءتـه او سماعه هذه اللذة الفنية أم لم يحدثها . ومن ثم كان مـن الضروري لكل اديب ان يثقف ثقافة عامة ، ويطلع على الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ويعرف المسائل الفلسفية والتاريخية والدينية ، ليتسع أفق عقله وتزداد تجاربه ، وتنضج آراؤه واحكامه ، ويقوى قلمه .

ما الحاجة إلى الادب ؟ وما فائدته وغايته ؟

الحاجة إلى الادب ماسة : فبه يلبي الاديب حاجة نفسه ، إذ يعبر عما يقوم في صدره من المعاني في شأن او موضوع من موضوعات الحياة والطبيعة : ثم يلبي به الاديب حاجـة غيره ممن يحسنون او لا يحسنون التعبير مثله ، ويستطيعون او لا يستطيعـون ان يبلغوا عمق افكاره ، وقوة شعوره .

واما فائدة الادب : فأدناها تقويم اللسان ، وتجويد الإنشاء، واعلاها صقل الذوق ، وذكاء الحسّ والسمو بالخلق ، وتنشيط الخيال .

واما غايته : فهي الى جانب المتعة بحلاوة الكلام، واللذة الفنية برونق الصور والتخيلات ، غاية تهذيبية تهدف الى صقل الذوق ، والسمو بالخلق وإرهاف الشعور ، وترويض الخيال ، وتنوير العقل في سبيل خلق انسان افضل ومجتمع ارقى .

تقسيم الادب
الى انشائي ووصفي

الأدب الإنشائي او الإيجادي :

الادب الإنشائي هو الذي ينتجه الشاعر او الناثر بدافع من عاطفته ، وحافز من نفسه ، وسمي إنشائياً ، لان الانسان ينشئه إنشاء ويرتجله يقلد به الطبيعة او يصور به الطبيعة .

واذاً فالطبيعة هي موضوع الادب الانشائي سواء كانت هذه الطبيعة داخلية ، كما تكون في تصوير العواطف والاهواء ، ام خارجية ، كما في تصوير الشمس والبحار والصحراء .. والاحداث المختلفة التي تأتي الى النفس من الخارج .

اذا راعك منظر من المناظر ، فصوّرت ما تجد في نفسك من الروعة والجمال وما يملؤها من التأثر والانفعال تصويراً قوياً في لفظ جميل يمتاز بالرقة ان كان الموضوع يحتاج الى الرقة كالغزل ، وبالفخامة والضخامة ان كان الموضوع يحتاج الى الفخامة والضخامة كالمدح والفخر ، فقد أنشأت ادباً ، اي احدثت أثراً فنياً جديداً لم يكن قبل ان تحدثه .

وهذا النوع من الادب ، هو الذي تتجلى فيه نفس منشئه ، والوان بيئته ، واحوال عصره ، وهو من اجل هذا كله متأثر بما يحيط بمنتجه من عوامل .

فالاديب يتأثر كما يتأثر الادب بعوامل الثقافة والحُكم والبيئة وبالاحوال الاجتماعية والسياسية والدينية التي تسود عصره،والانشاء يدل على المنشىء وحالة دنياه من فرح او حزن ،وفقر او غنى ، ويدل على أصله أكان كريماً او لئيماً ، أفي البادية نشأ او في المدن ؟ ولهذا قيل : مرآة المرء إنشاؤه .

فهذا الشاعر البدوي — وقد نشأ في البادية — وفد على الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، فمدحه بقوله :

أنتَ كالكلبِ في حِفاظِكَ للودْ د وكالتَّيس في قِراعِ الخُطوبِ

فهمَّ به اهل مجلسه ، فقال لهم الخليفة : رويدكم !! انه يعطينا من معينه اذهبوا به الى ضفاف دجلة والفرات حيناً من الزمن ثم عودوا به، فلما عاد بعد ستة اشهر انشد الخليفة قصيدته التي مطلعها :

عُيون المَهَا بين الرُّصافة والجِسْر جَلَبْنَ الهَوى مِنْ حَيثُ أدْري ولا أدري

هكذا فعل البيئة ؛ ففي المرَّة الاولى مدحه بما يتمدح به العرب في باديتهم من الشجاعة والوفاء ، وفي المرة الثانية ظهرت الرقة المتناهية التي خلعتها عليه البيئة الجديدة .

وقد يكون في الاديب عاهة ، او شذوذ ، او تباين في بعض عاداته فيظهر ذلك كله في ادبه،فهذا ابو العلاء وقد تأثر بعاهة العمى يقول :

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النَّبيث[١]
لفقديَ ناظري، ولزوم بيتي وكونِ النفس في الجسم الخبيث

وهذا بشار بن برد يتحدث عن عماه فيقول :

عميت جنيناً والذَّكاء من العمى فجئتُ عجيبَ الظنّ للعلم مَوئلا
وفاض ضياء العين للعلم رافداً بقلبٍ إذ ما ضيَّع الناس حصَّلا

وان من يقرأ خمريات ابي نواس يلمس شذوذه ، ويصعب عليه ان يصدق انه هو القائل هذه الحكمة البارعة في مناسبة زهدية :

وما الناس إلا هالكٌ وابن هالك وذو نسبٍ في الهالكين عريق
إذ امتحن الدنيا لبيب تكشَّفتْ له عن عدوٍ في ثياب صديق

---

(١) النبيث : المدفون ، او القبيح .

تقسيم الأدب الإنشائي

الى شعر ونثر

أول مظهر للأدب الإنشائي عرفه النـاس فأحدث في نفوسهم اللذة الفنية فحفظوه وحرصوا عليه، هو الشعر. وهو هذا الكلام الذي يعتمد لفظه على الموسيقى والوزن والقافية، ويتألف من وحدات لفظية يشبه بعضهـا بعضاً في الحركات والسكنات، ويعتمد في معانيه على ما يصور عواطف الناس وميولهم، متأثراً في هذا كله بالخيال، ومؤثراً في النفوس بالصـور التي تبهر بروعتها وجمالها، وبالألفاظ التي تسحر بعذوبتها وسلاستها.

وهذا المظهر من مظاهر الأدب الإنشائي الذي نسميه شعراً هو الذي اتخذته الشعوب أولاً وسيلة إلى إظهار ما تحس به من فرح أو حزن، وهو في تاريخ بعض الشعوب كل ما عندها من التراث العقلي.

وفي اثنـاء ذلك تصطنع الكلام العادي في حياتها اليومية في قضـاء ما يكون بينها من المنافع. ثم ترقـى حياة الشعب شيئاً، وتتيـح لـه الحضارة الناشئة شيئاً من الترف، فيصبح هذا الكلام الوزون وسيلة إلى الغناء، وينشد الشعر انشاداً فيه شيء من التوقيع والترجيع، ثم ترقـى الحياة وتزداد الحضارة وإذا هذا الغناء لا يكتفـي بترجيع الصوت وحده، وإنما يضيف اليـه التوقيـع الموسيقـي الساذج اليسير، وما زال الشعر يرقى برقي الحضارة حتى يصبح فناً قائماً بذاته، ويتكلفـه الشعراء، وتنشأ له الأصول والقواعد.

ولكن هذا المظهر الأول من مظاهر الأدب الإنشائي ليس هو كل شيء، فما يكاد الشعب يتحضر ويكتشف الكتابة حتى يأخذ في تسجيل

بعض ما يكتشف من العلم، أو ما يلم به من الأحداث في كلام لا وزن فيه ولا قافية ، ولا حظّ له من الغناء ، فينشأ النثر ، وهو المظهر الثاني من مظاهر الأدب الإنشائي .

والنثر : مأخوذ من نثر الشيء إذا رماه متفرقاً ، ومن ثم سمي بالنثر لأنه غير خاضع لنظام خاص في تكوينه ، ولأنه محلول من كل قيد ، إلا ما يقيد به من شرط صحة اللغة ، وجودة التعبير ، وضبط المعنى ، وهو شرط عام في الكلام كله .

فالنثر إذاً ، لا يُحبس في قالب ضيق ، بل يأتي طليقاً ، حتى ليمكن التغيير في ألفاظه ، وتحويلها عن مواضعها دون أن يلحق بنظامه الخلل .

ومن النثر ما يشبه الشعر في الخيال ، والعاطفة والتصوير ، وحسن التمثيل ورقة اللفظ فيسمى (شعراً منثوراً) كالعبرات للمنفلوطي ، وأسواق الذهب لشوقي .

والنثر قسمان : مسجوع ومرسل: فالأول ما التزم في كل فقرتين منه أو أكثر حرفاً بعينه على نحو قول الحسن بن سهل من ادباء العصر العباسي : « له أناة الوزراء،وصولة الامراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء . يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه ... » والثاني المرسل : وهو ما خلا من السجع ، وسمي مرسلا لأنه أرسل من كل قيد .

الموازنة بين النظم والنثر :

ومن هنا تعلم ان الأدب الإنشائي نوعان مختلفان في شكلهما الظاهر ، وفي حقيقتهما المعنوية .

احدهما الشعر :

١ — وهو الذي يقيده الوزن ، والموسيقى ، والقافية غالباً .

٢ — وهو الذي يعتمد على العاطفة الجياشة والتخيل اكثر مما يعتمد على التفكير الدقيق ، وذلك ما عناه قدماء اليونان بقولهم : (إن الشاعر جالس في مركبة فخمة يجرها جوادان قويان ، هما الشعور والمخيلة ،

ويسيرها رجل حكيم ، هو العقل) .

٣ — وهو الذي يميل الى الاختصار والايجاز .

وعلى هذا نرى ان الموضوعات الشعرية هي التي تكون اكثر موسيقى، وادق في وحداتها الصوتية ، واشد تحملاً لوثوب الخيال ، وللتفنن في الصور ، وأوفر انفعالا وتبايناً لحرارة العاطفة ، واميل الى ترك التطويل.

والآخر النثر :

١ — وهو الذي لا يقيده وزن ولا موسيقى ولا قافية .

٢ — وهو الذي يعتمد على التفكير والمنطق قبل كل شيء ، فإن اعتمد على الخيال وحرارة العاطفة ، فذلك شيء يعرض له ، وليس هو الأصل .

٣ — وهو الذي يميل الى المناقشة والتحليل ، والتبسيط في المعاني وتفصيلها .

النثر نوعان : فني وعلمي :

إذا قرأت فصلاً من كتاب ادبي فقد تجد فيه مقالات عن جمال الطبيعة وازدهار الرياحين ، او مقالات عن البؤس والشقاء ، فالكاتب الأديب يتخيل ويبتكر الأساليب والألفاظ والجمل ، كما يشاء خياله وتسمح طاقته الأدبية .

ولو قرأت في كتاب علمي قد تجد فيه مقالا عن المراحل التي قطعها علماء الذرة حتى وصلوا الى تفجيرها ، فكل عبارة فيه حقيقة علمية لا تحتمل التأويل .

ونذكر هنا مثالين ، أحدهما للنثر الأدبي والآخر للنثر العلمي، ليتضح بهما الأسلوبان .

(ا) مثال النثر العلمي :

من قطعة عن مرض (الدفتريا) للدكتور اسعد (١) :

« الدفتريا مرض خطير ، خصوصاً بالنسبة لمضاعفاته، وتبدأ ظهور علامات داء الدفتريا في الحنجرة ، التي تلتهب وتتكون بها أغشية صديدية.

(١) انظر مجلة العلوم والفنون المغربية .

ومن علامات هذا الداء ايضاً ، ارتفاع درجة حرارة الجسم ، والإحساس بوجع الرأس والشعور بألم في المفاصل » .

(ب) مثال النثر الأدبي :

من قطعة في تعريف (الحبر) للسيد امين نخله :

« الحبرُ وَيحكَ ! نورٌ اسود ، وكنزٌ سائل! وهو عِطر الدّفاتر ، وشبع الفراغ وريّ البياض ، وغيث الورق ، بل هو نقش الهوى ، ولون العقول في القرطاس ، فمالك تخشى على اطراف اصابعك ان تشاب بسواده ؟

وليس من شيء هو الذّ في الشمّ ، ولا اضوع ولا اقرب الى مرتبة التشهي من حبر جديد ، في كتاب جديد ، تمرّ يدك عليه فكأنك تمس حركات الخواطر برؤوس انامك ، بل ان هذا النسيم الذي تؤديه افواه الدوايات ، لأطيب من كل نسيم » .

فالصورة الاولى : تناولت (داء الدفتريا) بطريقة علمية تخاطب العقل ، وهدفها ايضاح الحقائق ، فبعد ان تجمعت في ذهن الكاتب المعاني العلمية انتقل الى التعبير عنها بطريقة خاصة ، لم يسلك سبيل الخيال ، ولم يقصد تحسين اللفظ ، ولا تنميق العبارة ، واتى باصطلاحات علمية متصلة بالموضوع مثل : داء الدفتريا في الحنجرة — اغشية صديدية — ارتفاع درجة الحرارة .

والصورة الثانية : تناولت (الحبر) بطريقة ادبية وهي تخاطب العاطفة وهدفها التأثير في النفس بلغة عذبة رقيقة ، وجمل بهية منغومة ، الفاظها شعرية تضحك ، وتضيء ، وتنقل الينا انفعال الكاتب ، وتصلنا بخياله وصوره .

الشعر اسبق من النثر الفني :

المعقول ان نتوهم ان النثر كان اسبق الى الظهور من الشعر ، لأن الشعر يبدو صعباً مركباً بينما يبدو ارسال النثر سهلا بسيطا .

وصحيح ان البشر تكلموا نثراً اول ما تهيأ لهم النطق اللغوي على ان ذلك لم يكن إلا للتخاطب العادي في الشئون والمصالح اليومية .

فأما في الأدب فقد نظموا شعراً قبل ان ينطقوا النثر ، فكان الشعر اسبق مظهر للأدب في تاريخ الشعوب يصدق ذلك على العرب ، كما يصدق على غيرهم .

فإذا تأملنا تاريخ الأدب في امة من الأمم رأينا ان الشعر سابق لسائر الفنون الأدبية ، فعند اليونان كانت قصائد (هوميروس) تنشد ويتغنّى بها قبل ان يؤلف كتاب او يظهر نثر فني .

ومن اقوى الأسباب التي قدمت نشأة الشعر على نشأة النثر ، ان الأدب المنثور يتطلب معرفة بالكتابة ، والكتابة اختراع متأخر في تاريخ كل امة ، فقصائد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس ، قبل ان تشيع الكتابة العربية .

ومنها ان طبيعة الحياة الاولى بما فيها من غلبة العواطف على الإدراك العقلي كانت تستلزم وجود فن قولي يعبر عن الجانب الوجداني عند الإنسان ، وتتحقق فيه من الصفات ما يجعله قادراً على ذلك التعبير .

واخيراً ، فإن كلام الشعر اعلق بالذاكرة واطول بقاء من كلام النثر .

تقسيم الأدب الوصفي
إلى نقد وتاريخ ادب

الأدب الوصفي او الموضوعي :

هو نوع من الأدب يرتبط بالأدب الإنشائي ارتباط المسبب بالسبب ، لأن الأدب الإنشائي مادته وموضوعه ، وبيان ذلك ان الأديب المنشيء ينظم قصيدة او يكتب قصة ، ثم يتناول هذه او تلك الأديب الواصف

مفسراً ومحللاً ، فكان هـذا أول الأدب الوصفي ، وهو الذي نسميه (نقداً) وقد لا يقف الاديب الناقد في بحثه عند التفسير والتحليل ، بل إنه يعنى بهذا الادب من جهات أخرى ، فيحاول أن يقرأ فيـه نفس صاحبه ، وبيئته وعصره كما يحاول أن يضع القواعد والأصول التي يكون الكلام بها جيّداً يستحق الثناء ، أو رديئاً يستحق العيب والازدراء .

وعلى هذا النحو تطور النقد في الآداب كلها ومن بينها الأدب العربي، فوصف شعر الشعراء القدماء من العرب ، في جمل قصيرة تحفظ وتروى كما قيل عن امرىء القيس إنه تساجل مع علقمة بن عبدة فاحتكما إلى زواج امرىء القيس أم جُنْدب،وكانت لا تحب زوجها فقال امرؤ القيس:

خليلي مرّا بي على أمّ جُنْدب نقضّ لبانات الفؤاد المعذبِ(١)

واسترسل في وصف الفراق والناقة والفرس والصيد وغـير ذلك ، وعارضه علقمة قائلاً :

ذهبت من الهِجران في غير مذهب ولم يكُ حقاً كلُّ هذا التجنُّب(٢)

واستطرد إلى وصف الفرس ، وفضّلت أمُّ جندب علقمة وعللت تفضيلها بقولها لزوجها : (فرس ابن عبدة أجود من فرسك ، سمعتك زجرت وضربت وحرّكت ساقيك وهو قولك :

فللساق ألهـوبٌ وللسوط درّة وللزجر منه وقع أهوجَ منعَب(٣)

أما فرس علقمة فأدرك الغاية ثانياً من عنانه ، وهو قوله :

فأقبل يهوي ثانياً من عنانه يمرّ كمرّ الرائح المتحلِب(٤)

---

(١) اللبانة : الحاجة .

(٢) الهجران : القطيعة والإعراض .

(٣) المنعب : الفرس السريع يمد عنقه كالغراب .

(٤) العنان : سير اللجام . المتحلب : أي الذي يسيل العرق من بدنه .

ويقال ان امرأ القيس غضب على امرأته وطلقها فتزوجها علقمة .

وكما قيل ان عمر بن الخطاب قال عن زهير بن أبي سلمى : انه اشعر الشعراء لأنه كان لا يُعَاظِل في الكلام ولا يمدح الرجل الا بما فيه.

ويقال لذلك كله بالبيت أو الأبيات ويبين ما في هذا البيت أو تلك الأبيات من المحاسن وفنون الجمال ، ثم يطول هذا ويبسط ، وتوضع له القواعد والفصول ، ثم يجمع هذا كله في الكتب ويدرس للطلاب ، وتضيف اليه الاجيال ما تستحدث من الآراء فيصبح النقد فنّاً ممتازاً مستقلاً .

ولقد كان النقد الادبي في الجاهلية وصدر الاسلام وعصر بني أمية عبارة عن خطرات فطرية سريعة لا تستند الى قواعد مخصوصة بيد أن هذه الأحكام كانت صادقة غالباً ، تصدر عن معرفة بالأدب وفطنة وبصيرة ، فلما جاء العصر العباسي وألف المؤلفون كتباً في النقد اتسع ميدانه وظهرت معالمه ، ومن الذين توسعوا فيه :

ابن سلام الجمحي صاحب (طبقات فحول الشعراء) وقدامة بن جعفر صاحب (نقد الشعر) ، و (نقد النثر) ، والآمدي صاحب (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) ، والجاحظ في (البيان والتبيين) ، والمعري في (رسالة الغفران) وابن الأثير في (المثل السائر) وعبد القاهر الجرجاني صاحب (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) .

وبعد الأعصر العباسية انحطّ النقد كما انحط الادب ، وبقيت هذه حاله خلال عصور الجدب في الأدب العربي ، حتى كان عصر النهضة فصرف النقاد اهتمامهم الى آفاق جديدة غير التي كان يسير عليها القدامى ، فبحثوا حقيقة الدور الذي يمثله الأدب في الحياة ، وعنوا بالترجمة للأديب ودرس شخصيته واثر البيئة والعصر فيه وفي أدبه ، والتفتوا الى حظه من عمق الفكرة والعاطفة واشتغلوا بشيء من مقارنة الأدب العربي بغيره من آداب الأمم .

تأريخ الأدب :

وهناك لون آخر من ألوان الأدب الوصفي ينشأ بعد نمو الأدب الإنشائي ، وبعد نضج ملكة النقد وهو الذي نسميه (تأريخ الأدب).

وتأريخ الأدب يعنى بالنظر في صلة الأدب الإنشائي بعوامل الزمان والمكان والاجتماع والدين والسياسة وما الى ذلك مما يعمل في نشأته ورقيه وانحطاطه ، ويحاول أن يضع لذلك كله قواعد مطردة بحيث اذا قرأت الكتاب من كتب التاريخ الأدبي أحطت بصورة واضحة بالحياة الأدبية في عصر من العصور ، وفي بيئة من البيئات ، وفي طور من الأطوار ، فلو ان كاتباً ألف كتاباً عن الشعر الحديث في المغرب فعرض لك حياة الشعراء الممتازين في هذا العصر ، وخصائص كل واحد منهم ، وما يكون بينهم من المشابه والفروق ، وما يكون من تأثر بعضهم بالأدب القديم وتأثر بعضهم بالفكر الأوروبي الحديث ، وما يكون من تصوير بعضهم لشعور معاصريهم واهوائهم وعواطفهم ومثلهم العليا ؛ لكان كتابه نوعاً من (التأريخ الأدبي) والتأريخ الأدبي بهذا المعنى حديث النهج : ووليد النهضة الأدبية القائمة ، على أن الكتب الأدبية القديمة لم تخل من بعض بحوث هذا الفن .

المؤثرات العامة في الأدب

اذا كان الأدب مظهراً من مظاهر الحياة الانسانية ، وتعبيراً صادقاً عن أحاسيسها وخواطرها ومشاعرها وميولها وأخيلتها التي تتأثر بالعوامل الطبيعية وأحوال البيئة وأنواع العقيدة وأطوار المجتمع وتقلبات السياسة ، فالأدب صورة الإقليم ، والأديب ابن البيئة .

ومن واجب طالب الأدب ان يعرف هذه المؤثرات لتكون له عوناً على فهم الأدب وتذوقه ، ومن أهم هذه المؤثرات :

أولاً : الاستعداد الفطري : وهو يرزق الانسان صفاء في الطبع ،

ورقة في الشعور ، ودقة في الإحساس ، والأمة التي تتوفر على أمثال هذا الإنسان تكون أقوى الأمم شاعرية وأشدّها حساً ، وأوقدها قريحة ، وهي تصور تأثرها هذا في الشعر ثم في النثر ، وقد يكون حظها من الشعر أعظم ، وقد يكون حظها من النثر أعظم ، وقد يتاح لها التبريز في هذين الفنين .

فالأمة العربية والأمة اليونانية قد منحتا من هذه المواهب حظاً ممتازاً.

ثانياً : الإقليم والمناخ : تختلف طبيعة الإقليم وجوّه فيختلف تأثيره في النفوس، إذ هو الذي يرسم لهم طريقة المعيشة ويكوّن أخلاقهم، ومناظره هي التي تربي ذوقهم وتنمي شاعريتهم ، وتوسع آفاق أخيلتهم . فقد يكون الإقليم جبلياً أو صحراوياً أو سهلاً أو تشقه البحار والأنهار،او يأتي عليه الخصب والجدب أو العواصف والزلازل ، وكل هذه الصفات تؤثر في الحياة المادية والمعنوية للشعوب ، ومن مظاهر تأثر الأدب بالبيئة الإقليمية في نشأته ، ورقيه ، وانحطاطه ، ما تراه في اقتدار شعراء الأندلس على إجادة وصف الطبيعة ومحاكاتها ، ولذا قال شاعرهم :

يَا أهلَ أندلُسٍ لله درّكم ماءٌ وظلّ وأنهارٌ وأشْجار
ما جنّةُ الخلد إلاّ في دياركم ولو تخيّرت هذي كُنت أختار

وقال ابن سهل وهو أحد الشعراء المجيدين بالأندلس في وصف جمال الطبيعة :

الأرضُ قد لَبِسَتْ رداءً أخضرا والطّلّ ينثر في رُباهَا جوهَرا (١)
هاجَتْ فخِلْتُ الزّهْرَ كافوراً بها
وحسِبْتُ فيها التّربَ مِسْكاً أذْفَرَا (٢)

---

(١) الطل : المطر الخفيف . الربى جمع ربوة وهي ما ارتفع من الارض .

(٢) الكافور : الطيب الابيض . والمسك : الطيب الاسود . والاذفر : الجميل الرائحة .
هاجت : ثارت وخرج نبتها .

وكأنّ سوسَنَها يصافِحُ وردَها ثغرٌ يُقَبِّلُ منه خدّاً أحمرا (١)
والنّهرُ ما بينَ الرّياضِ تخالُه سيفاً تعلّقَ في نجادٍ أخضرا (٢)

ثالثاً : الخصائص الجنسية : لا شك أن الجنس الآري ميال إلى الاستقصاء والتحليل والبرهنة والتعمق ، بينما الجنس السامي يميل إلى التعميم والإجمال لحدة خاطره ، وذكاء قلبه ، فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان في الخيال والغرض والاتجاه ، وهذا شعر ابن الرومي يختلف عن شعر ابن المعتز ، وهما قد عاشا في عصر واحد ، وفي بلد واحد ، فابن الرومي كان دائماً يحلل ويتعمق ويبرهن ، بينما ابن المعتز يجمل لأنه عربي أصيل ، وإننا لنشعر بهذا عندما نقرأ للنابغة قوله :

ولستَ بمستَبقٍ أخاً لا تَلمّه على شعث ، أيّ الرّجالِ المُهَذّبُ ؟ (٣)

ونرى هذا المعنى نفسه لبشار مع زيادة في التصوير والتحليل والاستقصاء والتعمق في قوله :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

رابعاً : الحضارة : فالحضارة وانتشار الرخاء والثروة مما يؤثر في الذوق ، ويزيد في تعدد المناظر والصور ، إذ المعاني التي تخطر للمتحضرين غير التي

---

(١) السوسن : نبت من الرياحين زهره أبيض وشكله كبوق صغير .
(٢) المعنى : ترى النهر بين الرياض فتخاله سيفاً علق في حمالة خضراء .
(٣) تلمه على شعث : تقبله على ما فيه من عيب ، والمعنى : اذا كنت لا تتجاوز عن سيئات الاصدقاء فلست بمستبق صديقاً لك ، فانا لا نجد رجلا كامل الاخلاق لا عيب فيه .

تخطر لأهل البادية ، وألفاظ أهل الحاضرة تلائم معيشتهم المتحضرة رقة وعذوبة وسهولة ووضوحاً وحسن استقصاء ، لذلك تجد الفرق شاسعاً بين شعر العرب قبل تحضرهم ، وشعرهم بعد ان تحضروا في مصر والشام والأندلس والعراق، وكذلك تجد الفروق عظيمة بين شعرهم إبان ازدهار حضارتهم ، وشعرهم بعد انحطاط الحضارة .

هذا وان الأدب وسائر الفنون الجميلة تنمو وتترعرع في ظل الحضارة والنعيم ، لأن الأمة تفرغ للكماليات ، وهنا يبدع الشعـــراء في الوصف أيما ابداع ويفتن الكتاب في ضروب الكتابة، وينتج من ذلك ثروة عظيمة في اللغة والأدب ، قال السري الرّفاء في وصف القصور والمنازل :

مَجلِسٌ في فِناء دِجْلة يَرْتـــا ... حُ إليـــه الخَليـعُ والمســتورُ
طائرٌ في الهواء فالبَرقُ يسْري ... دُون أعلاه والحمـــام يطـير
وإذا غَارتِ الكواكبُ صبُحاً ... فَهوَ الكوكبُ الذي لا يغـور

وقال أبو نواس في وصف الخمر ومجالس الندمان :

تُدَار علينا الرّاحُ في عَسْجَدِيّةٍ ... حبَتْها بأنواع التّصاوير فَارِسُ (١)
قَرَارتُها كِسْرَى وفي جَنَبَاتِهـا ... مَهاً تَدّرِيها بالقسيّ الفَوارِسُ (٢)
فَلِلخَمْرِ ما زَرّتْ عليه جُيوبُها ... ولِلْماءِ ما دَارَتْ عليهِ القلانِس (٣)

ومن الأدلة على تأثير الحضارة في الأدب ان مـدن الحجاز حينما زخرت بالمال والنعيم في عهد بني أمية وتفشى فيهم الفراغ غرق أهلها في اللهو ، فعكفوا عـلى الغناء وانقادوا للمجون والتهتك ، واستسلموا للصبابة ، وانقطعوا للغزل فافتنوا فيه ، وتصرفوا في معانيـه ، كعمـر

(١) الراح : الخمر . عسجدية : كؤوس مذهبة . حبتها : خصتها .
(٢) قرارتها : أسفلها . مها : بقر وحشي ، جمع مهاة . تدريها : تدفعها .
(٣) القلانس : جمع قلنسوة : وهي غطاء الرأس عند الفرس ، وتسمى الشاشية في المغرب .

ابن أبي ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزة وغيرهم من أمراء الغزل المكشوف والعذري .

خامساً : العلم : وله فضل عظيم على اللغة في المادة والاسلوب وخاصة النثر ، فانه يكسبه قوة ودقة ووضوحاً وترقية للعقل وتقوية للشعور وتنمية للتصور ، ولم يترق نثر أمة الا بعد رقيها في ميدان الثقافة والعلم ، لأن النثر لغة العقل ، كما ان الشعر لغة الخيال ، وما النثر العربي في عهد العباسيين وقد بلغ مدى الروعة الا أثر من آثار النهضة العلمية العباسية ، وكذلك تأثّر النثر الحاضر في منهجه وأساليبه بنهضتها العامية القائمة على أسس صالحة من الثقافة الأوروبية .

سادساً : الدين : للدين وما يتصل به من معتقدات وأخلاق تأثير عظيم في الأدب اذ يخلق موضوعات جديدة ، ويؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً قوياً ، وهو قوام الحياة النفسية للشعوب ، ومن هنا كان أثره بيّناً في كل ما يصدر عن هذه النفس من آثار مادية كزخرفة المساجد او معنوية كالأناشيد الدينية التي هي مبدأ الشعر في كثير من الأمم .

وهناك فنون ادبية قد أنتجها الدين ، فالأدب التمثيلي مثلاً أثر من آثار بعض الديانات اليونانية ، والأدب الصوفي الذي نراه عند اليونان ، وعند المسلمين ، وعند كثير من الأمم المسيحية أثر من آثار الدين واقرأ (بانت سعاد) لكعب بن زهير ، و (البردة) للبُوصيري ، و (نهج البردة) لشوقي واقرأ شعر الكُميت ، وابن الفارض ، يتمثل لك في كل منها كيف فاض الرّوح الديني بجليل المعاني على هؤلاء الشعراء حتى أنساهم ما عداها من معاني الشعر وأخيلته ، ولا يزال أثر الاسلام بيّناً في الأدب العربي غرضاً ومعنى وأسلوباً .

سابعاً : الحياة السياسية : للنظام السياسي أثر فعـال في إنشاء فنون من الأدب أو ازدهار بعضها وانحطاط بعضها الآخر ، أرأيت كيف نشأ نوع من الشعر جديد هو الشعر السياسي حين انقسمت الأمة الإسلامية في عهد بني أمية إلى أحزاب تدور حول الخلافـة ، ولقد قوي الادب بعد ان انقسمت الدولة السياسية إلى دويلات تتنافس في تأثيل ملكها وتزيينه بتشجيع العلوم والآداب .

فالنظام الاستبدادي يوجد نوعاً من الادب فيه تملق ونفـاق وإسراف في تمجيد ذوي السلطـان ، كما يظهر الأدب الرمزي الذي يضطر أصحابه إلى تصوير الظلم والفساد بطريقة خفيـة ، (كالمعذبين في الأرض) لطه حسين، (وكليلة ودمنة) لابن المقفع .

وفي ظلال الحريـة تزدهر الخطابة السياسية والشعر الحماسي والوطني ، وتعمل السياسة على ترويج غرض الهجاء المقذع، ففي عهد معاوية وجد جرير والفرزدق والأخطل لأن سياسته كانت مبنية على مبدأ (فرق تسد) وقد يكون ضعف السياسة مما يقوي الناحية الأدبية بسبب المنافسة .

ثامناً : اتصال الشعوب : قد تكون الصلة بينها حربية ويتصل الغـالب بالمغلوب وينتفع كل بما عند الآخر ، وقد تكون سلمية فيتهيأ لها أن تتبادل الثمار العقلية والفنية وغيرها ، ويأخذ بعضها مـن بعض ، فدولة العباسيين في بغداد والأمويين في قرطبـة كانت حضارة كل منهما نتيجة تفاعل العقل الآري بالعقل السامي ؛ إذ لهذا اللقاح أثر كبير في الفكر ، حيث نشاهده في وفرة المعاني عند بشار وأبي نواس وابن الرومي ، وأثر هذا الاتصال يتضح في الأغراض الجديدة كالغزل بالمذكر الذي ولّده هذا الاختلاط.

وقد تأثر الأدب العربي بهذا الامتزاج فعاد عربياً في صورته أجنبياً في حقيقته .

« وفي الأندلس ازدهرت العربية حتى أثرت في لغات الأمم المجاورة ، وأمدتها بالعلوم التي نقلها العرب عن اليونان . قال أحد العلماء الفرنسيين : ولم يعرف أهل القرون الوسطى من سكان أوروبا كتب اليونان إلا بعد نقلها عن كتب العرب ، فبفضل هذه الترجمة العربية أمكن الوقوف على الكتب اليونانية التي ضاع أصلها اليوناني، فأوروبا مدينة للعرب وحدهم بحفظ هذه المؤلفات الجليلة القدر » .

تاسعاً : السلم والحرب : فالأدب في أيام السلم هادىء منصرف إلى مظاهر الطبيعة ، وهو في أيام الحرب ثائر يصف المواقع ويشجع على النزال ، تأمل ابن هانيء الأندلس وهو يصف أسطول المعز لدين الله الفاطمي : .

أمَا والجَوَاري المُنشآتِ التي سَرَتْ ... لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا ، عُدّةٌ وَعديد(١)

مَوَاخِرُ في طامي العُبَاب كأنهَا ... لِعزْمِكَ بَأسٌ أو لِكَفّكَ جُود(٢)

مِنَ القَادِحَاتِ النَّارِ ، تُضْرَمُ للصلى ... فَلَيْسَ لهَا يَوْمَ اللّقاءِ خُمود(٣)

إذَا زفَرَتْ غَيْظاً تَرَامَتْ بمَارجٍ ... كَمَاشَبّ مِنْ نَارِالجَحيمِ وَقُود(٤)

فَأفْواهُهُنّ الحامِيَاتُ صَوَاعِقٌ ... وأنْفَاسُهُنّ الزّافِرَاتُ حَدِيدُ(٥)

وتأمل قول المتنبي يصف حروب سيف الدولة الحمداني مع الروم :

خَميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زَحفه ... وفي أذُنِ الجَوْزاءِ مِنَه زَمَازِم (٦)

---

(١) الجواري : السفن .
(٢) مواخر : أي تشق الماء . طامي العباب : البحر أو الموج المتراكم بعضه فوق بعض .
(٣) الصلي : مقاساة حر النار والاحتراق بها .
(٤) المارج : الشعلة ذات اللهب الشديد .
(٥) صواعق : جمع صاعقة وهي نار تسقط من السماء في رعد شديد والمراد هنا الموت .
(٦) الخميس : الجيش . الجوزاء : برج في السماء .

تجمّع فيه كلّ لَسْنٍ وأمّةٍ ... فما يفهِمُ الُحدّاثَ إلا التّراجمُ (١)
تَمُرُّ بِكَ الأبطالُ كَلْمَى هَزِيمةً ... ووجهُكَ وضّاءٌ وثَغْرُكَ باسِمِ(٢)

عاشراً : الصحافة : لانتشار الصحافة أثر كبير في رقي الأدب ، وقد صارت الصحف مدرسة يتخرج فيها الأدباء والسياسيون والمصلحون ، ومن حسناتها اطلاق النثر من قيود السجع ،وهجر العيوب التي تشين الكتابة من أغلاط نحوية أو لغوية .

والذي يتصفح احوال النثر في عصور الانحطاط وقبل انتشار الصحافة في العالم العربي يلمس البون الشاسع بينه وبين النثر بعد ان عمت الصحافة جميع انحاء العالم العربي ، وقد صدق شوقي حيث قال :

لكل زمانٍ مضى آيةٌ ... وآية هذا الزّمان الصحف

وثمة عوامل اخرى مؤثرة في الأدب كالحرية والتقليد ، وظهور بعض الأفذاذ في عصر من العصور ، وإتقان اللغة التي ينظم بها الشاعر خصوصاً اذا كانت في الاصل اجنبية عنه كاللاتينية مثلاً بالنسبة لفرنسا ، فان الفرنسيين لم يستطيعوا ان ينتجوا أدباً حياً بلغة الفاتحين الرومان ، ولم يتمكنوا من ذلك إلا بعد ان ترقت لغتهم العامية الى مصاف اللغات النامية للتكوين.

---

(١) اجتمع في الجيش أمم مختلفة اللغات متباينة اللهجات ، فلا يتفاهم جنوده الا بالمترجمين .
(٢) ان الابطال يمرون بك جرحى مهزومين،على حين انك مشرق الوجه باسم الثغر شجاع منتصر.

موضوعات للبحث

١ – لا بد للأدب من فهم الحياة ، لأن مادة الأدب مستمدة من الحياة – وضح .

٢ – ما أظهر المؤثرات العامة التي تعمل في نشأة الأدب ورقيه وانحطاطه ؟ – تخيّر مؤثرين ، وابسطهما داعماً رأيك بالشاهد .

٣ – قال ابن رشيق :

« ألا ترى ان الدُّرَّ وهو أخو اللفظ ونسيبه .. اذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ، ولم ينتفع به ، فاذا نظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ اذا كان منثوراً تبدَّد في الأسماع ، وتدحرج عن الطباع ، ولم يستقر منه الاَّ الواحدة من الألف .. فاذا أخذ في سلك الوَزْن، وعقدة القافية ، تألّفت أشتاته ، وازدوجت فوائده ، فصار أماني النفوس وأكاليل الرُّؤوس ، يقلب الألسن،ويخبأ في القلوب » – ناقش .

للمطالعة

١ – في الأدب الجاهلي	: للدكتور طه حسين
٢ – الأسلوب	: لأحمد الشايب
٣ – في النقد الأدبي	: لأحمد الشايب
٤ – في الأدب المقارن	: للدكتور غنيمي هلال
٥ – بلاغة العرب في الأندلس	: لأحمد ضيف
٦ – الأدب العربي وتاريخه	: محمد هاشم عطيه
٧ – الأدب وفنونه	: للدكتور عز الدين يوسف
٨ – التوجيه الأدبي	: للدكتور طه حسين وآخرين .

البَابُ الأَوَّل

النَّثْرُ وَفُنُونُهُ

الفصل الثاني

الرّسائل

اولاً : الرسالة :

الرسالة من اقدم فنون النثر الكتابي نشأة ، وكانت الرسائل في عهد النبي عليه السلام ، والخلفاء الراشدين ، وأوائل عهد بني امية ، تكتب بلغة التفاهم ، قصيرة يسيرة ، ولم يكن هناك قراطيس ، وإنما كانت تكتب في الرقاق، مهمتها الاولى بيان الغرض منها بأوجز عبارة واوضحها، وكان اكثرها يمليه الخلفاء او الولاة او القواد من إنشائهم على الكتاب، لمكانهم من الفصاحة وقوة ملكة الارتجال .

ولما عظم امر الخلافة ، وكثرت مهام الدولة ، وتعربت الدواوين عَهِدَ خلفاء بني امية بكتابة الرسائل إلى كتابهم من ابناء عرب الشام والعراق ومصر ، ومن الموالي من الفرس والروم والقبط المتعربين، فاتخذها هؤلاء صناعة وتأنقوا في صوغ عباراتها ، وتخير ألفاظها ، واقبلوا على تعلّم الادب ، وحفظ القرآن ، واشعار العرب ، واقتبسوا منها ، وادخلوا في عبارة الكتابة كل ما استحسنوه من تشبيهات الشعر وضروب الامثال والحكم ، وترجموا الى العربية كل ما اعجبهم من وجوه الأداء في اللغة الفارسية والرومية ، وقد برع في ذلك عبد الحميد بن يحيى في اخريات عهد بني اميّة ، وصارت الكتابة على يديه فناً عظيماً تدخل جودتها على النفس سروراً وبهجة .

ولما انتشرت الترجمة من اليونانية والفارسية وغيرهما ، وتعلم العرب المنطق والفلسفة ، وعرفوا كثيراً من آداب الفرس وحكم الهند وفلسفة اليونان لم يعد يرضيهم ذلك الاسلوب القديم في الرسائل ، ولذا توفر الكتاب على هذه الثقافات الدخيلة يستوعبونها ، إذ اصبحت ضرورية

لكل كاتب يبغي التفوق والرياسة ، فجمعوا بهـذا بين بلاغة العرب وجزالة اسلوبهم ، وسلاسة عباراتهم ، وبين تلك المعاني العميقة والثقافة المستحدثة التي عرفوها عن طريق الترجمة ، وقد تجلى كل هذا في الكتابة البليغة التي صدرت عن خلفاء الدولة ووزرائها ، ورؤساء الدواوين وعن كبار الادباء في العصر العباسي .

أنواع الرسائل :

١ — رسائل إخوانية (او ادبية) .

وهي ما يتبادله الأصدقاء والإخوان ، واسلوبها ادبـي خالص، تنفعل فيها العاطفـة ، ويحلّق في سمائها الخيال ؛ لهذا كانت ادخل في فنّ الأدب ، واحفل بالصور البيانية، والصنعة البديعية ، والسلاسة والعذوبة، وتتباين موضوعاتهـا بتباين مناسبتها ، فقد تكتب لغرض التهنئة ، أو التعزية ، وقد يكون موضوعها : شوقاً ، او عتاباً ، او شكوى ، او تقريظاً ، كهذه الرسالة التي بعث بها الإمام محمد عبده إلى حافظ إبراهيم شاعر النيل يشكره على ترجمته لرواية (البؤساء) وإهدائه إياها .

كتب الإمام يقول :

« لقد زَفَفْتَ إلى أهل اللغة العربيّة عَذْراء من بنات الحكمـة الغربية ، سَحَرَتْ قَوْمها ، وملكَتْ فيهم يومها ، ولا تزال تُنَبِّهُ فيهم خامداً ، وتهزّ جامداً ؛ بل لا تنفك تُحْيي من قلوبهم ما أماتَتْهُ القسوة ، وتقوّم من نفوسهم ما عجزت فيه الأسوة .

حكمةُ أفاضها اللهُ على رجل منهم ، فهدى إلى الْتِقَاطِهَا رجلاً منّا ، فجرّدها من ثوبها الغربيّ ، وكساها حُلّةً مِنْ نسيج الأديب، وجلاّها للناظر ، وحلاّها للطالب بعد ما أصلح من خَلَقها ، حتى ظهرت محببة إلى القلوب ... » .

٢ — رسائل ديوانية او (رسمية) :

وهي التي تصدر عن دواوين الدولة ، كالرسائل التي كتبها الخلفاء والامراء الى رعاياهم او عمالهم ، واسلوبها مزيج من الفكرة المنطقية ، والجمال اللفظي ، في لغة دقيقة بعيدة عن احتمال التأويل ، غير انها قد تنال على ايدي بعض الكتاب المثقفين حظاً يسيراً من الاناقة لا يطغى على المعلومات الهامة التي هي الاساس الاول لإنشائها . ومن امثلة هذا النوع رسالة عمر بن الخطاب الى ابي موسى الأشعري .

نموذج تطبيقي :

في القضاء

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الأشعري .

بسم الله الرحمن الرحيم : مِنْ عبدالله عمرَ بن الخطّاب امير المؤمنين الى عبدالله بن قيس : سلام عليك ، اما بعدُ : فإنَّ القَضَاءَ فريضةٌ مُحْكمة ، وسُنَّة متَّبعة ، فافْهَمْ إذا أُدْلِيَ[1] إلَيْكَ ، وانفُذْ إذا تبيَّن لك ، فإنّه لا ينفع تكلُّمٌ بحق لا نفاذ له، آس[2] بَيْنَ النّاسِ في وَجْهِك وعَدْلِك ومجلسك حتى لا يطمَع شريفٌ في حَيْفك[3] ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البيِّنَةُ على من ادَّعَى ، واليمينُ على من انكر ، والصلحُ جائزٌ بين المسلمين ، إلاّ صُلْحاً أحَلَّ حراماً ، أو حرَّم حلالاً ،ولا يمنعَنّكَ قضاءٌ قضيتَه اليومَ فراجعتَ فيه عقلكَ ، وهُديتَ فيه لِرُشْدك ، أنْ ترجع إلى الحقّ ، فإنَّ الحقَّ قديمٌ ، ومُراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

الفهمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ[4] في صدرك مما ليس في كِتاب الله ،

(١) ادلى بحجته : احتج بها .

(٢) آس : سو بينهم ، واجعل كل واحد منهم اسوة خصمه ، يقال : أسوت فلاناً بفلان اذا جعلته اسوته ، قال في (لسان العرب) ومنه قول عمر .

(٣) أي في ميلك معه لشرفه .

(٤) تلجلج : تردد .

ولا سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اعرفِ الاشباهَ والامثالَ ، فَقِسِ الأمورَ عِنْدَ ذلك بنظائرها ، واعمدْ إلى أقربها إلى الله ، واشبهها بالحق ، واجعل لمن ادَّعى حقاً غائباً او بيّنةً أمداً ينتهي اليه، فإن أحضر بيّنةً أخذتَ له بحقّه ، وإلا استحْلَلْتَ عليه القضية ، فإن ذلك أنْفىَ للشَّكِّ وأجْلى للعمى ، وأبلغ في العذر .

المسلمون عُدُولٌ بعضهم على بعض إلا مجاوداً في حَدّ ، أو مجرَّباً عليه شَهادةُ زُور ، أو ظَنيناً[1] في ولاء أو نَسَب ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات[2] والأيْمان ، وإيَّاكَ والغَلَق [3]، والضَّجَرَ ، والتأذي بالخصوم والتنكُّر عند الخصومات ، فإنَّ الحقَّ في مواطن الحق يُعْظِمُ الله به الأجر ، ويُحْسِنُ به الذُّخْرَ ، فمن صحت نيتُه ، وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلّق[4] للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه ، شَانَه الله ، فما ظَنُّك بثوابٍ عند الله عزَّ وجل في عاجِلِ رزقه وخزائن رحمته !! والسّلام.

صاحب القطعة :

هو عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ، وأحد شجعان العرب في الجاهلية وفي الإسلام ، آمن غيره خفية ، وهاجر خفية ، ولكنه اسلم جهاراً ، ولقد أعز الله به دينه ، وجمع به كلمة المسلمين يوم السقيفة ، وقد كان سديد الرأي ، أيده القرآن في كثير من آرائه ، وكان في خلافته رحيماً عادلاً ، كما كان شديداً في الحق . وكان يلقب بالفاروق ، لانه فرق بين الحق والباطل ، وكان يتفقد بنفسه ما يستطيع ان يتفقد من شؤون الرعية ، ويشرف على سلوك الولاة والقضاة ، وممن استقضاهم عمر على الأمصار ابو الدرداء على المدينة ،وابو موسى الاشعري

(١) ظنيناً : متهماً .

(٢) درأ : دفع .

(٣) العلق : ضيق الصدر ، وقلة الصبر .

(٤) أي تكلف وتصنع .

على الكوفة ، وهو اول خليفة فعل هذا ضماناً لتحقيق العدالة .

تحليل القطعة :

هذا برنامج محكم في القضاء ، ودستور عظيم لما يجب ان يكون عليه القاضي العادل ، يضعه الخليفة عمر بن الخطاب بين يدي احد رجاله وهو ابو موسى الأشعري حتى يسترشد به ، ويسير على منواله ، ومن ثم تعتبر هذه الرسالة مصدراً هاماً ووثيقة قضائية عظمى .

فهو يطلب الدقة في الفهم ، والبصر بالامور ، والمرونة في تكييف القضايا ، والمساواة بين الناس لا فرق بين كبير وصغير في مجلس القضاء.

ثم يوضح بعض بنود القانون : فالبينة على المدعي ، وحلف اليمين على المنكر ، والصلح جائز بين المتنازعين ، ونقض الحكم واجب اذا تبين الصواب فيما بعد ، وتحديد أجل معين لمن ادعى حقاً غائباً .

ثم وضح له مصادر القانون التي يجب ان يعتمد عليها في قضائه هي : كتاب الله — وسنة رسوله — والقياس — والاجتهاد .

ثم وضح له صفات الشهود ، والقاضي العادل ؛ فالمسلمون سواسية يسعى بذمتهم أدناهم ، الا صاحب الصحيفة السوداء المطعون في دينه وخلقه ، فلا يؤخذ بشهادته ، والقاضي العادل : هو الذي لا يضيق صدره ، ولا يضجر ، ولا يؤذي الخصوم .

والرسالة الى جانب انها رسمت سياسة عادلة في القضاء ، وتنفيذ احكام القانون السماوي ، فقد جمعت بين قوة الأسلوب ووضوح المعنى ، وسهولة العبارة ، وقلة الغريب ، وتجنب التعقيد .

أسلوب القطعة :

١ — يختلف اسلوب الرسائل باختلاف موضوعاتها ، فهو يرق اذا كان موضوع الرسالة وجدانياً او عاطفياً ، وهو ينزع الى الجزالة والفخامة

اذا كان موضوع الرسالة يتصل بأمر ذي خطر — كما هو الحـال هنا؛ فالقطعة تتميز بالجزالة وقوة التعبير، وقد تأثر فيها الكاتب بالروح الإسلامية.

٢ — والقطعة صورة من الاسلوب العربي الذي عرف به العرب في الجاهلية ، وصدر الاسلام من ارسال الكلام دون التفات لأجزائه فهو يسير مع الفكرة موفياً جوانبها ، ومؤكداً لها بضروب التعبير المتفاوتة ، قريب التناول ، قصير الفواصل طويل النفس في ايضاح الفكرة .

٣ — وكان القدماء يستهلون رسائلهم بقولهم (أما بعد) أو (من فلان الى فلان) ويختمونها بمثل قولهم (والسلام) او (السلام عليك). اما نحن اليوم فنفتتح الرسائل عادة بلفظي التحية والاحترام ونختمها بقولنا: (وتفضلوا بقبول فائق الاحترام) .

٤ — وقد تطور معنى الرسالة مع الزمان فأمست تعني — الى جانب معناها الاصلي — (الكتاب) كما في تسمية الجاحظ لأحد كتبه (رسالة التربيع والتدوير) وتسمية المعري (رسالة الغفران) .

واليوم أصبحنا نطلق لفظ (الرسالة) على البحث والدراسة ، فيقال رسالة (في الادب) ورسالة (في القانون) .

٥ — وقد اشتهر من كتاب الدواوين جماعة كان لهم في اللغة والادب فضل ظاهر ، منهم عبد الحميد الكاتب ، والحسن بن سهـل ، وأبو إسحاق الصابي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد، والقاضي الفاضل، وأبو جعفر بن عطية .

أما الرسائل الإخوانية فهي أوسع مجالاً ، ومن أشهر من طرقها : الجاحظ ، والخوارزمي ، وبديع الزمان ، وابن زيدون .

وفي الادب الحديث كثير من الرسائل الفنية التي كتبها أصحابها لأغراض مختلفة ، كالرسائل التي نقرأها لطه حسين ، وعبد العزيز البشري ، ومصطفى صادق الرافعي ، ومي زيادة ، وجبران .

ثانياً : الوصيَّة :

وهي في الحقيقة فن بين المحاضرة والرسالة ، فإذا قيلت مشافهة فهي أقرب إلى المحاضرة ، وإذا كتبت فهي رسالة ، ويبذلها أصحاب الخبرة بالحياة لمن عدموا مثل خبرتهم ، وأكثر الوصايا : إما بلسان والد ينصح لولده كوصية القصار الشاعر المغربي لابنه ، فقد دعاه إليه ، وضمه إلى صدره ، وقبله من جبينه ، وقال له : « إنني يا بني مفارق دنياي عن قريب ، كما فارقتها أمك من قبل ، وستكون في هذه الدار منذ الغد وحدك ، لا أب فيها ولا أم ، فإذا قلَّبتَ عينك فيما حولك فلم تجد إلا نفسك فاذكرنا ، وادع الله ان يرحمنا ، واحفظ لنا في قلبك من معاني الحب بقدر ما حفظنا لك ، وأنت اليوم صغير ، كما كان أبوك وأمك من قبل ، وكأني بك بعد سنين قد كبرت وصرت أباً ، فلا يسرّك شيء يومئذ قدر ما يسرك أن يحبك ولدك » .

وإما بلسان والدة تنصح ابنتها ، كهذه الوصية المأثورة عن إحدى الأعرابيات ، انها جعلت تقول لابنتها يوم زُوِّجَت : « اي بُنَيَّة ، إنك فارقت الجوّ الذي منه خرجت ، وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فاحملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينيه ، والتفقد لموقع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والماء اطيب الطيب ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، ولا تفشي له سراً ، ولا تعصي له أمراً ، ثم اتقي الفرح إن كان ترحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً ، وكوني له معظمة يكن لك مكرماً » .

وإما بلسان اديب ينصح لاديب امر صناعته على نحو ما نصح أبو تمام الشاعر العباسي للبحتري في وصية شهيرة تتعلق بنظم الشعر وإجادته منها : تخير الأوقات وانت قليل الهموم ، صفر من الغيوم ، وأحسن الاوقات

لتأليف شيء أو حفظه وقت السحر ، لان النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، واكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبـة ، وقلق الاشواق ولوعة الفراق » .

موضوعات للبحث

١ — ما الخصائص العامة في أساليب الرسائل الديوانية ؟ استشهد بجمل تعزز رأيك .

٢ — أنشيء رسالة (إخوانية) لأحد إخوانك من البلاد العربية ترغبه في زيارة المغرب ، وتصف له ما يشتمل عليه المغرب من آثار ، ونهضة ، وجمال طبيعة .

٣ — لماذا حض أبو تمام على تخير الاوقات ، وهل توافقه على هـــذا الرأي ، وهل ترى رأيه في ملاءمة اللفظ والمعنى للغرض ؟ أنشيء موضوعاً في هذا .

للمطالعـة

١ — جمهرة رسائل العرب : لأحمد زكي صفوت

٢ — البيان والتبيين : للجاحظ

٣ — العقد الفريد : لابن عبد ربه

٤ — إعجاز القرآن : لمصطفى صادق الرافعي

٥ — المختار من المطالعة التوجيهية : لعمر الدسوقي

٦ — تاريخ الإسلام السياسي : لحسن ابراهيم

الفصل الثالث

القصص [7]

القصة :

القصة من أبرز أنواع النثر الادبي ، وهي اكثر أنواع النثر استهواء للنفس ، وبعثاً للشوق ، ولذا حثت على استعمال اسلوبها التربية الحديثة في كثير من جوانب التعليم ، وقد اتسع ميدانها في العصر الحديث في تصوير المشكلات العامة وعلاج أمراض المجتمع ، مثل تصوير الكفاح في سبيل الحرية ، ومشاكل البطالة وحقوق المرأة ، والرغبة في القضاء على العادات والتقاليد السيئة .

والقصص قديم في اللغة العربية وقد رفع القرآن الكريم من شأنه في هذه اللغة قال تعالى : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » ، « نحن نقصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآنَ وإنْ كنتَ من قبله لمن الغافلين » .

ولكن القاص لم تكن له منزلة الشاعر والخطيب .

والقصة — إلا ما كان منها مثلاً — تستدعي الطول وليس يتفق فيها من قوالب الكلام ما يتفق من وزن وقافية في الشعر . بل ليس يتفق فيها مع ارتجالها ما يتفق في الخطبة المرتجلة من سجع . ومن هنا يستحيل القول : بأن لدينا قصصاً عربية يمكن الاعتماد على صحة نسبتها بنصها الى الجاهلية .

أنواع القصص

تنقسم القصة الى ثلاثة أقسام :

١ — واقعية : وتصور الاشياء المرئية أو المسموعة مثل كتب الرحلات وقصص المخترعين والمكتشفين .

٢ — خيالية : وهي التي يتخيلها القاص في موضوعها وفي أشخاصها، وكثيراً ما توضع على ألسنة الطير والبهائم وغيرها،مثل (كليلة ودمنة) ، ومثل (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري .

٣ — خيالية واقعية :وهي التي ترتكز على حقائق ينسج حولها الخيال كثيراً من التهويل ، مثل قصة عنترة ، وقصة أبي زيد الهلالي ، وقصة الظاهر بيبرس ، والإلياذة والأوديسة وغيرها مما كان على شاكلتها . والقصة من حيث معناها العام أنواع عديدة فهناك قصة الحادثة ، وقصة الشخصية ، وقصة الأجيال ، وقصة البيئة ، وقصة الفكرة . أما من حيث القالب والشكل فأربعة :

١ — القصة الطويلة أو الرواية :

وقد تستغرق عدة مجلدات وفيها متسع للتحليل والتفصيل والبراعة الاسلوبية،والتفنن في رسم دخائل النفوس وتبيين محاسن الاشياء ومساوئها، وتنقسم الرواية فيما يتعلق بموضوعها أقساماً عديدة أشهرها : رواية العجائب والمغامرات،كقصة جلفر والروايات البوليسية،ورواية العواطف .

ورواية التحليل النفسي ، والرواية الهادفة مثل كوخ العم توم ، والرواية الاجتماعية ، والرواية التاريخية .

٢ — القصة :

وهي تتوسط بين الرواية والأقصوصة وفيها يعالج الكاتب جوانب

أرحب لأن فكرتها تمتاز بالسعة ، ولذا لا يستطيع صوغها إلا الافراد الذين تمرسوا في فن القصة،وفي استطاعتهم سردها ، وسوقها سوقاً فنياً شائقاً ، وهي تتحمل كثرة التعدد في الاشخاص والامكنة والازمنة .

٣ — الأقصوصة :

قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانباً من جوانب الحياة الواقعية ، في ترتيب يخلقه الاديب الفنان ليبرز ظاهرة او ظواهر خاصة ، أو ليحلل حادثة أو شخصية بأسلوب يفهمه القــارىء العادي ، وفي حجم يمكن من قراءتها في جلسة واحدة .

ويندرج تحتها قصة المثل ، وقصة الفكاهة ، والقصة النادرة، والمقامة، والاقصوصة الفنية ، وسنحدثك عن ذلك كله في الدروس القادمة .

٤ — الحكاية :

هي سَوْق واقعة أو وقائع حقيقية او خيالية لا يلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة ، بل الكلام كما يواتيه طبعه ، والحكايات في الأكثر تكون منقولة عن أفواه الناس ، وكل أنواع القصة يمكن وجودها في الحكاية .

نماذج تطبيقيّة

١- القصــة الاسطورة

(وادي الأفاعي)

قال السندباد البحري :

سافرت من بغــداد إلى البصرة حيث أبحرت مع جماعة من التجار وسارت بنا السفينة من جزيرة إلى جزيرة ، ومن بلد إلى بلد ، وكانت تجارتنا رابحة حتى بلغنا جزيرة كبيرة جميلة المنظر .

فنزلنا بها فلم نجد فيها أحداً من الناس ، فأكلنا من فاكهتها وشربنا من مائها العذب ، ثم ذهب أصحابي يجولون في الجزيرة وجلست منفرداً في ظل شجرة كبيرة ، وأمامي جدول الماء على جانبيه الأزهار ،فاخذتني سنة من النوم — ولم أعلم كم ساعة نمت — وما كدت أستيقظ حتى تملكني الرعب والفزع ، فقد بحثت عن رفاقي فلم أعثر لهم على أثر .

هناك علمت أن السفينة قد أقلعت بهم دون أن ينتبه أحد منهم إلى غيابي ، فأسرعت إلى الشاطىء — وأنا كالمجنون لشدة مــا لحقني من الجزع واليأس — ورأيت السفينة تغيب عن ناظري شيئاً فشيئاً حتى اختفت فصرخت من الألم وتملكني اليأس والفزع فوقعت على الارض مغشياً علي، وبقيت كذلك زمناً طويلاً ، ولما افقت أخذت ألوم نفسي عــلى هذه الرحلة المشؤومة اشد اللوم .

وتلفت حولي فلم أجد احداً ، فتسلقت شجرة عالية ورميت ببصري في كل ناحية من نواحي البحر فلم أر شيئاً غير الماء والسماء ، ودرت ببصري في الجزيرة ، فرأيت—عن بعد—قبة بيضاء عاليةتلمع لمعاناً شديداً في ضوء الشمس ، فنزلت من الشجرة،وجريت إليها بكل قوتي حتى دنوت

منها فرأيتها شاهقة ، فلمستها بيدي فإذا هـي ملساء لا يمكن الصعود عليها ، ودرت حولها فلم أر لها باباً ولا منفذاً فلما قست دائرتها وجدتها خمسين خطوة .

وبينما أنا أتأملها إذ وجدت الدنيا قد أظلمت وأقبل علي سواد عظيم حجب عني ضوء الشمس ، فتأملته فإذا هو طائر عظيم الجسم، فتذكرت للحال ما كنت أسمعه من المسافرين والتجار عن طير الرُّخ ، وأدركت ان هذه القبة الكبيرة هي بيضته ، ولم يكد ينزل طير الرخ حتى جلس على بيضته فاحتضنها بجناحيه ونام فوقها، فنظرت الى مخلبه فرأيته لعظمته كأنه جذع شجرة ، فحللت عمامتي ، وربطت نفسي بإحدى رجليـه ربطاً محكماً ، رجاء ان يحملني في اليوم الثاني الى مكان آخر غير هذه الجزيرة النائية ، وقد تحقق ظني فلم يكد يطلع الفجر حتى طار وما زال يعلو في الفضاء حتى اختفت الارض عن ناظري ، وظل طائراً بـي مدة من الزمن ، ثم هبط بـي فجأة الى الارض فأغمي علي، ثم أفقت لنفسي فرأيت طير الرخ قد وقف على الارض ففككت رباطي للحال، وفرحت بالخلاص من تلك الجزيرة المقفرة .

ولكن فرحي لم يطل ، فقد رأيت طير الرخ ، قد انقض على حية كبيرة فابتلعها وطار في الفضاء وما زال طائراً حتى غاب عني، فنظرت الى ما حولي ، فندمت على ترك الجزيرة والمجيء الى هذا المكان الذي لم تكتب السلامة لأحد وصل اليه ، فقد هبط الرخ — لسوء حظـي — الى واد عميق تحيط به جبال شاهقة من كل جهة ، وليس فيها مكان للصعود ولا منفذ يخرج منه الانسان ، فقلت لنفسي (إنا لله وإنا اليـه راجعون) كلما نجوت من مصيبة وقعت في مصيبة شر منها .

ونظرت الى ارض الوادي فرأيت حجارته من الماس ، ففرحت بذلك فرحاً شديداً ، ولكن فرحي لم يدم طويلاً ،فقد رأيت في الوادي كثيراً من الافاعي الهائلة التي تبتلع الفيل بسهولة لضخامتها وكبر حجمها . وكانت هذه الافاعي — لحسن حظي — تختفي في الكهوف والمغارات في اثناء النهار خوفاً من طير الرخ — وهو عدوها اللدود الذي يبتلعها كلما

ظهرت — فاذا أظلم الليل خرجت الافاعي كلها الى الوادي .

فمشيت في ذلك الوادي طول النهار،ولما جاء الليل أسرعت الى كهف صغير فدخلته وسددت منفذه بحجر كبير حتى آمن شر الافاعي،وأكلت من الزاد القليل الذي أحضرته معي من الجزيرة وحاولت ان أنام فلم استطع ، فقد كنت أسمع فحيح الافاعي ، وهي تزحف امام الكهف فيمتلىء قلبي رعباً ، وما زلت طول الليل خائفاً أتوقع الشر .

ولما طلع الصباح انقطع فحيح الافاعي فعلمت انها قد عادت الى مخابئها وكهوفها فحمدت الله على ذلك ، وخرجت من الكهف ومشيت في الوادي وانا افكر في هذه النهاية المحزنة التي وصلت اليها ورأيت كل ما فيه من أحجار الماس الثمينة لا يساوي عندي شيئاً ، وتمنيت لو كان في ذلك الوادي بدل هذه الحجارة الكريمة شيء من الطعام او الشراب.

ورأيت صخرة قريبة مني فجلست عليها — وانا مهموم لا أمل لي في الخلاص — فغلبني النعاس فنمت قليلاً ، ثم استيقظت مذعوراً خائفاً ؛ فرأيت قطعاً كبيرة من اللحم تتساقط الى جانبي على ارض الوادي من اعلى الجبل .

فرأيت ما كنت أسمعه من التجار عن وادي الماس وعن الطريقة العجيبة التي يحصلون بها على أحجاره ،وهي ان يذبحوا الخراف ويسلخوا منها جلودها ثم يلقوا بلحمها الطري الى ارض ذلك الوادي فتلتصق به احجار الماس ، وتأتي النسور بعد قليل من الزمن فتخطفه وتحمله الى اعلى الجبل فيصيح بها التجار فتهرب منهم خائفة تاركة لهم ما معها من اللحم ، فيأخذ كل منهم ما علق بقطعته من الماس تاركاً اللحم — بعد ذلك — للنسور الجائعة .

وقد كنت قبل اليوم أحسب هذا الكلام خرافة يرويها الناس — على سبيل الفكاهة — حتى رأيته بعيني حقيقة واقعة .

فبدا لي أمل في النجاة وتخيرت من احجار الماس أنفسها ثم نمت على ظهري ووضعت فوقي احد هذه الخراف المذبوحة وأمسكته بيدي بكل

قوتي حتى جاءت النسور فرفعت تلك اللحوم وجاء نسر كبير فرفع الذبيحة التي كنت متعلقاً بها ، ولم يزل طائراً حتى بلغ أعلى الجبل فوضعها عليه ، وأسرع التجار إلى النسور فخافت وهربت منهم تاركة لهم ما معها من اللحم فوقفت على قدمي ؛ ولم يكد يراني صاحب الذبيحة حتى تملكه الخوف ونظر إلى ذبيحته فلم يجد بها شيئاً من الماس فصرخ ولطم وجهه نادباً سوء حظه ، وضياع تعبه بلا فائدة ، فدنوت منه وحييته فاطمأن ثم أعطيته كثيراً من الماس ، فتبدل حزنه فرحاً وسروراً ، وسألني عن قصتي فأخبرته بما حدث لي فذهل ودهش معه جميع التجار أشد دهشة ، ثم سافرت معهم إلى بلادي .

القصة الأسطورة :

هذه القصة تروي حادثة أسطورية ، والأسطورة هي كل حكاية خرافية يقوم بدور البطولة فيها كائن ذو قوة خارقة ، تجعله فوق البشر (السوبرمان) وكثيراً ما تكون الآلهة هي أبطال الاساطير ، كما في الاساطير اليونانية .

كتاب ألف ليلة وليلة :

هو مجموعة حكايات ليس لها مؤلف واحد معروف ، وهي مزيج من آداب مختلفة وثقافات شتى هضمها العرب ، وأخرجوها بلون عربي بارز ، فهي وإن كانت في بعض حكاياتها فارسية الأصل ، أو هندية الأصل ، أو يونانية الأصل ، فأصلها العربي يبقى مسيطراً سيطرة بارزة.

ومن أشهر حكايات (ألف ليلة وليلة) حكايات (السندباد البحري) التاجر الاسطوري ذي الرحلات السبع ، والقطعة التي قرأتها هي جزء من رحلته الثانية .

٢ - القصـّـة المثـل

(السلحفاة والبطتان)

زعموا أن غديراً كان عنده عشب ، وكان فيه بطتان ، وكان في الغدير سلحفاة بينها وبين البطتين مودة وصداقة ، فاتفق ان غيض ذلك الماء ، فجاءت البطتان لوداع السلحفاة ، وقالتا : السلام عليك فإننـا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه .

فقالت : إنما يبين نقصان الماء على مثلي التي كأني السفينة ، لا أقدر على العيش إلا بالماء ، فأما انتما فتقدران عـلى العيش حيث كنتما فاذهبا بـي معكما .

قالتا : نعم ! — قالت : كيف السبيل إلى حملي ؟

قالتا : نأخذ بطرفي عود ، وتقبضين بفكيك على وسطه ، ونطير بك في الجو ، وإياك إذا سمعت النـاس يتكلمون ، أن تنطقي ! — ثم أخذتاها فطارتا في الجو ، فقال الناس : عجباً ! — سلحفاة بين بطتين حملتاها ! — فلما سمعت ذلك قالت : فقأ الله أعينكم أيهـا الناس ! فلما فتحت فاها بالنطق ، وقعت على الأرض فماتت .

القصة المثل :

إن القصة الخرافيـة التي تنطوي على مغزى حكيم ، سواء أكانت موضوعة على آلسنة الحيوانات ام غير موضوعة على ألسنة الحيوانات تدعى (القصة المثل) وكما تكون نثراً تكون شعراً ، وممن عني بنظمها شوقي .

كتاب كليلةودمنة :

هو كتـاب عظيم القيمة وضعه في الاصل بيدبا الفيلسوف الهندي باللغة السنسكريتية ، والمعروف أن ابن المقفع هو الذي نقله من اللغـة

الفهلوية لأسباب قد يكون منها تحلي ابن المقفع بمزايا الاديب الناضج الذي يحسن لغتين ، وقد يكون منها انه أراد ان يعظ المنصور العباسي ، وبعض حكام عصره الذين لم يعملوا على اطلاق الحرية السياسية .

وسمي الكتاب كله (كليلة ودمنة) باسم ابني آوى اللذين هما محور القصص في الباب الاول ، باب (الأسد والثور) .

ولقد اشتهر كتاب كليلة ودمنة اشتهاراً لا يقل عن الف ليلة وليلة ، فترجم عن العربية إلى لغات عديدة .

٣ - القصة الفكاهة

(قسمة جائرة)[1]

قدم أعرابي على حضري فأنزله ، وكان عنده دجاج كثير ، وله امرأة وابنان وابنتان ، قال : فقلت لامرأتي : إشوي دجاجة وقدميها الينا ، فلما حضر الطعام جلسنا جميعاً ، فدفعت اليه الدجاجة وقلت له، اقسمها بيننا ، قال : لا أحسن القسمة فان رضيتم قسمت ، قلنا : رضينا ، فأخذ الدجاجة فقطع رأسها ، ثم ناولنيه ، وقال : الرأس للرئيس ، ثم قطع الجناحين وقال : والجناحان للابنين ، ثم قطع الساقين والعجز وقال : والساقان للابنتين ، والعجز للعجوز ، ثم قال : والزور للزائر وأخذ سائر الدجاجة .

فلما كان من الغد قلت لامرأتي : إشوي لنا خمس دجاجات، ثم قلت له : اقسم بيننا . قال : أظنكم وجدتم من قسمة أمس !! قلنا : لا ، قال : شفعاً أم وتراً ؟ قلنا : وتراً ، قال : أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ، وابناك ودجاجة ثلاثة ، وابنتاك ودجاجة ثلاثة ، وأنا ودجاجتان ثلاثة ، ثم أخذ الدجاجتين ورآنا ننظر الى دجاجتيه فقال : ما تنظرون؟ لعلكم كرهتم قسمتي !

قلنا : فاقسمها شفعاً ، فقبضهن اليه ، وقال : انت وابناك ودجاجة اربعة ، والعجوز وابنتاها ودجاجة اربعة ، وأنا وثلاث دجاجات اربعة وضم اليه ثلاث دجاجات .

القصة الفكاهة :

هي الحكاية التي يكون غرضها الاول إيناس القارىء بحادثة طريفة تغريك بالضحك .

---

(١) هذه القصة — والقصتان السابقتان — أضفناها إتماماً للفائدة ، وليعلم التلميذ أنواع القصة في الادب العربي القديم . ومن ثم لم نعقب عليها بتحليل ، أما القصص التي نص عليها المنهج فقد عنينا بتحليلها .

٤ - القصة النادرة

(الأعرابي وجمله)

قال ابن زبنَّج : كان أبان بن عثمان بن عفان من اهزل الناس ، فبينا نحن ذات يوم عنده ، وعنده أشعب[١] ، إذ اقبل اعرابي ، معه جمل ، اشقر ازرق ازعر[٢] يتلظى ، كأنه افعى ، والشر بينٌ في وجهه ما يدنو منه احد الا شتمه ونهره .

فقال أبان : ادعوه الي ، فدعوه ، وقالوا له : ان الامير ابان بن عثمان يدعوك اليه فأتاه فسلم عليه ، فسأله ابان عن نسبه ، فانتسب له، فقال له ابان : حياك الله يا خال ، اجلس ، فجلس ، فقال له : اني اطلب جملاً مثل جملك هذا ، منذ زمان ، فلم اجده كما اشتهي بهذه الصفة ، وهذه الهامة[٣] والصورة والورك والاخفاف ، والحمد لله الذي جعل ظفري به عند من احبه ، أتبيعنيه ؟ فقال نعم ايها الامير ! !

قال : فاني بذلت لك به مائة دينار (فطمع الاعرابي وسر وانتفخ وبان الطمع في وجهه) فأقبل ابان على اشعب ثم قال له : ويلك يا اشعب ! ! ان خالي هذا من اهلك وأقاربك،فاوسع له مما عندك فقال : نعم ! ! بأبي انت وزيادة ! !

وقال له ابان : يا خال ، انما زدتك في الثمن على بصيرة ، ان الجمل يساوي ستين ديناراً ، ولكني بذلت لك مائة دينار لقلة النقد عندنا ، واني معطيك عروضاً تساوي مائة دينار(فزاد طمع الاعرابي) وقال : قد قبلت ايها الامير ! !

وأسَرَّ ابان الى اشعب فأخرج شيئاً مغطى ، فقال له : أخرج ما جئت به ، فأخرج عمامة بالية تساوي اربعة دراهم !

فقال له : قومها يا اشعب .

---

(١) هو رجل من المدينة كان يضرب به المثل في الطمع .

(٢) الأزعر : القليل الشعر ، والمراد هنا الشرس .

(٣) الهامة : الرأس .

فقال : عمامة الامير يشهد فيها الاعياد والجمعة ويلقى فيها الخلفاء، خمسون ديناراً .

قال : ضعها بين يديه !!

قال ابن زبنج : فقال لي اثبت قيمتها فكتبت ذلك،ووضعت العمامة بين يدي الاعرابي فكاد يدخل بعضه في بعضه غيظاً ، ولم يقدر على الكلام .

قال ابان : هات قلنسوتي ، فأخرج اشعب قلنسوة طويلة بالية ، قد علاها الوسخ والدهن وتخرقت ، تساوي نصف درهم ، قال : قَوِّمْ .

فقال : قلنسوة الامير تعلو هامته ، ويصلي فيها الصلوات الخمس ، ويجلس فيها للحكم ، ثلاثون ديناراً !!.

قال لابن زبنج : اثبت . فأثبت ذلك ، ووضع القلنسوة بين يدي الاعرابي فاربد وجهه وجحظت عيناه وهمّ بالوثوب ، ثم تماسك !!

ثم قال لأشعب : هات ما عندك ، فأخرج خفين خلقين قد نقبا وتقشرا وتفتتا ، فقال قوّم، فقال : خفا الامير يطأ بهما الروضة ويعلو بهما منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، اربعون ديناراً .

فقال : ضعهما بين يديه !!

ثم قال للأعرابي : اضمم اليك متاعك ، وقال لبعض الاعوان : امض مع الاعرابي واقبض ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع وهي عشرون ديناراً !!

فوثب الاعرابي فأخذ القماش وضرب به وجوه القوم ، لا يألو في الرمي ، وقال لأبان : أتعلم ايها الامير من اي شيء اموت ؟ لأني لم أدرك اباك فأشترك في دمه إذ ولد مثلك !!

ثم نهض كالمجنون حتى أخذ برأس بعيره. وضحك أبان حتى سقط، وضحك من كان معه .

القصة النادرة :

هي الحكاية التي تمعن حوادثها في الغرابة والتي يندر وقوعها، ويغلب أن تكون تاريخية اشخاصها معروفون في التاريخ ، ولكنها ليست تاريخاً، ولان سوقها الفني يجعل القارىء يدرك أنها نسجت للمتعة .

صاحب القصة :

هو ابو الفرج علي بن الحسين ولد بأصبهان سنة ٨٩٧ م ، فنسب إليها ، ونشأ في بغداد ، فاتصل بعلماء عصره حتى أتقن النحو واللغة والعلوم الدينية والانساب والسير والنوادر ، وألمّ بشيء من علوم الطب والنجوم والموسيقى ، وكان ينظم الشعر ، فاتصل ببلاطات بغداد ، وحواضر فارس وسيف الدولة بحلب، كما انه اتصل بالأمويين في الاندلس، وقد توفي ببغداد سنة ٣٥٦ هـ — ٩٦٦ م وقد خلف لنا كتابه «الاغاني» .

كتاب الأغاني :

هذه (القصة النادرة) من كتاب الأغاني لابي الفرج الاصفهاني الذي يرتفع في قمة الكتب التي حفلت بالنوادر ، والفن القصصي المليء حياة والموسوم بسمة البلاغة ، وهو كتاب في واحد وعشرين جزءاً . وقيل إن كاتبه وضعه في خمسين سنة ، وأصل ما أراد به ان يجمع فيه الاغاني العربية ، قديمها وحديثها حتى زمانه في متوسط العهود العباسية (القرن الرابع الهجري) ، وكان إذا ذكر الصوت عرّف بقائله ومن غنى به ، وبيّن لحنه ، وطريقته ، وجنسه ، وفسر كيفية توقيعه ، ولكنه تعدى ذلك الغرض الاساسي لأغراض اخرى عديدة ، وأتى في كل فصل بأخبار وسير ، واشعار متصلة بأيام العرب المشهورة، واخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية . والخلفاء في الاسلام ، حتى كان من أهم المراجع لتاريخ الادب .

إلا ان معظم المصطلحات الموسيقية المذكورة في هذا الكتاب قد ضاع ،

ولم تحافظ عليه تقاليد موسيقية[١] في البلاد المشرقية ، كما حافظ أهـل المغرب على ذلك عملياً لا نظرياً ، ومن ثم فإن فائدة الكتاب قد انعدمت من هذه الناحية ، واقتصرت على الناحية الادبية فقط .

تحليل القصة :

هذه القصة تكاد تكون نسجاً أدبياً ، وعملاً فنياً ، فيه إبداع قصصي لا سبيل إلى الزيادة في تكامله ، من حيث التوازن في تقسيم القصـة ، والتدرج في مراحلها وعرضها ، ومن حيث الحوار ، والسرد الوصفي،

---

(١) الموسيقى.

(ا) الغناء مركب من الالحان ، والالحان مركبة من النغمات ، والنغمات مركبـة من النقرات والايقاعات ، واصلها كلها حركات وسكون .

(ب) النغم : اصوات موسيقية تلبث زماناً على درجة من الحدة .

(حـ) اللحن : الديوان الذي يتألف فيه النغم .

(د) أبراج الانغام : درجاتها .

(هـ) القرار : طرف القطعة الذي يقطع المغني صوته اذا انتهى اليه .

(و) الرصد : المقام الاول من الانغام .

(ز) الجماعة : السلم الموسيقي .

(خ) المساوقة : مصاحبة آلة لآلة اخرى في العزف .

اصطلاحات الموسيقى :

(ا) أوتار العود الاربعة أغلظها (البم) ويليه (المثلث) ، ثم (المثنى) ثم (الزير) و(الملاوى)، وهي (الآذان) التي تلوي عليها الاوتار . (ومشط العود) وهو الشبيه بالمسطرة الذي تشد عليه الاوتار من تحت أنف العود وهو مجمع الاوتار من فوق و (الابريق) وهو اسم لعنق العود بما فيه الآلات ، و (المضراب) وهو الذي تضرب به الاوتار .

(ب) الجس : نقر الاوتار بالسبابة والابهام دون المضراب على التشبيه بجس العرق .

(حـ) الحزق : شد الوتر ونقيضه الإرخاء .

وطلاوة التعبير ، ومن حيث الغاية فهي تسفيه لأهل الهزل ، وبلوغها الغاية في المتعة الفنية ، حتى اننا نجد شرائط القصة الحديثة مطبقة فيها .

فلها مدخل عرفنا فيه الكاتب بأشخاص القصة ، وسلط أضواءه على البطل وخصه بمزيد من العناية فعلمنا انه أعرابي ذو عقلية خاصة ، ثم انطلق إلى صلب القصة ، وأخذ في العرض والبسط فأثار كوامن فضولنا ، وشوق نفوسنا إلى النهاية مستعيناً بالحوار والوصف ، إلى ان حبكت عقدة القصة ، وبلغت ذروتها ، ثم إذا بالانفجار يقع فتحل العقدة .

٥ - المقـــامـــة

(المقامة الصنعائية)(١)

حَدّث الحارثُ بن هَمّام قال : لمّا اقتعدتُ غاربَ(٢) الاغتراب ، وأنأتني المتربةُ(٣) عن الأتراب(٤) ، طوّحتْ بي طوائحُ الزّمن ، إلى صَنْعاء اليمَن ، فدخلتُها خاليَ الوِفاض(٥) باديَ الإنفاض(٦) ، لا أملكُ بُلْغَةً(٧) ، ولا أجدُ في جرابي مُضْغَةً(٨) ، فطفقتُ أجوبُ طُرقَها مثلَ الهائم(٩) ، وأجول في حَوْماتها جَولانَ الحائم(١٠) ، وأرود في مسارح لَمَحاتي ، ومسايح(١١) غَدَواتي ورَوْحاتي كريماً أخْلِقُ له دِيباجتي (١٢) ، وأبوحُ له بحاجَتي ، أو أديباً تُفرّج رؤيتُه غُمّتي وتُرْوي روايتُه غُلّتي (١٣) ، حتى أدنتني خاتمةُ المطاف ، وهَدَتْني فاتحةُ الألطاف(١٤) إلى نادٍ رحيب ، مُحتو على زِحام

---

(١) نسبة الى صنعاء اليمن والقياس صنعاوية لأن الألف للتأنيث .
(٢) الظهر .
(٣) الفقر .
(٤) الأصحاب .
(٥) الجعبة من الجلد .
(٦) ظاهر الإفلاس .
(٧) اليسير من الزاد .
(٨) ما يمضغ .
(٩) الحيران .
(١٠) طائر اذا اشتد به العطش ورد الماء فحام عليه حتى يغرق .
(١١) الارض يسيح فيها الانسان .
(١٢) أريق ماء وجهي .
(١٣) شدة الحاجة الى الادب .
(١٤) اليسير من الطعام .

ونحيب(١) ، فَوَجَدْتُ غابةَ الجمع ، لأسْبُر (٢) ، مَجْلَبةَ الدّمعِ ، فرأيت في بُهرة(٣) الحلْقَةِ ، شخصاً شَخْتَ(٤) الخِلقةَ ، عليه أهْبة السّياحة ، وله رنّة النّياحةِ ، وهو يَطْبع الأسجاعَ بجواهرِ لفظه ، ويقْرَعُ الأسْماع بزَوَاجرِ وعْظه ، وقد أحاطتْ به أخْلاطُ الزّمَرِ(٥) ، إحاطَةَ الهَالة(٦) بالقمر ، والأكمام(٧) بالزّهر ، فَدَلَفْتُ إليه لأقتبسَ من فوائدِهِ وَألْتقط بعض فرَائدِهِ (٨) ، فَسَمِعْتُه يقولُ حين خبّ في مَجاله ، وهَدرَتْ شقَاشِق ارْتجَالِه : أيّها السّادِر(٩) في غُلَوائِه ، السّادل ثَوْبَ خيلائه ، الجامحُ في جَهالاته الجانحُ إلى خزعْبلاته(١٠) إلام تستمرّ على غيّك ، وتَسْتَمْرِيء (١١) مَرْعى بَغْيِك ؟ وَحتّامَ تَتَبَاهَى فِي زَهْوِكَ (١٢) ولا تَنْتَهي عن لَهْوِك ؟ تُبارِزُ بمعصيتِكَ ، ما لكَ نَاصِيَتِكَ (١٣) وتَتَوَارى عنْ قَرِيبك ، وأنتَ بمرْأى رَقيبك ، وتَسْتَخفي عن مملوكك ، وما تخْفَى خَافيةٌ على مَليكك ، أتظنّ أنْ ستَنْفَعُكَ حَالُك ، إذا آنَ ارْتحَالك

---

(١) صوت البكاء .
(٢) أخبر .
(٣) وسطها .
(٤) الدقيق الضامر .
(٥) الجماعات .
(٦) الدائرة حول القمر .
(٧) وعاء الطلع .
(٨) النوادر .
(٩) المستهتر .
(١٠) المضلات .
(١١) تستطيبه .
(١٢) الكبر .
(١٣) مقدم الرأس .

أو يُنْقِذُكَ مالُكَ، حين تُوبِقكَ أعمالُك(١) أو يُغْنِي عَنْكَ نَدَمُكَ، إذا زلّتْ(٢) قَدَمُكَ، أوْ يَعْطِفُ عليك مَعْشَرُك، يومَ يَضُمّكَ مَحْشَرُك، هلاّ انْتَهَجْتَ مَحَجّةَ اهتدائك، وعجّلتَ مُعَالَجَةَ دائك، وفَلَلْتَ(٣) شَبَاةَ(٤) اعتدائك، وقَدَعْتَ(٥) نفسَك، فهي أكبرُ أعدائك؟ أمَا الحِمَامُ ميعادُك، فما إعْدَادُك، وبالمَشيبِ إنْذَارُك، فما أعْذَارُكَ، وفي اللّحد مَقِيلُك(٦) فما قِيلُك، وإلى الله مَصِيرُك، فمَنْ نَصِيرُك؟ طالما أيقَظَكَ الدّهرُ فتَنَاعست وجَذَبَكَ الوعْظُ فتَقَاعَسْت(٧)، وتجلّت لك العبر فتَعَامَيْتَ، وحصْحص لك الحقّ فتَمَاريت(٨) وأذكَرَكَ الموتُ فتناسَيْت، وأمْكَنَكَ أنْ تُواسي فما آسَيْتَ، تؤثر فَلْساً تُوعِيه، علَى ذكْرٍ تَعِيه، وتختار قصراً تُعْلِيه على برٍ تُولِيه، وترغب عن هادٍ تَسْتهديه إلى زَادٍ تَسْتَهْديه، وتُغَلّبُ حُبَ ثَوْبٍ تَشْتَهِيه على ثواب تشْتَريه، يَوَاقيت الصّلاتِ، أعْلَقُ بقلْبكَ منْ مَوَاقيتِ الصّلاة، ومُغالاة الصّدَقَات(٩) آثرُ عندكَ من مُوَالاة الصّدَقَات، وصِحَافُ(١٠) الألوانِ، أشْهى إليكَ منْ صحائِفِ الأدْيَانِ، ودُعابةُ الأقْرانِ آنسُ لَكَ من تِلاوة القرآنِ، تأمر بالمعروف وتَنْتَهِك حِماه، وتحْمي النّكْر ولا تَتَحاماه، وتُزَحْزِحُ عن الظّلم ثم تَغْشَاه، وتَخْشَى النّاسَ والله أحقُ أنْ تخْشاه، ثم أنشد:

---

(١) تهلكك.
(٢) سقطت بصاحبها.
(٣) كسرت.
(٤) الحد.
(٥) زجرها بشدة.
(٦) منزل القيلولة.
(٧) تأخرت.
(٨) شككت.
(٩) المهور.
(١٠) الأواني.

تبّـاً لطـالب دنيـا ثَنَى إليهـا انصبابَـه
مـا يستفيق غـرامـا بهـا وَفَرْطَ صَبَابه (١)
ولو درى لـكفـاه ممـا يروم صُبَابه (٢)

ثم إنه لبّد عَجاجته(٣) ، وغيّض مُجاجته(٤) ، واعتَضَد شَكْوته(٥) ، وتأبط هِراوته ، فلما رَنَت الجماعة إلى تحفّزه ، ورأت تأهبَه لمزايلة مركزه ، أدخَل كل منهم يده في جيبه ، فأفعم له سَجْلاً من سَيْبه ، وقال : اصْرف هذا في نفقتك ، أو فرقه على رُفقتك ، فقبله منهم مغضياً ، وانثنى عنهم مُثنياً ، وجعل يُودع من يشيّعه ، ليَخفى عليه مَهْيَعُه ، ويُسَرّبَ من يتبعه ، لكي يُجهل مَرْبَعُه .

قال الحارث بن همام : فأتبعته مُوارياً عنه عِياني ، وقَفَوْت أثره من حيث لا يراني ، حتى انتهى إلى مغارة ، فانساب فيها على غَرارة(٦) ، فأمهلته ريثما خلع نعليه ، وغسل رجليه ، ثم هجمتُ عليه فوجدته مُثَافِناً(٧) لتلميذ ، على خبز سميذ (٨) ، وجدي حَنِيذ(٩) ، وقُبالتهما خابية نبيذ(١٠) ، فقلت ياهذا أيَكُون ذاك خبرك ، وهذا مخبرك ، فزفر زفرة القيظ ، وكادَ يتميّزُ من الغيظ ،

(١) شدة الحب
(٢) البقية اليسيرة
(٣) سكن الغبرة
(٤) الريق
(٥) القربة
(٦) الغفلة
(٧) مجالساً
(٨) الخبز الابيض
(٩) السمين
(١٠) الخابية : الوعاء .

ولم يزل يُحَمْلق إليّ حتى خفت أن يسطو علي ، فلما أنْ خبتْ(١) ناره ، وتوارى أوَارُه ، أنشد :

لبستُ الخميصةَ أبغي الخبيصةَ أنشبت شِصِّيَ في كلِّ شيصهْ(٢)
وصيرت وعظي أحبُولَةً أريغ القَنَيص بها والقنيصه(٣)
وألجأني الدهر حتى وَلِجْتُ بلطف احتيالي على اللّيْثِ عيصَه(٤)
على أنني لم أهب صَرفَهُ ولا نبضت ليَ منه فريصَهْ(٥)
ولا شرعت بي على موردٍ يُدنِّسُ عرضي نفس حريصه(٦)
ولو أنصف الدهرُ في حكمه لما مَلكَ الحكمَ أهل النقيصه

ثم قال أدْنُ فَكُل،وإن شئت فقم وقل ، فالتفتُّ إلى تلمذه ، وقلت : عزمت عليك بمن تستدفع به الأذى ، لتخبرني مَنْ ذا ؟ فقال : هذا أبو زيد السّروجي سراج الغرباء ، وتاج الأدباء ، فانصرفت من حيث أتيت ؛ وقضيت العجب مما رأيت .

صاحب المقامة :

هذه القصة كتبها أبو محمد القاسم بن محمد الحريري البصري ، أحد أعلام البلاغة واللغة والأدب ، وقد عرف بمقاماته الخمسين التي حاكى فيها بديع الزمان الهمذاني ، وقد اتخذ له فيها شخصين خياليين،أبا زيد

(١) سكنت حدته .
(٢) الخميصة : كساء عادي . الخبيصة : حلوى من عسل ودقيق . والشص : صنار الصيد . والشيصة : الصيد .
(٣) الاحبولة : حبالة الصيد ، وأريغه : أطلبه على وجه المكر والاحتيال .
(٤) عيص الليث : عرينه .
(٥) الفريصة : لحمة عند الكتف ترعد عند الفزع عادة .
(٦) شرعت به الى الماء : دخلت به على شريعته وهي مورده .

السروجي بطلها ، والحارث بن همام راويتها ، وتوفي الحريري بالبصرة سنة ٥١٦ هـ — ١١٢٢ م .

تحليل المقامة :

١ — شدة الفقر ألجأت الراوي ابن همام الى الهجرة الى صنعاء اليمن طلباً للرزق .

٢ — التقاؤه فيها بأبي زيد السروجي (بطل المقامات) وحضور مجلسه وسماع وعظه .

٣ — براعة السروجي وقدرته على التأثير في نفوس السامعين ليحتال بوعظه وأدبه فينال عطاءهم .

٤ — هكذا كان الحريري ينشىء مقاماته ، فالمقامة من حيث المعنى ترمي إلى (الكدية) وهي التكسب والاستجداء عن طريق الأدب ، لأنها أنشئت أول ما أنشئت معارضة للأدب الساساني الذي انبعث بهذه الطريقة بإشارة من الأسر الفارسية الحاكمة ؛ ليعيد إلى أذهان الفرس أدب الآباء والأجداد، تعصباً للفارسية على العرب فتحرك لذلك بعض ادباء العرب، وأخذوا في إنشاء مقامات بدأها ابن دريد ، وشفعه فيها ابن فارس ، ثم جاء البديع حاملاً لواء الزعامة بحق لهذا الفن ، ومن بعده جاء الحريري فجلى إلى نهاية الشوط .

وقد دعي هذا النوع من القصص القصيرة (مقامة) لأن كل قصة منه تُروى في مقام واحد أي في جلسة واحدة .

٥ — في الوقت الذي بدأ العرب يكتبون قصصهم بصورة جدّية كانت هناك ظاهرتان .

(ا) كان الفقر والبؤس في الدولة — في العصر العباسي الثاني — قد شاعا بين الطبقتين : الوسطى والدنيا ، ولم يجد الأدب مشجعين له ، فبدأ الأدباء يكتبون قصصاً يصور انصراف الحكام عن تشجيع الأدباء واضطرارهم إلى الطواف في البلاد للاستجداء .

(ب) كان النثر قد شاعت في أسلوبه الزخرفة واظهار البراعة فكتبوا القصص بهذا الأسلوب مصورة بؤس اولئك الأدباء .

اسلوب القطعة :

١ — اسلوب الحريري يمتاز بالمبالغة في الصنعة ، والإفراط في تدبيج الألفاظ والتفريط في جانب المعنى حتى ترى معانيه خلال ألفاظه عليلة ضئيلة كالعروس المريضة جمّلوها بالأصباغ وأثقلوها بالحلى .

٢ — نجح الحريري في الدلالة على المامه باللغة وتسجيل غريبها لئلا يضيع ، وقدرته على السجع ، وتصوير بؤس السروجي الأديب .

٣ — ولكن لم ينجح في كتابة قصة فنية مرتبطة بالحوادث تثير شوق القارىء وتجمع الحوادث حول العقدة التي لا تحل الا في آخر القصة .

٦ - الأقصوصة الحديثة

(الشحاذ)

قبل سنين كنت اسكن في حي الحلمية القديمة،وكنت أركب الترام، وقد تعودت ان أرى في اثناء انتظاري للترام شحاذاً مبتور الساقين يرتدي سترة صفراء من ستر موظفي الترام ، وكان مرآه يثير شفقتي فأعطيه كل يوم نصف قرش ، وتوثقت بيننا المعرفة ، حتى عرفت أنه كان من عمال الشركة ، وأصيب بعارض أضاع له ساقيه ، فاضطر أن يستجدي ليعول أسرته .

وذهبت يوماً إلى محطة الترام فلم أجد الشحاذ هناك ، وكانت هذه أول مرة رأيت فيها مكانه خالياً ، فاختلط علي الأمر ، وظننت أني ضللت الطريق ، وقصدت إلى محطة اخرى ، ولكن المطعم البلدي أكد لي خطأ ظني ، وسرت جيئة وذهاباً أقطع الوقت منتظراً مجيء الترام وقد استولى علي شيء من الأسف والضيق ، واتجهت نحو المطعم وسألت صاحبه ، ألم يحضر الحاج بيومي الشحاذ ؟

— هذا أول يوم تغيب فيه منذ خمس سنين ،أي منذ إنشاء مطعمي هذا.

وجاء الترام فركبته،وفي اليوم التالي ذهبت إلى المحطة وبي شيء من القلق ولكني لمحت الشحاذ عن بعد في مكانه غارقاً في تأملاته ، فسري عني ، ولما اقتربت منه رفع إلي بصره وابتسم ابتسامة عارضة سرعان ما اختفت ضائعة في تجاعيد وجهه ، ثم طأطأ رأسه من فوره ، وقد لاحظت عليه انه كان ممتقع الوجه ، تغمره مظاهر الإعياء ، فألقيت إليه نصف القرش وحدثته :

— لمَ لم تجيء أمس يا حاج بيومي ؟ فأجاب وهو مطأطىء الرأس على غير عادته: كنت مريضاً يا سيدي وكان في صوته نغمة حزن ظاهرة .

— لقد حرمت كسبك بلا ريب ! إن الله لا يترك عبده ! فأخرجت

من جيبي قطعة ذات خمسة قروش ، وناولته إياها ، وانا اقول : ربما تجد في هذا المبلغ ما يعوض لك خسارة الأمس .

فرفع إليَّ بصره الحـائر وقد امتلأت عيناه بالدموع وتكلم بتلعثم :

— ولكن يا سيدي ، إني ،

وجاء الترام فتركت الشحاذ يحدث نفسه بكلامه المختلج والمبهم .

واختفى الرجل يومين كاملين ، ثم ظهر في اليوم الثالث ، رأيتـه عن بعد محتلاً مكانه المختار فلما لمحني تحرك زاحفاً بيديه واختفى ، هذا ما أدهشني ، ولما وصلت إلى المحطة درت بعني هنا وهناك فلم أر للرجل أثراً ! وقصدت يوماً إلى محطة الترام وما كان أشد دهشتي حينما رأيت الرجل عن بعد في مكانه المعروف ، فناجيت نفسي قائلاً ، سوف يهرب مني الآن ، ولكنه لم يفعل ، بل كان يرقب مجيئي بشغف ، فلما وصلت إلى المحطة زحف نحوي وصافحني ببشاشة وتهليل ، فعجبت لأمره وسلمت عليه سلاماً طيباً وقلت له :

— لقد ظهرت أخيراً يا حاج بيومي ؟ حقاً لقد كانت غيبة طويلة ..

فأخذ يفرك إحدى يديه بالأخرى وهو ينظر إلى الأرض، ثم قال :

— كنت أستجدي في مكان آخر .

— أكان اكثر ربحاً من هنا ؟

— بل كان أقل جداً .

— وما الذي دعاك إلى ترك محلك إذاً ؟

فصمت قليلاً ثم رفع عينيه البراقتين وقال بلهجة الحزم والجد :

— كنت أهرب منك يا سيدي !

— إني لا افهم مرادك يا حاج بيومي !

ثم قال ، وهو يداعب لحيته القصيرة :

— سامحني اذا كنت قد أسأت اليك .

— لا أشعر بأنك أسأت الي مطلقاً !

— بل أجرمت في حقك يا سيدي ، اسمع حديثي ثم احكم علي ، أتذكر حضورك الى هذا المكان منذ اكثر من ثلاثة أشهر ؟

— لا أذكر جيداً .

— أما أنا فأذكر هذا اليوم ، ولا أنساه ، وحوادثه لن تفارقني ما حييت ، كانت الساعة اذ ذاك قرابة الثانية بعد الظهر ، وكنت مستسلماً للنعاس فجئت ونبهتني باحسانك اليومي الكريم ، فاستيقظت، وقد رأيتك تسير ذهاباً واوبة منتظراً بصبر نافد حضور الترام ، وكنت مطأطيء الرأس تتأمل موطيء قدميك ، ثم أخرجت محفظتك وجعلت تقلب طويلاً ما فيها من الأوراق ، وانت تنظر الى ساعتك مرة بعد اخرى وأخيراً أخرجت ورقة وجعلت تفحصها باهتمام ، وأقبل الترام في هذه اللحظة فاتجهت نحوه بسرعة ، وعيناك لا تفارقان الورقة .

وهنا توقف الحاج بيومي ليسيغ ريقه ويمسح عرقه ، ثم تكلم بصوت مضطرب متمتماً :

— وطويت المحفظة وأعدتها الى جيبك ولكن ورقة مالية سقطت منها وحملها الهواء الي ، كانت ذات خمسة جنيهات ، فهممت ان أناديك ولكن يدي لمست الورقة دون وعي مني ، فشعرت كأن لساني مسمر في حلقي ، وكنت أراقبك وانت تركب الترام بعينين زائغتين ويدي على الورقة تخفيها عن أعين الناس،ولما تحرك الترام وابتعد قليلاً شعرت بقوة تدفعني الى اللحاق به، فزحفت باذلاً اقصى ما استطيع من السرعة وانا اناديك ، وألوح بيدي ليقف الترام ، ولكن لم يعبأ بي احد ، واختفى الترام في لحظة . ولما سكنت الحركة في الشارع أخرجت الورقة المالية من جيبي باحتراس وتأملتها ملياً في خوف وحذر، وناجيت نفسي قائلاً : سوف نأكل اللحم ونعم بأطيب الطعام ، ولكن يدي ارتعشت فأسرعت بادخال الورقة في جيبي وانا أردد قولي بعناد ، بل أرد النقود

غداً الى صاحبها ، وهرعت الى البيت ، واقبل علي اولادي الصغار يقبلونني ، وكانت عليهم أسمال بالية ، تبين تحت فتوقها أجسادهم ، فضممتهم الى صدري، وبغتة قلت بحرارة : سوف تكتسون غداً بملابس حمر زاهية ، فنظروا الي بعجب وارتياب وتقدم اكبرهم وقبلني وسألني في رفق : أحقاً سنلبس الملابس الحمر الزاهية ؟ فقلت : نعم ، سوف اشتري لكم غداً من السوق منسوجات حمراء زاهية ، وسوف تخيطها لكم امكم ، فهبوا فرحين مسرورين ، واخذوا يتصايحون : سوف نلبس غداً الملابس الحمراء الزاهية .

ثم اسرعوا الى امهم وزفوا اليها البشرى في صيحة ، وتهليل، وقدموا بها الي فأكدت لها الخبر وصحت فيهم قائلاً :وستملأون بطونكم بأشهى الأطعمة ، فرددوا قولي في هرج ومرج واقبلوا علي يستأنفون تقبيلي ، وكنت اقبلهم والدموع تغمر وجهي ، وانقضى اليوم التالي على خير ما نريد ، فأكلنا اشهى الأطعمة، واكتسى اولادي الملابس الحمر الزاهية ، وفي اليوم الثالث عدت الى مكاني وقابلتك ، ولما سألتني عن سبب تغيبي اعتذرت كذباً بمرضي ، فأعطيتني القروش الخمسة إحساناً ، يا لله من هذه الخمسة قروش ! كانت تلسعني في يدي كأنها عقرب هائجة ، فلم استطع ان ابقيها في يدي ورميتها جانباً وعدت من فوري الى داري وانا محموم ، وارتاع الاطفال من منظري واخبروا امهم فجاءت على عجل فادعيت لها اني مريض .

منذ ذلك لم يهدأ لي حال ، كانت لدغة الخمسة قروش ما زالت تؤلمني ، كنت أرى لهب جهنم يندلع من اثواب اطفالي واخيراً اهتديت الى طريقة كان فيها خلاصي ، عزمت علي رد نقودك اليك واقسمت ان لا اراك الا بعد ان احصل على المال، فهربت الى مكان بعيد استجدي فيه واجتهدت في الاقتصاد ما استطعت واخلفت وعودي لأولادي واغضبت زوجتي ، ولكني كنت راضياً عن نفسي ، وبدأت أتذوق حقاً طعم الهناءة ، وكانت الملابس الحمراء الزاهية لا تخيفني لأنني كنت أجمع ثمنها لأعيده اليك ، وها قد جمعته كله ، حرام علي حلال لك، واخرج

من جيبه صرة معقودة لم يلبث ان حلها ورفعها الي وهو يقول :
— خذ مالك يا سيدي ، خذه وأرحني منه أراحك الله ، فنظرت الى الصرّة المفتوحة فوجدتّها خرقة قذرة تحوي جملة كبيرة من قطع النقود المختلفة ، ورآني عم بيومي أحدق في الصرة ولا امدّ يدي نحوها فقال :
— لقد عددت اليوم ما في الصرة فوجدت المبلغ كاملاً لا ينقصه شيء ، خذه وعده امامي اذا شئت ؟
وكنت مأخوذاً بما سمعت ، انظر بذهول تارة الى الرجل ، وطوراً الى صرة النقود ، ولا اعرف ماذا اصنع ، فنبهني الرجل بقوله :
— سيدي اذا لم تأخذ نقودك فسوف ارميها في البئر، سيكون نصيبها العدم خذها وأرحني أراحك الله !
فمددت يدي وتناولت الصرة في صمت ، ووضعتها في جبي ، ثم شددت على يده وانا اغمغم :
— انت رجل كبير النفس يا عم بيومي ؟
ثم سرت مطأطيء الرأس وانا افكر فيما سمعت وفيما رأيت .
لم أر عم بيومي بعد اذ غيرت المحطة التي كنت اركب منها الترام ، وكلما همّ بي الشوق ان اذهب لرؤية هذا الشحاذ العظيم القلب أمسكني عن ذلك باعث داخلي لم افهم كنهه حتى الساعة .

صاحب القصة :

محمود تيمور رائد كتاب الرواية والقصة بين الكتاب المعاصرين في العالم العربي وهو يقف الآن موقفاً وسطاً بين مذهب (الفن للفن) و (الفن للمجتمع) ، وتمتاز قصصه بالوصف الدقيق فهو مرآة صادقة للعصر والبيئة التي يعيش فيها فتلمس في قصصه لوحات فنية عن اخلاق قومه وعاداتهم ، وهو واسع الاطلاع في الأدبين الانكليزي والفرنسي ، وقد افاده ذلك كثيراً في قصصه، فتشرب من قصص موباسان وتشيكوف، ثم انساق مع تيار الأدب الواقعي الذي نادت به المدرسة الحديثة ،

واصطنع لنفسه اسلوباً سهلاً ، ثم كتب بالعامية ، ثم عاد ليكتب هذه المسرحيات ذاتها بالفصحى ، ثم مال اخيراً الى اسلوب رصين يحرص اشد الحرص على سلامته . وحمل المستشرقون اسمه ومؤلفاته الى بلاد اوروبا فعرفت بفضله شيئاً من أدبنا الحديث .

تحليل القصة :

كان تيمور حريصاً على تأكيد خبرته بعامة الشعب من الفلاحين ، وفقراء المدن ، وقد اكتسب تيمور ذلك من تردده في اثناء صباه على ضيعتهم ومخالطة اهلها والسمر معهم ، وليست العبرة ان يولد الكاتب بين احضان هذه الطبقات ، بل في قدرته على الاحساس بها وفهمها ، والتأثر بها ، ونلمس هذه العوامل في كثير من قصصه وبخاصة مجموعته (كل عام وانتم بخير) ، فروح القصة ، وفكرتها الصميمة ما هي الا قبس من الانسانية ، وصدى لهذه النفس التي عرفت ادواء النفوس ، وامتزجت بمواطن الحياة الواقعية وطبقاتها فسجلتها (عدسة) قلبه .

وقصة (الشحاذ) قد تكاملت فيها العناصر الفنية للقصة القصيرة ، فهي تجمع بين الوصف الجيد ، وسلاسة الاسلوب ، والتحليل النفسي ، والحوار الممتع ، وفيها عقدة تصل اليها ذروة القصة ، ثم تحل قبيل نهاية القصة عندما اعاد الحاج بيومي المبلغ الى صاحبه في هذه الصرة الممزقة ، ثم يترك للقارىء استنباط هذا الشعور الغامض الذي اعتلج في نفسه ولم يستطع تفسيره .

اما الوصف فتلمسه من مستهل القصة حتى نهايتها « تعودت ان أرى في اثناء انتظاري للترام شحاذاً مبتور الساقين يرتدي سترة صفراء من ستر موظفي الترام .. »

واما تحليله فواضح في تصويره لنفسية الحاج بيومي عندما اختلس مبلغ الجنيهات الخمسة وفي ثورة ضميره عليه .

نوع القطعة :

هذه القصة نموذج صالح للأقصوصة بمعناها الفني الحديث الذي سبق التعريف به . وللأقصوصة الحديثة شروط من أهمها :

(ا) وحدة الحادثة :

والمقصود منها أن يقصر القاص نطاق عمله على حادثة واحدة يتوسع في وصفها بإبراز شخصيات ابطالها ويوضح فكرة الاقصوصة العامة من خلالها ، ومن هنا نلاحظ ان القصة القصيرة ليست اختصار قصة طويلة، لان القصة القصيرة تعنى بموقف واحد ، أو لحظة واحدة ذات معنى ، فالقاص لا بد أن يبدأ من نقطة معينة ثم يتطور بالضرورة الحتمية من نقطة إلى أخرى إلى ان يكتمل عماه .

(ب) وحدة التأثير :

هي ثمرة طبيعية لوحدة الحادثة وللصفحات القليلة المحدودة التي لا ينبغي للأقصوصة أن تتجاوزها ؛ إذ آن الأقصوصة لا تعنى بالتفاصيل الجانبية ولا تتناول إلا ما له علاقة أساسية بالحادثة ، والقاص الماهر هو من ينقلك إلى جو شخوصه او احداثه فيجعلك تعيش مع الشخوص وتساير حركاتهم كما يجعلك تترقب الأحداث في لهفة .

عناصر الأقصوصة :

للأقصوصة الفنية الحديثة عناصر ثلاثة :

أولاً — الأشخاص :

وهم أبطال الأقصوصة ، وقد يصفهم الكاتب وصفاً مباشراً ، وقد يصفهم وصفاً غير مباشر عن طريق الحوار أو عن طريق الأحداث والتصرفات والأعمال، وينبغي أن تتحرك هذه الشخوص في نشاط وحساسية، ويستعان في إبراز هذه الحركة إما بالوقت او الحوار او الجو .

ثانياً — الحيز :

والمقصود به وحدة الزمان ووحدة المكان ، فأحداث القصة تقع في وقت قصير بضعة ايام أو بضع ساعات وهذه وحدة الزمن، وتدور القصة في مكان أو مكانين، وتكون المشاهدة ضرورية ، وهذه وحدة المكان .

هل تستطيع الآن أن تحدد لنا أقصوصة (الشحاذ) وأن تقول لنا الى اي حد وفق الكاتب في تصوير الحيز ؟

ثالثاً — الحبكة :

هي المجرى الذي تندفع فيه الشخصيــات والحوادث على نحو يخلق تعقيداً في حياة اشخاص الاقصوصة ، وينبغي ان تكون هذه الحوادث معقولة حتى تصل (إلى الذروة) ، وبعد هذه النقطة يقدم إلينا الكاتب حلاً للعقدة القصصية التي حبكت ، على ان الاقصوصة لا تخضع أساساً للحبكة ، بخلاف الرواية التي يشترط فيها أن تكون ذات بداية ونهاية .

(هل تستطيع أن تدلنا على الأوج في قصة الشحاذ ؟) .

هذا ولا بد من أن تستقر في كل اقصوصة جيدة حقيقة جوهريــة قائمة على أساس سيكولوجي أو واقعي ، وهذه الحقيقة تكون في ذهن الكاتب شعورياً او لاشعورياً ، وكلما كانت هذه الحقيقة تجربة إنسانية مهمــة نجحت القصة ، فإذا كانت التجربة ضحلة تافهة ، او لم تكن تعبيراً عن حالة نفسية أو فكرة قيمة كانت القصة مآلها النسيان .

وأخيراً هناك فرق جدير بالملاحظة وهو الفرق بين المغزى،وبين الفكرة الاساسية في القصة ، فالفكرة هي التي يمثل فيها الكاتب وجهة نظره .

أما المغزى فهو المعنى أو الدرس الذي يستخلصه القارىء من الأقصوصة او الرواية .

ما الفرق بين الاقصوصة والقصة « او الرواية » مثل لذلك ؟ .

ومن مشاهير الكتاب الذين عالجوا الاقصوصة عندنا محمود تيمور ، وفؤاد الشايب ، وتوفيق يوسف عواد ، وعبد المجيد بن جلون ، وعبد الرحمن الفاسي ، وابراهيم عبد القادر المازني .

موضوعات للبحث

١ — ظهر الاعرابي بمظاهر مختلفة ، فما هي ، وما سببها ؟ وكيف عبر عنها الكاتب ؟ .

٢ — ما مقومات الفن القصصي ؟ أيجوز اعتبار المقامات من قبيل هذا الفن ؟ أعرض بحثك على ما عرفت من مقامات الحريري .

٣ — ما الفرق بين الأقصوصة والقصة (الرواية) مثل لذلك ، موضحاً عناصر كل .

٤ — قال احد النقاد : « لم تعد القصة الحديثة تكتب للتسلية ، بل هي تكتب لتكون شاهداً على العصر » الىٰ اي حدٍ ينطبق هذا القول على قصصنا العربي الحديث ؟ .

٥ — اكتب قصة قرأتها او سمعتها بعبارة من إنشائك .

للمطالعة

١ — الادب المغربي : لمحمد الصادق عفيفي .

٢ — القصة المغربية الحديثة : لمحمد الصادق عفيفي .

٣ — المقامة : لشوقي ضيف .

٤ — المقامات : لأبي محمد بن علي الحريري .

٥ — الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني .

٦ — فن القصة : ليوسف نجم .

٧ — فن القصص : لمحمود تيمور .

٨ — التعريف : لرئيف خوري .

٩ — المشوق : للفتال .

الفصل الرابع

الرحلات

ان الرحلات من اهم فنون الادب العربي وهي خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الادب ، ونقصد تهمة قصوره في فن القصة ، ومن غير شك فمن يتهمونه بهذه التهمة لم يقرأوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن كنوز افريقيا ، وعرائس البحر ، وحجاج الهند، وأكلة لحوم البشر ، وصناع الصين ، وسكان نهر الفلجا ، وعبدة النار ، والانسان البدائي ، والانسان الراقي ، مما يصور الحقيقة حيناً ، ويرتفع بنا الى عالم الخيال حيناً آخر ، وفي كل هذه العوالم يكتب الرحالة بمخيلة القاص الذي يسند الواقع بالخيال والحقيقة بالأسطورة على نحو ما سنرى.

كانت الدولة العربية الاسلامية تحتاج من جهة الخراج والادارة الى معرفة المسالك في البر لتنظيم البريد والاتصال بالبلاد المختلفة ، فعني الجغرافيون بهذا الجانب ، وزاد في عنايتهم به حاجة الحجاج الى معرفة محطات القوافل في طريقهم الى مكة ، ومن هنا سموا كثيراً من كتبهم باسم (المسالك والممالك) ، ومن هنا ايضاً كانت كتبهم شعبية ، فهي كتب تقدم الى الشعب لا الى الدولة والطبقة المثقفة فحسب ، ولذلك يغلب عليها الطابع القصصي ، ونجد لذة في قراءتها اذ ننتقل بين اخبار جغرافية وتاريخية وقصصية .

الرحلات الخيالية :

تختلف عن مألوف الرحلات في انها تكون من صنع الخيال الا ان الكاتب يتخذ من التاريخ مادة يدخلها فيها، فالرحلة الخيالية هي اذاً عمل أدبي تمتزج فيه الرواية الموضوعة بالتاريخ وبالتوجيه ، واشهر الرحلات

الخيالية في الأدب العربي (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعرّي ورسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد الاندلسي . وحضارة الإسلام في دار السلام.

ولا بد في أدب الرحلات من دقة لحظ وحسن وصف وسهولة رواية مع تحري الحقيقة . والنثر المفضل في أدب الرحلات هو النثر المرسل .

وفي ثَبت الرحلات العربية تبرز لنا رحلات بحرية ، واخرى في الأمم والبلدان عن طريق البر والقوافل ، وهي متنوعة ، فمنها ما يقف عند بعض البلاد العربية ، ومنها ما يتجاوز حدود العالم العربي إلى الاقطار النائية ، مثل بلاد البلغار الشرقية ، والمغول ، والهند ، والصين ، وأوروبا الشرقية .

ولا يفوتنا أن نذكر ان اشهر اصحاب الرحلات هم من المغرب والأندلس ، واشهر الرحالة من الاندلسيين ابن جبير ، ومن المغاربة ابن بطوطة ، ومن اصحاب الرحلات في عصرنا الحديث أمين الريحاني ، وسنتناولهم على هذا الترتيب .

نماذج تطبيقيّة

أولا – ابن جبير

في الديار المصرية

الاسكندرية :

أولُ ذلك حُسْنُ وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى إنّا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ولا اعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال ايضاً ، ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي من سخّر لذلك آية للمتوسمين ، وهداية للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الاسكندرية ، يظهر على أزيد من سبعين ميلاً ، ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولاً وعرضاً ، يزاحم الجو سمواً وارتفاعاً ، يقصر عنه الوصف ، وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع ، ذرعنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً ، وأما داخله فمرأى هائل اتساع معارج ومداخل ، وكثرة مساكن حتى ان المتصرف فيها والوالج في مسالكها ربما ضلّ ، وبالجملة لا يحصلها القول ، وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذي الحجة المؤرخ ، وصلينا في المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف ، ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه[١] المدارس والمحارس[٢] الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي اليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه ، وأجراً[٣] يقوم به في جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء

(١) كان حينئذ صلاح الدين الايوبي .
(٢) بيوت الطلاب والزهاد .
(٣) راتباً .

الطارئين ، حتى أمر بانشاء حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ونصب لهم مارستاناً[١] لعلاج من مرض منهم ، ووكل لهم اطباء يتفقدون احوالهم ، وتحت ايديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء ، ومن اشرف هذه المقاصد ايضاً ان السلطان عيّن لابناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم انساناً اميناً من قبله ، وقد ينتهي في اليوم الى الفي خبزة او أزيد بحسب القلة والكثرة ، واما اهل بلده ففي نهاية من الترفيه واتساع الاحوال ، ومن الغريب ايضاً في احوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم في النهار في جميع احوالهم ، وهو اكثر بلاد الله مساجد ، والمكثر ينتهي في تقديرها الى اثني عشر الف مسجد ، ومنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة هي كثيرة جداً ، تكون منها الأربعة والخمسة في موضع وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان ، فنهم من له خمسة دنانير مصرية في الشهر . ومنهم من له فوق ذلك ، ومنهم من له دونها ، وهذه منقبة من مناقب السلطان .

القاهرة :

اول ما نبدأ بذكره المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهما ، وهو في تابوت فضّة مدفون تحت الارض ، قد بني عليه بنيان حفيل ، يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الإدراك به ، مجللٌ بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار ، شمعاً ابيض ، ومنه ما هو دون ذلك ، وضع اكثرها في اتوار فضة[٢] خالصة ومنها مذهبة ، وعلقت عليه قناديل فضة ، وحف اعلاه كله بأمثال النفافيح[٣] ذهباً ، في مصنع شبيه الروضة ، يُقيِّدُ

---

(١) المارستان : المستشفى .
(٢) أتوار : آنية .
(٣) النفافيح : الكرات .

الابصار حسناً وجمالاً ، فيه من انواع الرخام المجزّع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون،ولا يلحق ادنى وصفه الواصفون، والمدخل الى هذه الروضة على مسجد ، على مثالها في التأنق والغرابة ، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة ، وعلى يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل اليها ، وهما ايضاً على تلك الصفة بعينها، والاستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع .

ومن اعجب ما شاهدناه في دخولنا الى هذا المسجد المبارك حجرٌ موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص[1] ؛ يصف الاشخاص كأنه المرآة الهندية الحديثة الصّقْل ، وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التي عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين الى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد .

ومما شاهدناه ايضاً من مفاخر السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً ، أبرزه لهذه الفضيلة اجراً واحتساباً ، وعيّن قيّماً من اهل المعرفة وضعَ لديه خزائن العقاقير ، ومكّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف انواعها ، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكُسى وبين يدي ذلك القيّم خدمة يتكفلون بتفقد احوال المرضى بُكرة وعشية ، وبازاء هذا الموضع مقتطعٌ للنساء المرضى ، ولهنّ ايضاً من يكفلهن.ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت محابس للمجانين ، ولهم ايضاً من يتفقد في كل يوم احوالهم ويقابلها بما يصلح لها ، وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه .

---

(١) البصيص : البريق .

الأراضي المقدسة

البيت الحرام :

البيت المكرم له أربعة اركان ، وهو قريب من التربيع وارتفاعه في الهواء الصفح[١] الذي يقابل باب الصفا ، وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً ، وسائر الجوانب ثمان وعشرون ، وأول اركانه الذي فيه الحجر الاسود ، ومنه ابتداء الطواف ، وأول ما نلقى بعده الركن العراقي ، وهو ناظر الى جهة الشمال ، ثم الركن الشامي وهو ناظر الى جهة الغرب ، ثم الركن اليماني وهو ناظر الى جهة الجنوب ، ثم نعود الى الركن الاسود وهو ناظر الى جهة الشرق، وعند ذلك نتم شوطاً واحداً ، وباب البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقي وركن الحجر الاسود ، والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصف ، وهو من فضة مذهبة ، بديع الصنعة ، رائق الصفة ، يستوقف الأبصار حسناً وخشوعاً للمهابة التي كساها الله بيته ، وعضادتاه كذلك ، والعتبة العليا كذلك ايضاً ، وعلى رأسها لوح ذهب خالص ابريز ، وسعته مقدار شبرين ، وللباب نقّارتا فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب ، وهو ناظر الى الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً ، وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع وحيطانه رخام كله مجزّع ، قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة الطول بين كل عمود وعمود أربع خطاً وهو على طول البيت متوسطة فيه ، ودائرة البيت كله من نصفه الاعلى مطلي بالفضة المذهبة المستحسنة يخيل للناظر اليها انها صفيحة ذهب لغلظها ، وهي تحف بالجوانب الاربعة وتمسك مقدار نصف الجدار الاعلى ، وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون ، وظاهر الكعبة كلها من الجوانب الاربعة

---

(١) الجانب .

مكسو بستور الحرير الأخضر وسداهـــا قطن وفي أعلاها رسم بالحرير الأحمر ، فيه مكتوب (إنَّ أوّلَ بيتٍ وُضِـعَ للناسِ للّذي ببكةَ) واسم الإمام الناصر لدين الله ، (الخليفةً العباسي) وسعته قدر ثلاث أذرع يطيف بها كلها ، قد شُكِّلَ في هذه الستور من الصنعة الغريبة التي تبصرها أشكال محاريب رائقة ورسوم مقروءة ، وعدد السُتور من الجوانب الاربعة اربعة وثلاثون ستراً وله خمسة مضاوىء[1] وعليها زجاج عراقي بديع النقش احدهــا في وسط السقف ومع كل ركن مضواء ، وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاث عشرة واحداها من ذهب ، وأول ما يلقى الداخل من الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الاسود ، وفيه صندوقان فيهما مصاحف وقد علاهما في الركن بوَيْبان[2] من فضة ، كأنهما طاقان ماصقـــان بزاوية الركن وبينهما وبين الارض أزيد من قامة ، وفي الركن العراقي باب يسمى باب الرحمة ، يصعـــد منه الى سطح البيت المكرم ، وقد قام له قبو فهو متصل بأعلى سطح البيت ، داخله الأدراج ، وفي أوله البيت المحتوي على المقام الكريم .

مسجد الرسول :

المسجد المبارك مستطيل وتحفه من جهاته الاربع بلاطات مستديرة به ، ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى ، والجهة القبلية منه لهـــا خمس بلاطات ، مستطيلة من غرب إلى شرق ، والجهة الجوفية لها أيضاً خمس بلاطات ، على الصفة المذكورة والجهة الشرقية لها ثلاث بلاطات ، والجهة الغربية لها أربع بلاطات ، والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلي الشرق ، وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله ، وجميع سعة الروضة المكرمة من جميع جهاتها مئتا شبر واثنان وسبعون شبراً ، وهي مؤزرة بالرخام البديع النحت ، الرائع النعت ، وينتهي الإزار

---

(١) مناور .

(٢) مصغر بابين .

منها الى نحو الثلث او اقل يسيراً ، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر قد علاه تضميخ المسك والطيب ، والذي يعلوه من الجدار شبابيك عود متصلة بالسمك الاعلى ، لان اعلى الروضة المباركة متصل بسمك المسجد ، والى حيز ازار الرخام تنتهي الاستار ، وهي لازوردية اللـون ، وفي الصفحة القبلية أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسمار فضة ، هو أمام الوجه الكريم ليقف الناس أمامه للسلام ، والى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس ابـي بكر الصديق رضي الله عنه ، ورأس عمر الفاروق ممـــا يلي كتفي أبـي بكر الصديق رضي الله عنهما ، فيقف المسلم مستدبر القبلة ، ومستقبل الوجه الكريم فيسلم ثم ينصرف يميناً إلى وجه ابـي بكر ثم إلى وجه عمر .

وامام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلاً معلقة من الفضة ، وفيها اثنتان واربعون خطوة ، وهو مرخم كله ، وارتفاعه نحو القامة او أزيد ، وسعته خمسة اشبار ، وطوله خمس خطوات ، وادراجه ثمانية وله باب على هيئة الشباك مقفل ، يفتح يوم الجمعة وطوله اربعة أشبار ونصف ، والمنبر مغطى بعود الابنوس ، ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم من اعلاه ظاهر ، قد طبق عليه بلوح من الابنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه فيدخل الناس أيديهم اليه ويتمسحون بـــه تبركاً بلمس ذلك المقعـــد الكريم ، وطول المسجد الكريم مائة خطوة وست وتسعون ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعدد سواريه مائتـان وتسعون ، والبلاط المتصل بالقبلة تحف به مقصورة تكتنفـــه طولاً من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها وبينها وبين الروضة الكبيرة والقـــبر المقدس محمل كبير مدهون ، عليه مصحف كبير في غشاء مقفل عليه ، هو احد المصاحف الأربعة التي وجه بها عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى البلاد ، وبإزاء المقصورة الى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك .

صاحب النماذج :

هو الرحالة الشهير ابو الحسن محمد بن جبير ، ولد ببلنسية سنة ٥٤٠هـ وتعلم على ابيه وغيره من علماء عصره ، ولم يلبث ان برز في الكتابة والحديث وفنون الادب فألحقه امير غرناطة ابو سعيد بن عبد المؤمن في وظيفة كاتم سره ، وكان يحضر مجلس شرابه ، وكان ينقبض عن الشرب ولا يشارك فيه ، فمد اليه الأمير يده بقدح من النبيذ ، فاعتذر ابن جبير وأبـي واسترجع ، فأقسم عليه الامير يميناً مغلظة ليشربن منها سبعاً فشربها صاغراً ثم ردها عليه أبو سعيد سبعة اقداح من الدنانير فأزمع ابن جبير الرحيل الى حج بيت الله تكفيراً عن الخطيئة التي ارتكبها بشرب الخمر فترك غرناطة سنة ٥٧٨ هـ وقصد مكة حاجّاً عن طريق البحر .

التعليق :

رحلة ابن جبير تقص ما شاهده في طريقه الى الحج وعودته منه ، إلا أن هذه الرحلة انقلبت رحلة علمية دامت نحو سنتين زار خلالها جزر البحر الأبيض المتوسط واقطار الشرق الادنى فدخل جزيرة صقلية وإقريطش ومصر والحجاز والعراق والشام ، وكان يصف كل ما يرى خلال سفرته ويدون مشاهداته وملاحظاته في شكل مذكرات يومية ، ولم يجمعها بنفسه بل جمعها بعض تلاميذه ونشرها باسم (تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الأسفار) ، الا انها عرفت فيما بعد برحلة ابن جبير .

رحل ابن جبير الى المشرق بعد هذه الرحلة مرتين « فإنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس واستيلائه عليه من أيدى الصليبين ، فحدثته نفسه ان يزور هذه الأماكن وعلم الإسلام والعرب يرفرف عليها ، ولم يلبث أن رحل رحلته الثانية في سنة ٥٨٥ هـ. وعاد الى بلاده في سنة ٥٨٧ هـ. وماتت زوجته فحزن عليها حزناً شديداً ، وقد خصها بديوان من شعره،

ولم يجد عزاء عنها الا ان يحج الى بيت الله فرحل رحلته الثالثة في سنة ٦١٤ هـ واقام بمكة مدة ، ثم تحول عنها الى الاسكندرية واقام بها يحدث ويـُؤخَذ عنه الى ان لبى نداء ربه سنة ٦١٤ هـ » .

نلمس في هذه القطع البراعة في الوصف والتفصيل الدقيق الذي يتناول جوانب الموصوف حتى كأنك لترى الصورة ماثلة امامك ، واسلوبها سهل وعبارتها شائقة تلائم تماماً الموضوع الذي صيغت له وتدل على ان الرجل قد ترك نفسه على سجيتها ، فلم يتكلف في عبارة ولا في فكرة وقد رسم ما شاهده بدقة ، وسجل ما داخله من عواطف وأحاسيس ، هذه العواطف التي نلمسها في ذكره عند الحديث عن المساجد . وتعد الرحلة ثبتاً أميناً لمعرفة احوال العالم في القرن السادس الهجري، كما ان ابن جبير كان سفيراً حسناً للموحدين ، ودعاية طيبة لهم .

ثانياً – ابن بطوطة

في بلاد الأناضول

الأخيّة :

ذكر الأخية الفتيان : واحد الأخية اخي على لفظ الاخ اذا اضافه المتكلم الى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشدّ احتفالاً بالغرباء من الناس ، واسرع الى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على ايدي الظلمة ، والاخي عندهم رجل يجتمع اهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجرّدين ويقدمونه على انفسهم ، وتلك هي الفتوة ايضاً ، ويبني زاوية ويجعل فيها الفرش والسروج وما يحتاج اليه من الآلات ، ويخدم اصحابه بالنهار في طلب معايشهم ، ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية ، فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد انزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا ، وانصرفوا الى صناعتهم بالغدوّ ، وأتوا بعد العصر الى مقدّمهم بما اجتمع لهم ، ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا (الاخي) .

لم ار في الدنيا اجمل افعالاً منهم ، ويشبههم في افعالهم اهل شيراز واصفهان الا ان هؤلاء أحبّ في الوارد والصادر ، واعظم اكراماً وشفقة عليه ، وفي الثاني من يوم وصولنا الى هذه المدينة اتى احد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموي وتكلم معه باللسان التركي ، ولم اكن يومئذ افهمه ، وكان عليه اثواب خلقة وعلى رأسه قلنسوة لبد فقال لي الشيخ : أتعلم ما يقول الرجل ؟ فقلت : لا اعلم ما قاله ، فقال لي : انه يدعوك الى ضيافته انت واصحابك ، فعجبت منه وقلت له : نعم ،

فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا، ولا نريد ان نكلفه ، فضحك الشيخ وقال لي : هذا احد شيوخ الفتيان الأخية ، وهو من الخرازين وفيه كرم نفس ، واصحابه نحو مائتين من اهل الصناعات قد قدموه على انفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل ، فلما صليتُ المغرب عاد الينا ذلك الرجل ، وذهبنا معه الى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريّات الزجاج العراقي ، وفي المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس وله ارجل ثلاث، وفي وسطه انبوب للفتيلة ، ويُملأ من الشحم المذاب ، والى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم ، وفيها مقراض لإصلاح الفتيل ، واحدهم موكل بها ، ويسمى عندهم الجراعجي ، وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الأقبية وفي ارجلهم الاخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين في طول ذراعين ، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض اصبعين ، فاذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ، ووضعها بين يديه، وتبقى على رأسه قلنسوة اخرى من الزردخاني وسواه حسنة المنظر.. ولما استقر بنا المجلس عندهم اتوا بالطعام الكثير ، والفاكهة والحلواء ، ثم اخذوا في الغناء والرقص، فراقنا حالهم .. وانصرفنا عنهم آخر الليل .

في بلاد الصين

جزر ملديف :

هذه الجزائر احدى عجائب الدنيا وهي نحو الفي جزيرة ، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب ، لا تدخل المراكب الا منه ، وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي باحداها عند الخروج من الاخرى وهذه الجزائر اهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح ، وهي منقسمة أقاليم على كل اقليم وال ، واكل اهلها سمك يسمونه « قُلْب الماس » ولحمه احمر ولا ذَفر له وانما ريحه

كريح لحم الانعام ، ومعظم اشجار هذه الجزائـر النارجيل[١] وهو من اقواتهم مع السمك ، وتثمر النخلة منها اثني عشر عِـذْقاً[٢] في السنة ، يخرج في كل شهر عذق ، فيكون بعضها صغيراً وبعضها كبيراً،وبعضها يابساً وبعضها اخضر ، هكـذا ابـداً ، ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل ، ويصنعون من عسله الحلواء،فيأكلونها مع الجوز اليابس منه ، ومن اشجارها الأترج والليمون والقلقاس ، واهل هذه الجزائر اهـل صلاح وديانة ، وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة ، وأكثر عمارتهم الخشب وهم اهل نظافة وتنزه عن الاقذار ، واكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظيفاً لشدة الحر بها ، وكثرة العـرق ، ويكثرون من الادهان العطرية ، ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على اوساطهـم عوض السراويل ، ويجعلون على ظهورهم ثياباً كالمحرمين ، وبعضهـم يجعل عمامة ، وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً عنها ، ومن عاداتهـم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها الى البيت وجُعل عليها غـرَفات من الودع عن يمين طريقه الى البيت وشماله، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فاذا وصل اليها رمت على رجليه ثوباً يأخذه خدمه ، وان كانت المـرأة هي التي تأتي الى منزل الرجل بُسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه ، وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم ، لا بد من الثوب يرمي عند ذلك ، وجميعهم حفاة الاقـدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الاشجار ، فالماشي بها كأنه في بستان ، وصرف[٣] اهل هذه الجزائـر الودع ، وهذا الودع ايضاً صرف السودان في بلادهم رأيته يباع بحساب الف ومائة وخمسين للدينار الذهبي ، ونساؤها لا يغطين رؤوسهن ويمشطن شعورهن،ويجمعنها الى جهة واحدة ولا يلبس أكثرهن الا فوطة واحدة تسترهن من السرة

---

(١) جوز هند .

(٢) سباطة كالعنقود .

(٣) نقد .

الى اسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفـة ، وكذلك يمشين في الاسواق وغيرها ، وحليهن الأساور تجعل المرأة منها جملة في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق،والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء .

في الصين :

أهل الصين يعبدون الاصنام ، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود وملك الصين تتري من ذرية جنكيزخان ، وفي كل مدينـة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ولهم فيها المساجد لإقامة الجماعات وسواها ، وهم معظمون محترمون ، وأهل الصين — من غير المسلمين— يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في اسواقهم ، وهم أهل رفاهية وسعة عيش ، الا انهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس ، ولكل واحـد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي . والحرير عندهم كثير جداً لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج الى كثير مؤونة،ولذلك كثر عندهم، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمـة ، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالاثواب الكثيرة من الحرير ، وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعـة ، تكون القطعة منها قنطاراً فـما فوقه وما دونه وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كل قطعـة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان ، وجميع أهل الصين انما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ، ولونه لون الطفل ، تأتي الفيلـة بالأحمال منه فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النـار فيه فيقد كالفحم ، وهو اشد حرارة من نار الفحم ، ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار ، ويضيفون اليه حجارة سواه ، وأهـل الصين اعظم الامم احكاماً للصناعات وأشدها اتقاناً لهـا ، وذلك مشهور من حالهم ، وقد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه ، وأما التصوير فلا يجاريهم احد في احكامه من الروم ولا من سواهم . فإن لهم فيه اقتداراً

عظيماً ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا رأيت صورتي وصور اصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الاسواق ، وتنتهي حالهم في ذلك الى ان الغريب اذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته الى البلاد وبُحِثَ عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ .

المشعوذة :

حضر أحد المشَعْوِذة فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها الى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الابصار ونحن في وسط المشور[1] أيام الحر الشديد ، فلما لم يبق من السير في يده الا يسير امر متعلماً له فتعلق به وصعد في الهواء الى ان غاب عن ابصارنا فدعاه ثلاثاً فلم يجبه فأخذ سكيناً في يده كالمغتاظ ، وتعلق بالسير الى ان غاب ايضاً ، ثم رمى بيد الصبي الى الارض ، ثم برجله ، ثم بيده الاخرى ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم برأسه . ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم ، فقبل الارض بين يدي الأمير وكلمه بالصيني ، وأمر له الامير بشيء ، ثم انه اخذ اعضاء الصبي ، فألصق بعضها ببعض ، وركله برجله ، فقام سوياً ، فعجبت منه ، وأصابني خفقان القلب ، فسقوني دواء أذهب عني ما وجدت ، وكان القاضي فخر الدين الى جانبي فقال لي : والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو ، وانما ذلك شعوذة .

صاحب النماذج :

هو أبو عبدالله محمد المشهور بابن بطوطة، ولد في طنجة سنة ٧٠٣ هـ، واهتم ابوه بتربيته ، فدرس الفقه والادب ، ودعاه داعي الحج الى البيت الحرام،وخرج من بلده وهو في الثانية والعشرين من عمره سنة ٧٢٥هـ وأخذ طريقه الى مصر مع قافلة من قوافل الحج ، وفي اثناء رحلته عرج

(١) مجلس الامير .

على بعض المدن المصرية ، وطاف بأكثرها ثم قصد مكة ، ولكنه لم يقف عندها ، بل راح يجول من بلد الى بلد حتى جاب اكثر العالم المعمور لذلك العهد ، ثم قفل راجعاً الى وطنه، ولم يمض الا زمن يسير حتى قام برحلة ثانية الى اسبانيا ، ثم برحلة ثالثة دامت سنتين تجول في خلالها في مجاهل افريقيا . ثم عاد الى بلاده ، فسأله السلطان ابو عنان المريني ان يدون اخبار رحلاته ، فأملاها على كاتب السلطان محمد بن جزي الكلبي . وانما املى تلك الاخبار إملاء ، لانه فقد مذكراته في المحيط الهندي في اثناء غارة شنها القرصان على المركب الذي كان يقله، وقد زاد ابن جزي كثيراً من ابيات الشعر في مقدمة الرحلة ، كما تناول لغته بشيء من التهذيب وكلما زاد شيئاً من عنده يقدمه بقوله : قال ابن جزي . وطال عمر ابن بطوطة الى خمسة وسبعين عاماً حتى توفي بفاس او طنجة على احد القولين سنة ٧٧٩ هجرية .

التعليق :

يعرف الكتاب الذي املاه ابن بطوطة (برحلة ابن بطوطة) اما اسمه الاصلي فهو (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) وهو عمل مشترك قام به الرجلان وصبغه كل منهما بطابعه الخاص فجعل فيه ابن بطوطة روحه الخفيفة التي تحب العجائب والغرائب ، تلك الروح الساذجة التي تتكلم ببساطة الاطفال وفضول العلماء . وجعل فيه ابن جزي اسلوبه الذي لا يخلو من صنعة وتكلف وتنميق. فهو كتاب سلس الانشاء وربما لانت عبارته حتى ركت ، وفيه رواية حوادث نادرة فكهة ، وتقاليد شاذة ، وكان لابن بطوطة ميل الى تتبع الشذوذ في التقاليد والمعتقدات الخرافية ، وقد احس ابن بطوطة نفسه بأن ما يذكر من اخبار عن الهند هي غريبة وبعيدة عن مألوف مواطنيه وبأنها ستحمل الكثير من الناس على الشك في صحة كلامه ، فأقسم على ذلك بالايمان المغلظة بأنه صادق فيما رأى وفيما تكلم .

وقد أيدت بحوث العلماء فيما بعد ان كل ما ذكره ابن بطوطة عن

الهند هو صحيح ، ثم ان كل من يبحث الآن في رحلة ابن بطوطـة ويقابلها بغيرها من المؤلفات يصل الى هذه النتيجة،وهي ان ابن بطوطة، ثقة أمين .

ونلاحظ ان ابن بطوطة لم يترك بلداً نزل به الا وتحدث عن اهله ولذلك كانت رحلته معرضاً لحياة الأمم والأقاليم التي نزل بها من الوجهتين الاجتماعية والسياسية ، ومصدراً مهماً لدراسة العادات والتقاليد القديمة ، وكانت فيه نزعة دينية قوية فكان يطيل الحديث عن رجال الدين واماكن العبادة ، وقد اهتم العالم لهذه الرحلة فنقلها المستشرقون الى لغتهـم فاذا هي بعيدة الأثر في الدراسات الجغرافية والتاريخيـة وصورة صادقة من ذهنيات الاقوام الذين خالطهم وفيها طرافة ومتعة شائقة .

اما فائدتها من الناحية الجغرافية فعظيمة ، لأن رواد الشرق الاقصى، واواسط افريقيا وآسيا الوسطى قبل ابن بطوطة قليلون ، بل كان ابن بطوطة اول من دخل بعض هذه الاقطار وكتب عنها ، زد على ذلك انه ثقة لا يصف في الغالب الا ما رأى ويحدثنا بأمانة عما يشاهـده من احوال الأمم وعاداتهم وصناعاتهم وما تنتجه بلادهم من الفواكه والنباتات، وما تحتوي عليه أراضيهم من المعادن والبحور المحيطة بهم من الجواهر .

واما فائدة رحلة ابن بطوطة فيما يرجع للتاريخ فانها لا تقل عن فائدتها الجغرافية وهذا بالخصوص في الفصول المتعلقة بالممالك السلجوقية في آسيا الصغرى ، وبدولة التتر ببلاد العجم ، وبروسيا الجنوبية ، وكانت اذ ذاك تحت حكم ابناء جنكيزخان .

وأهم من كل هـذا ما جاء في رحلته عن تاريخ الدولة الهنديـة الاسلامية ، وعن وصف عاصمتها (دهلي) وعوائد اهل الهند ، وسائر احوالهم الاجتماعية .

ثالثاً : أمين الريحاني

الى صنعاء

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة، وأعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانياً، وفهمنا منه انه قبل ذلك ، الا اننا في الصباح التالي بينما كان المكارون والخدم يحملون ، دهشنا بل ذعرنا لحادث في منتهى الغرابة بينما كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم وبيننـــا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتة ان اناء من الفخار تكسر فيه فظننا انه وقع من السطح ولكن إناء آخر تبعه رأيناه يرمى من النافــذة ولم نر الرامي ، فأصاب أحد العساكر فرفع صوته شاكياً ، ثم جفنة ، ثم قطعة اخرى من الفخار تحطمت بين أقدام البغال ، فعلت الضجة في الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون ، هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة ونزلنـا من الجبـــل الى السهل فالنهر ، وقَلْبُنا أقول قلبي ولا اتهم رفيقي يختلج حنقاً ورعباً ، ظننا اننـــا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبي عندما وصلنا الى النهر ولكننا قبل ان نجتازه سمعنا أصواتاً تنادي قفوا ، قفوا ، فلم نقف ، فأطلقوا اذ ذاك البنادق طلقات متعددة فقلت لرفيقي ، هو ذا الخطر الذي نتوقعه ، دنت الساعة يا قسطنطين قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم منا فإذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الاطباق ومعهم بضعة عساكر جاءونـا بالفطور اي بالله ، كيف نسافر قبل ان نفطر ؟ وكيف نسافر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً

للوداع ؟ سألناهم عن الفخار الذي رمونا به فأخبرونا ان السلطانة وهي في خدرها رأتنا من على السطح في أهبة الرحيل فنهضت كذلك باكراً من اجلنا فأرادت تنبيــه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ ان تسمعنا او ترينا من النافــذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام ، الضيوف ، انهضوا للضيوف والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا يقفون .

أكثر الله ايتها السلطانة من فخاركم وجعلنا ألسنة فخـارك ، انك في الضيافة شاعرة الاقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمـــان ، كيف لا وانت السيف في اكرام الضيف تضربين من اجلنــا الكسل وتلحقيننا بالعسل ، تروعين أيتها الحوشبية الالمعية ولا تجوعين ، قد كنت حديثنا وموضوع اعجابنا حتى في بلاد الزيود[1] التي تنسي المرء الحبيب والمعبود.

في الكويت :

كنت قد عاهدت (خوياي) ان ادخل واياهم الى الكويت راكباً الذلول ولكننا قبل ان نصل الى المدينة رأينا سيارة قادمة منهــا فوقفت اذ دنت منا ، فقال هذلول يخاطبني : من الشيخ أحمد ، نوخ ، نوخ . انخت آسفاً لاني ادركت في الحال ان لا بد من الركوب في السيارة ، فأخلف بوعدي ، واحرم لذة كنت اعلل بها النفس . ليست القافلة في البادية غير قافلة مهما كان عددها ، وليس الراكب فيها اياً كان غير واحد من المسافرين ، لا اهمية للانسان والحيــوان في القفار ، او ان الاثنين واحد في فسيح مهالكها . ولكن القافلة ساعة تدنو من العمران، من الحضارة ، تتغير نفسيتها فيعظم شأنها ، فتدخل بوابة السور وقــد اختلط في قلبها الكبر والسرور،وتسير في اسواق المدينة كأنها موكب من مواكب النصر والفخار ، وكأن كل واحد من الركب أمير على عرشه

(١) الزيود هم أهل اليمن ، لانهم ينتسبون الى مذهب زيد بن عــلي بن الحسين بن عــلي بن ابي طالب .

العالي،او قائد عائد من ساحة الوغى،هو وهم في عجب ولا مراء،ولكنه وهم جميل كان يستوقف العقل مني كل مرة نصل الى مدينــة كما تستوقف العين جميلة ، بل كان يلذ لي ، ولا غرو اكثر من سواي لأني حديث العهد به .

لقد اسفت عندما أنخت ذلولي خارج الكويت،ولكني دهشت وسررت فنسيت ما كنت اعلل به النفس اذ رأيت صديقي القديم يوسف السالم جلبي آل بدر ، ومعه الشيخ عبدالله خليفة آل صباح ، وقد جاءا من قبل سمو الشيخ احمد يحملان الي كتاب السلام والترحيب .

كان آخر عهدي بيوسف جلبي في البصرة عند صديقنا الأديب الفاضل الشيخ محمد امين عالي باش اعيان العباسي يوم أدب لنا مأدبة فاخرة في بيته (الصالحية) على نهر الصالحية هناك،فقلت متصرفاً بالبيت المأثور :

والصالحيــة جنــة والصالحون اليها أمّوا

كنا يومئذ عشرين ونيفــاً من الصالحين — الصالحين للنزال والطعان وكان يوسف قد شحذ سلاحه جالساً الى جنبي يسف الأرز سفاً عجيباً، وانا الطالب في هذه الطريقة أعجب به وأتمنى ان يكون لي جزء ما له من المهارة والاقتدار ، سألته عما اذا كنت استحق الشهــادة في السف البسيط وهو ان تأخذ شيئاً من الأرز فتعجنه بين اصابعك وتدفعه بالباهم في فمك فاستعرض سفي ثم قال:لا يزال ينقصك شيء من العلم والاتقان، عينـك ، قال هذا ومد يده الى الأرز فأدارها فيه ، كأنه يحدد دائرة هي ملكه وقبض على كتلة منه كبيرة قد ملكها،ثم رفعهـا وجعلهـا ، وهو يعصر منها السمن ، كرة متماسكة شديدة فقذف بها اذ ذاك الى فمه دون ان يسقط منها او يتبقى بين أنامله بذرة واحدة، فقلت سبحان الله الذي جعل الكمال غاية الحياة القصوى ، فلا شيء أجلّ في الحياة من اتقان في صناعة او كمال في فن .

قلت ليوسف جلبي بعد ان شاهدت منه هذه البراعة اني مسافر الى

نجد فأتمرن هناك ، وسأعود ان شاء الله اليه ليعطيني الشهادة ، وما كان في الحسبان ان ستجمعنا التقادير ثانية فتصير النكتة بعد اربعة اشهر حقيقة مضحكة .

قال يوسف ونحن سائرون في السيارة نعيد تلك الذكرى سنفحصك اليوم في القصر ونعطيك الشهادة بإذن الله .

اول ما يسترعي النظر في الكويت اذ يصل المسافر من البر ذلك السور الكبير الذي بناه اهلها بعد وقعة (الجهزة) ليصدوا هجمات الاخوان ، وهو سور يحيط بالمدينة من جهات البر كلها ، طوله خمسة اميال وعلوه نحو اربعة امتار وسمكه في بعض الاماكن متر ويزيد ، فيه المعاقل والكوى للرمي والدفاع ، وله بوابات ثلاثة يقيم الحرس عندها وتقفل في الليل ، لم تنفق الحكومة روبية واحدة في بناء هذا السور ، فقد تبرع اهل الكويت كل بما يستطيع من عمل او مال وأتموا البناء في مدة شهرين انه لمن الاعمال المدنية العامة المدهشة خصوصاً في البلاد العربية .

دخلت المدينة في الساعة الاولى من ذلك النهار ، فوقفت السيارة في الساحة الكبرى فترجلنا ومشينا تجاه صف من الناس جالسين في الفلاة على مجالس من الحجارة والطين ، الى حائط بيت صغير ، فوقف اذ وصلنا من كان جالساً في الوسط ووقف على إثره الجميع ، هو سمو الشيخ احمد الجابر آل صباح حاكم الكويت خرج من قصره بحاشيته وبعض اسرته يستقبلنا في المكان الذي يجلس فيه للناس ، ليس أحب الى السائح وليس اقرب الى الديمقراطية الحقة والمساواة من هذه المقابلات الملكية في الفلاة .

الشيخ احمد في العقد الرابع من العمر ، ربع القامة ، دقيق الملامح ، حسن الخلق والبزة ، لطيف الاشارة والحديث ، وهو اقرب في هيئته الى الشكل الآري منه الى السامي ، فلو كان في غير النعل والثياب العربية لظننته هندياً من البنجاب او اوروبياً من بلاد الاسبان .

هنأني بوصولي وأعرب عن دهشته لسفري في البلاد العربية هــذه الطويلة ، ثم قال : العرب انفسهم يكبرون هذه الطريق ويخافونهــا ، ومنهم من لا يقوى على تحمل مشقاتها ، وكيف تحملتم ركب الذلول كل هذه الأيام ؟ نهنيكم يا استاذ ، ونرحب بكم ، ولم يشأ أن يطيــل الجلسة الاولى رغبة في راحتي ، فبعد ان تناولنا القهوة امر من لاقاني ان يرافقوني الى القصر .

وكانت هناك الفتنة الكبرى،لا اريد بالفتنة ما فيه نسوة او دين او سياسة ، وقد كنت بعيداً عنها كل البعد ، ولكني فُتنت. اجل؟ فُتنت بمفاجآت الترف والرفاه ، انا الذي اقمت عشرين سنة في مدينة تزدحم وتتبذل في نُزُلها نوافل العيش ونفائس الصناعــة والفنون ، تلك التي كانت تنحصر في الماضي خصوصاً بأوروبا في قصور الاشراف والاعيان، وهي اليوم هناك لكل من يستطيع من الناس بذل بعض المال .

تالله ما تفعل البيــداء وخشونة العيش ، دخلت القصر في الكويت كأني بدوي لم ير في حياته قصراً جميلاً ، تزينه الاعمدة والقنـاطر ، ولم يجلس مرة في قاعة مفروشة بالفاخر من الرياش ، وعندمــا جاء الخدم الواحد بعد الآخر يحملون الاطباق ، فوضعوها عـلى السجادة ، وجلست انا ورفيقي اليهــا فتنت بما احاط صحفة الارز من الالوان المطبوخة بالبقولات .

البقولات ! بعد الارز والرمل واللحم والتراب التي كان يطبخهــا لنا مسفر ومعاوناته الرياح ، انهــا من النعم التي يغتفر فيها الابتهاج والإسراف ، نحرت الالوان نحر العاشق المشتاق ، واخصصت بالإسراف (بندورة) الكويت الــتي يشحنون منها الى البصرة ، وهي صغيرة مدملكة ، يطبخونها بقشرها دون ان تمسها السكين . ثم سمك الكويت المشهور الذي يشبه سمك المشط في طبرية ، ولكنــه ارق وأدسم ، ثم أصناف الحلوى . وما اشد حلوها ، واكثر سمنها واسرارها ! وعندما نهضنا نغسل أيدينا وقف امامي يوسف السالم آل بدر، وهو كما أشرت

من رجال السماط المشهورين في البصرة والكويت ، فصافحني وقال: اهنئك بما احرزت فقد صرت منا ليس في سف الارز فقط ، بل في سف السماط.

وبعد ان ودعني في تلك الليلة خرجت الى الإيوان ذي العمد ، المشرف على الخليج ، ففتنت بمشهد البحر والسفن المسربلة بضوء القمر ، وظللت حتى نصف الليل جالساً في كرسي هندي . وانا في ثوب النوم ، جلسة اميركية — وما اخلق ذاك الكرسي بها — رافعاً للقمر رجلي ، مطلقاً العنان للذيذ الاحلام ، فما احسست بهواء البحر البارد الرطب الا بعد ساعة ، فدخلت وانا ارتعش الى غرفة النوم ...

صاحب النماذج :

هو امين الريحاني ، ولد بلبنان سنة ١٨٧٦ م ، وتعلم دروسه الاولى بمكتب الكنيسة ، ولما بلغ الحادية عشرة سافر مع عمه الى امريكا ، وألحقه بمدرسة هناك ، لكن عمله في التجارة مع عمه صرفه عن المدرسة ، وان لم يصرفه عن الدراسة ، فقرأ كثيراً من الكتب العربية في الادب والتاريخ والحضارة وعلم النفس والطبيعة وقرأ كثيراً من كتب الادب الانجليزي ، ثم التحق بمعهد للتمثيل أجاد فيه فن الالقاء ومارس التمثيل مع فرقة امريكية ستة اشهر ، ثم ترك التمثيل ودرس في كلية الحقوق بنيويورك ، وكان يجمع بين دروسها ودروسه الخاصة في الادب ، فلما مرض نصحه الاطباء بالعودة الى لبنان فعاد اليه بعد عشر سنوات وبدأ يكتب بالعربية وينشر بحوثاً ، وكان كلفاً بالرحلات والاسفار وتوفي ببيروت سنة ١٩٤٠ م .

وترك ذخيرة من البحوث والشعر والقصص والمقالات من اهمها كتابه (التساهل الديني) و (الثورة الفرنسية) و (ديوان الشعر)و(مسرحية عبد الحميد) و (رواية علي) و (ملوك العرب) .

التعليق :

· اشتهر الريحاني بدفاعه المجيد عن قضايا البلاد العربية في بلاد الغرب

بلسانه وقلمه ، وكان سبّاقاً إلى تعريف العرب ببـلادهم فزار جزيرة العرب وحادث ملوكها وأمراءها حينئذ،ووصف في دقة وحماسة للإصلاح مـا رأى هناك من محاسن ومساوىء ونظر إلى البلاد العربية على أنهـا كلها وطنه ، فحزن من تخلف بعضها ، وحمـل على الاستعمار المعوّق لبعضها وكان شعاره (أنا عربـي شرقي بروحي ، واخـواني وان قلّ عددهم كثيرون ، سلاحنا كلمة نقولها وبذرة نزرعها في قلوب الناس) ونلمس في أدبه النزعة الإنسانية ، وقوة الصلة بالمجتمع والحياة التي كان يعيش فيها .

أما اسلوبه فسهل الفهم متأثر بالمنطق غزير المعاني واضح الأفكار حافل بالمعاني المتولد بعضها من بعض ، متفلسف حتى في الموضوعات البعيدة عن الفلسفة على انه جارى بعض ادباء المهجر في التساهل اللغوي ؛ اذ كان يتجوز في الاشتقاق ولا يتوخى صحة بعض الكلمات ، ويرى أن تطور اللغة يبيح للأدباء أن يكونوا أحراراً في الاداء متناسياً أن المخالفات اللغوية لا تجوز الا لضرورة .

موضوعات للبحث

١ — نقرأ في رحلة ابن بطوطة أخباراً غريبة ، وضح رأي النقـاد القدماء والمحدثين من ذلك . ذاكراً قيمتها الجغرافية والتاريخية .

٢ — ما الحوافز التي دفعت بالمغاربة لأن يكونو اكثر الناس ميـلاً للرحلة ، وما الخدمات التي أدوها بذلك لبلادهم وللعرب ؟ .

٣ — في رحلة ابن جبير أدب وتاريخ — اشرح .

٤ — صف أسلوب الريحاني ، واستشهد ببعض كتابتـه ؛ موضحـاً العوامل التي جعلت منه كاتباً انسانياً .

للمطالعة

١ — الرحلات	: للدكتور شوقي ضيف
٢ — ملوك العرب	: لأمين الريحاني
٣ — مهذب رحلة ابن بطوطة	: لجاد المولى
٤ — ابن بطوطة ورحلاته	: لمحمد الفاسي (مجلة المغرب).
٥ — الرحالة المغاربة	: لمحمد الفاسي (مجلة دعوة الحق)
٦ — الرحالة العرب	: للدكتور نقولا زيادة
٧ — الرحالة المسلمون	: للدكتور محمد حسن

الفصل الخامس

الخطابة

تعريفها :

هي فن من فنون الكلام ، غايته اقناع السامعين ، واستمالتهم، والتأثير فيهم ، بصواب قضية او بخطأ اخرى ، والخطيب الماهر من يستطيع أن يلعب بهذه العناصر لعباً فنياً فهو يتخذ الوسائل المختلفة لاقناع السامعين ويستعين على الإقناع بالأدلة والبراهين .ثم هو يحرك عواطفهم لاستمالتهم ويلعب بها ، فهو يستطيع ان يهدىء ثورتهم اذا شاء ويثيرهم اذا اراد، ويستعين على الاستمالة بإبراز ما في نفسه من معان وافكار وقوى معنوية، ثم يتوخى بلوغ موضع القبول من افهام الجماهير ، وبلوغ موضع الاهتمام من عقولهم،ويستعين على التأثير بقوة الاسلوب وبلاغته ونبرات الصوت، ودقة الاشارة وامارات الوجه من تعبير صامت يعزز مدلول الكلام .

نشأتها :

فن الخطابة قديم وجد مع الانسان ونشأ بنشأته وارتقى برقيه ، فمتى وجدت جماعة من الناس تتكلم بلسان واحد فسرعان ما يختلفون في آرائهم ومعتقداتهم بالصواب والخطأ ، واذ ذاك يتجادلون ويحاول بعضهم اقناع بعض ويتسابق النابهون منهم الى استمالة المخالف ، والى التأثير فيه بشتى الطرق والضرب على اوتار فؤاده .

ومن ثم كانت الخطابة ضرورة من ضرورات المجتمع في الحياة العامة، فما تجد عملاً من اعمالها يحتاج الى جدل واقناع الا كانت الخطابة اداة

لذلك ، ومواقف المجد التي قيدها التاريخ للأمم مدينة للخطباء الذين سحروا النفوس بعذب بيانهم ، وقبضوا على أزمَّة العقول بقوي حججهم وراضوا العواطف النافرة بألوان استمالتهم ، ألم تر كيف اقنع ابو بكر يوم السقيفة الانصار، وارضى المهاجرين ؟. وكيف دفع طارق بن زياد جنده الى الاندلس يفتحون ارضها ؟ وكيف طامن الحجاج من جماح اهل العراق بما ارسل عليهم من صواعق كلمه ؟ وعلى هذا النحو كان ولا زال سلطان الملكة الخطابية في الأمم جميعها قديماً وحديثاً له اثره الخطير ، فهذا (مسلون) في أثينا ، و (ششرون) في روما ، و (ميرابو) في فرنسا، و (لينين) في روسيا ، و (لويد جورج) في انكلترا ، و (سعد زغلول) في مصر ، واضرابهم كثير كانت لقدرهم الخطابية الأثر الاول فيما بلغوا .

دواعيها :

١ — الحرية : وجولة سريعة في تاريخ الخطابة عند اليونان والرومان والعرب تقفك على تأثر الخطابة رقيّاً وانحطاطاً ، أرأيت كيف ارتقت الخطابة عند اليونان لما نالت حرية الفكر والقول في القرن الخامس(ق م) ، وعند الرومان لما كثرت دواعيها بثورة العامة على الطبقة الارستقراطية في القرن الثاني (ق م) ، وعند العرب عهد ظهور الاسلام وبني امية حتى فاضت الاندية والمجالات بها وتمخّض الزمن عن بيركليس وديموستين عند اليونان وششرون عند الرومان ، وعلي وزياد والحجاج وطارق ابن زياد عند العرب .

٢ — الأمِّيَّة : ان الناس اذا فشت فيهم الامية وجهلوا القراءة والكتابة لم يكن لهم بدّ من الخطابة يستعملونها اداة للتفاهم والاقناع ، وكان هذا من دواعي الخطابة عند العرب في الجاهلية .

٣ — الانقلابات الدينية والسياسية والاجتماعية : فكل انقلاب يحتاج الى الخطيب المصقع يدعو الى الجديد باظهار محاسنه وينفر من

القديم ببيان مساوئه وخير مثـال لذلك مجيء الاسلام ؛ اذ ان الاسلام يعتبر ثورة دينية وسياسية واجتماعية جديدة خرجت على مألوف العرب، والتاريخ حافل بمثل هذه الانقلابات .

٤ — الحروب وتنـازع الأحزاب : فالخطابة تعين القواد ورجال الجيوش على ايقاد الحماسة وإذكاء نار الغيرة الوطنية وان نضال الاحزاب الإسلامية حول الخلافة عصر بني اميـة لهو خير شاهد لإذكاء ريح الخطابة آنذاك .

٥ — اصلاح ذات البين : كثيراً ما تجد الخطابة دواعيها حين يهيب بعض العقلاء بالسلم ، وفي حياة العرب والرومان واليونان بل في العصور الحديثة كثير من مواقف الصلح دعا فيها الخطباء الى الالفة والتعاون ، ونهوا عن التقاطع ، وخير مثال لذلك هو المؤتمر الذي عقدته أقطـار دول الحياد الإيجابي في (بلغراد) في مستهل سبتمبر ١٩٦١ .

٦ — معالجة الامور العامة والاحوال الاخلاقية والاجتماعيـة : ومن امثلة ذلك عناية الحكومات بشعوبها وترفيه العيش عليهم ، وما يعنى به المصلحون من مشاكل المتعطلين والمتعلمين وإضراب الشبـان عن الزواج وما الى ذلك .

أنواعها :

والخطابة من حيث موضوعها أنواع عدة :

خطب المجاملات والمناسبات :

وهي خطب تعنى بمدح الشخصيات البارزة،او تأبين ابطال استشهدوا في ساح الفداء والفكر والزعامة ، او تهنئة بمنصب او درجة وقد عرف العرب هذه الاقسام .

الخطابة القضائية :

وهي المرافعات التي تلقى امـام الحكام في اتهام شخص او الدفـاع

عنه ، وموضوعها احقاق الحق وابطال الباطل ، وبالفصل فيما ينشأ بين الناس من نزاع ، والعرب لم يعرفوا قديماً هذا النوع لعدم جري الانظمة القضائية عنـــدهم على نحو يمكن من بروز المحامين وقد بقوا على ذلك حتى العصور الحديثة .

الخطب السياسية :

وهي اما ان تكون خطباً وطنية ،او خطباً حزبية ، او خطباً برلمانية ، او خطباً ادارية ، واكثر ما تكون ارتجالاً في الامم الحرة المستقلة التي لا يعقل ألسنتها سلطان الغالب ، وقد اشتهر العرب بالخطب السياسية على انواعها ولكنهم لم يمارسوا الخطب البرلمانية الا في العصر الحديث .

الخطب الحربية :

وعرفت منذ اقدم العصور ، ومنهـــا الخطب العامة التي تتحدث عن الحرب وأسبابها ، ومنها الخطب التي تلقى بعد المعارك فتحدد الخطوط العامة للمعركة ، ومنها الخطب التي تلقى بعد المعارك بتهنئة الجيش بالظفر أو التنديد به لتقاعسه .

الخطب الدينية :

وهي من اخلد الخطب واقدمها لانها تتناول اجمالاً موضوعات أخلاقية فلسفية تنبعث عن روح الاديان ، وذاعت هذه الخطب عند العرب بعد الإسلام خصوصاً .

الخطب الاجتماعية :

وهي التي تعالج قضايا المجتمع على اختلافها فتحاول القضاء عـــلى الموبقات وتحارب البؤس وتسعى الى ايجاد حلول لما يتعلق بمشكلات المرأة وتطالب بالحريات وما الى ذلك .

صفات الخطيب :

(ا) صفات جسدية : فالطاعة يجب ان تكون مقبولة ، والوجه معبراً ، منوّع النظرات ، والإلقاء حسناً والصوت جهيراً ذا نغم قوي مؤثر ينفذ الى القلوب .

(ب) صفات معنوية : رباطة الجأش ، فالموقف الذي يقفه الخطيب لا يخلو من المهابة ، وان يكون ذا اخلاق رفيعة حتى اذ ما دعا الى الخير كان للناس من شخصه قدوة حسنة .

(ج) صفات عقلية: الذكاء هو الذي يمكن الخطيب من رسم المخطط الواضح لخطبته، وسرعة البديهة هي الصفة التي تنقذ الخطيب من المفاجآت والغرق ، والإدراك النفسي الذي يقرأ به الخطيب الملكات اللماعة على الوجوه ويدرك ما في نفسية سامعه ، فيعرف ما يجب ان يقال وكيف يقال ، والذاكرة لان بعض الخطباء يرتجل كلامه بعد اعداد ذهني .

(د) صفات تمثيلية : وهي التي يستعين بها الخطيب على الاداء ، ومنها حسن الوقفة والاتكاء على كرسي او عصا ، وإحكام الاشارة باليد وإجالة النظر في الحفل ، واتزان الحركات ، ولهذا قد تجد للخطبة قوة تأثير عند سماعها فاذا قرأتها قلّ أثرها .

أجزاء الخطبة :

كان أرسطو اول من كتب في هذا الموضوع فقسم الخطبة اربعة اقسام:

المقدمة (او الابتداء) :

لا بد ان تكون جذابة مشوقة قريبة الى اذهان السامعين متناسبة مع الخطبة يجتذب الخطيب فيها انتباه السامعين، ويتجه بعقليتهم وجهة معينة ، وقد يتركها الخطيب اذا لم يجد داعياً اليها .

الموضوع (او العرض) :

وهو العنصر الاساسي وفيه يبسط الخطيب فكرته ويشرح وجهة نظره في ترتيب منطقي مقبول، فيبدأ عادة بالمألوف لينتقل الى البعيد المجهول ، وان يكون عرضه مُسْلِماً للنتيجة التي يقصدها .

البراهين :

وهي رهينة بطبيعة الموضوع فيقدم الخطيب بعضها مؤيداً وجهة نظره ومدللاً عليها ، ويؤخر بعضها كي يفند حجج خصمه ، ويجب على الخطيب ان يكون مقتنعاً بصواب وجهة نظره وخطأ مخالفه .

الخاتمة :

وفيها يجمع الخطيب اطراف الموضوع ويترك في اذهان السامعين صورة واضحة موجزة لما يتناوله في الخطبة مجتذباً عواطف السامعين الى رأيه ، وان تكون قصيرة ما امكن ، وقد يتركها الخطيب احياناً .

نماذج تطبيقيّة

اولا – خطبة الرسول

في حجة الوداع (١)

الحمدُ لله ، نَحْمَده ، ونَسْتَعينه ، ونسْتَغْفره، ونتوبُ إليه ، ونعوذُ بالله مِنْ شُرُور أنفُسِنا ومن سيئات أعمَالِنا ، مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضلّ له ، ومَنْ يُضْلِل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير .

أما بعد :

أيّها النّاس :اسمعوا مِني أبيّن لكمْ فإني لا أدْري لعَلّي لا ألْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هذا في مَوْقِفي هذا ، أيها الناس : إنَّ دِماءكم وأموالَكُم حرَام عليكم(٢) ، إلى أنْ تَلْقوا ربّكم ، كَحُرْمة يَوْمكم هذا ، في شهركم هذا(٣) ، في بلدكم(٤) هذا . ألاَ هل بَلّغْت ؟ اللّهُمّ اشْهَدْ فمَنْ كانت عنده أمانة فَلْيؤدّهَا إلى الذي ائتمَنَهُ عليها . وإنّ ربا الجاهليّة موضوعٌ(٥) . وإنّ أول رباً أبدأ به ، رَبا عَمّي العباس بن عبد المطلب .

ثم قال : أيها الناس إنما المُؤمنون إخْوة فلا يحلّ لامرىءٍ مالُ أخيه إلاّ عَنْ طِيبِ نَفْس منه ألاَ هَلْ بلغْتَ ؟ اللّهم اشهد ! فلا تَرجِعُنّ بعدي كُفّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكم رِقابَ بَعْض فإني قد تركتُ فيكم ما إنْ أخذْتم به لمَ تضِلوا بعده ، كتابَ الله وسنّة رسوله . ألاَ هَلّ بَلغْت ؟ اللّهم اشهد .

أيها الناس : إنّ ربّكم واحدٌ ، وإن أباكم واحدٌ ، كُلّكُم لآدم ، وآدم من تُراب ، أكرمُكُم عِنْدَ الله أتْقاكم ، وليسَ لعَرَبيّ على عجمي فضلٌ إلاّ بالتقوى . ألاَ هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا نعم ، قال : فَلْيُبلغ الشاهدُ الغائبَ .

---

(١) سميت بالوداع لانالنبي ودع الناس فيها بالوصية . (٢) حرم عليكم سفك الدماء واغتصاب الاموال.(٣) هو شهر ذي الحجة أحد الاشهر الحرم الاربعة.(٤)مكة.(٥)ساقطلا حسابله.

أيها الناس : إنَّ رَبَّكم واحدٌ ، وإن أباكم واحدٌ ، كُلُّكُم لآدم . وآدم من تُراب ، أكرمُكُم عِنْدَ الله أتْقَاكُم ، وليسَ لعَرَبيٍّ على عجمي فضلٌ إلاَّ بالتقوى . ألاَ هل بلغت ؟ اللهم اشهد. قالوا نعم ، قال : فَلْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ .

مناسبة الخطبة :

قالها رسول الله لما حج في السنة العاشرة من الهجرة ، وسميت حجة الوداع ، لانه توفي بعدها فكانت آخر خطبة له في موسم الحج ، ولعله كان يشعر بهذا كما ترى في الخطبة، ولذلك اودعها كثيراً من أسس الدِّين.

تحليل الخطبة :

بدأ الرسول صلوات الله عليه بحمد الله والثناء عليه ، وهذا أثر من آثار الاسلام في الخطابة ، ثم اتبع الحمد بما يدعو الى شدّة التأثير والاستمالة ، وهو المفارقة فقد يكون هذا آخر العهد بهم . والى هنا انتهى الرسول عليه السلام بمقدمة ارهفت الآذان للموضوع ولتلقي ما يقول .

ثم ذكر خمسة اصول من اهم اصول الدين ومبادئه السامية واردفها بثلاث وصايا . اما الاصول فهي : حق حفظ النفس وحرمة قتلها ، وحق تملك المال وحرمة اغتصابه، وحق الامانة بحفظها وردها الى اهلها ، وحق الاصل الواحد اذ ان المؤمنين إخوة ، وحق المساواة لاتحادهم في الخلقة .

واما الوصايا : فقد حثهم على التمسك بدينهم ، وألا يعتدي المسلم على اخيه ، وان يتخذوا القرآن دستوراً يسيرون على نهجه ، وهذه القوانين والمبادىء من شأنها ان تنظم العلاقة بين افراد المجتمع وتكفل لهم حياة سعيدة .

وفي الخطبة انبرى الرسول حاثاً على الصلاح والتقوى والالفة ، كما وضح بعض خطوط من اصول الاسلام وفلسفته ، فالمجتمع السليم هو الذي يتوافر لافراده احترام الحقوق، والاطمئنان على الانفس والاموال ،

والتعاون على الخير وسيادة العدالة الاجتماعية والإخاء والمساواة واستقرار المحبة والسلام . وهذه الخطبة من نوع (الخطب الدينيـــة) ولا ننس ان الدين الجديد كان من اهم الاسباب التي ادت الى ارتقاء الخطابة في صدر الإسلام .

خصائص الخطبة :

١ — وضوح العبارة وبسط المسائـــل في أسلوب خطابـي يسترعي الانتباه ، لان كثرة من يشهدونها واختلافهم في مراتب الفهم والإقناع يستدعي ذلك .

٢ — التكرار في بعض العبارات كتكرار « الا هـل بلغت . اللهم اشهد » وذلك لتسجيل هذه المعاني الجليلة ، وتقرير مضمونها .

٣ — المقدمة التي درج عليها صدر الإسلام من البدء بالحمـد لله والثناء عليه كما أشرنا ، والتشويق الى الاستماع وحثهم على الفهم والوعي.

٤ — العرض الوافي المؤيد بالدليل والحجة .

٥ — جزالة الالفاظ وجودة اختيارها وليس هذا بغريب على بلاغة الرسول وفصاحته عليه السلام .

٦ — التأكيد عندما يحتاج المقام الى تأكيد كما في تأكيد معنى المساواة (ان ربكم واحد — وان اباكم واحد ، كلكم لآدم ، أكرمكم عند الله اتقاكم — ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى) .

٧ — أثر القرآن وبلاغته والاقتباس والاستشهاد واضح في الخطبـــة مثل (انما المؤمنون اخوة) و (اكرمكم عند الله اتقـاكم) .

٨ — الترتيب المنطقي في التفكير مثل : ان اباكم واحـــد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب .

٩ — استخدام الجمل القصيرة التي تسعف السامعين بالمعنى .

ثانياً – خطبة الجهاد

لعلي بن أبي طالب

أمّا بعدُ ، فإنّ الجهادَ بابٌ مِنْ أبْوابِ الجنّةِ فتَحَهُ اللهُ لخاصّة أوْليائِه ، وهو لِباسُ التّقْوَى ، ودِرْعُ اللهِ الحصينةُ ، وجُنّتُهُ (١) الوثيقة ، فمَنْ تَرَكَه رَغْبَةً عَنْه ألْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذّلِ وَشَمْلَةَ البَلاءِ (٢) ، ودُيّثَ (٣) بالصغارِ والقَماءة (٤) وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِه بالأسْدَاد (٥) وأُدِيلَ الحقّ مِنْهُ بتَضْييعِ الجهادِ ، وسِيمَ الخَسْفَ (٦) وَمُنِعَ ، النّصَفَ . ألاَ وإنّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إلى قِتالِ هؤلاءِ القَوْمِ لَيْلاً وَنهاراً وَسِرّاً وإعْلاناً ، وقلْتُ لكم : (أغْزُوهُمْ قَبْلَ أنْ يَغْزُوكُمْ فوَاللهِ ما غُزِيَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دارِهِمْ إلا ذَلّوا فتَوَاكَلْتُمْ (٧) وتَخاذَلْتُمْ حتّى شُنّتْ الغَارَاتُ عليكم ومُلِكَتْ عليكم الأوطانُ . هذا أخُو غامدٍ قد بلغتْ خَيْلُه الأنْبار وقتل حسّان البكريّ (٨) ، وأزَالَ خَيْلكمْ عن مَسَالِحِها (٩) ، وقتَلَ منكم رجالاً صالحين .

وَقَدْ بَلَغني أنّ الرّجُلَ مِنْهُمْ كان يَدْخُلُ على المرأةِ المُسْلِمةِ والأخرى

---

(١) الجنة : الوقاية . (٢) الشملة : كساء واسع . (٣) ديث : ذلل . (٤) الصغار والقماءة : الذل . (٥) الاسداد : الحجب التي تحول دون بصيرته والرشاد . (٦) سيم الخسف : أذل ، أديل الحق منه : اي صارت الدولة للحق بدله . (٧) تواكلتم : وكل كل منكم الامر الى صاحبه . (٨) هو عامل على رضي الله عنه على الانبار . (٩) المسالح جمع مسلحة ، وهي الثغر حيث يخشى طروق العدو .

المعاهدَةِ (١) ، فَيَنْزِعُ حجِلْهَا (٢) وَقُلْبَهَا (٣) ورِعَاثَها (٤) ثم انْصَرَفُوا وَافِرِين ، مَا نَالَ رجلاً منهم كلمٌ (٥) ، ولا أريقَ لَهُمْ دَمٌ . فَلَوْ أنَّ رجلاً مُسْلِمًا ماتَ منْ بَعْدِ هَذَا أسفاً ، ما كان به مَلُوماً ، بل كان عندي جَديراً.

فَيَاعَجباً واللهِ يُميتُ القلبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ : اجتماعُ هَؤلاءِ القَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِم ، وتَفرّقكُم عنْ حقكم ، فَقُبْحاً لكمْ وترَحاً (٦) حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى ، يُغَارُ عَليكم وَلاَ تغيرُون ، وتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ ، ويُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ ، فإذا أمَرْتُكُمْ بالسَّيْرِ إليْهم في أيّامِ الصَّيْفِ قُلْتُمْ هذهِ (٧) حَمَارّةُ القَيْظ أمْهِلْنا يُسَبّخْ (٨) عنّا الحرّ ، وإذَا أمَرْتُكُم بالسّيْرِ إليهِمْ في الشّتَاءِ قُلْتم : هذهِ صَبارةُ (٩) القُرّ أمْهِلْنا يَنْسَلِخْ عنّا البرد ، كلّ هَذَا فرَاراً مِنَ الحرِّ والقُرِّ فأنتُمْ واللهِ مِنَ السَّيْفِ أفرّ ، يا أشْبَاه الرّجالَ ولا رجال حلومُ الأطْفَال (١٠) وعقول ربّاتِ الحِجَال (١١) لَوَدِدْتُ أني لَمْ أركُمْ ولمْ أعْرِفْكم ! معرفةٌ واللهِ جرّتْ ندماً ، أو عقبَتْ سَدَماً (١٢) قَاتَلَكُم الله لقدْ ملأتُم قلْبي قَيْحاً

---

(١) الذمية . (٢) الخلخال . (٣) السوار . (٤) القرط . (٥) الجرح .
(٦) الترح : الحزن وهنا ما ينصب ليرمي بالسهام اشارة الى ان اهل العراق اصبحوا هدفاً لجنود معاوية يرمونهم فلا يدفعون عنهم الاذى . (٧) حمارة القيظ : شدة الحر .
(٨) يسبخ : يخف . (٩) صبارة القر : شدة البرد . (١٠) الحلوم : العقول .
(١١) ربات الحجال : النساء . (١٢) السدم : الهم والاسى .

وشحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً ، وجرّعتُموني نُغَبَ(١) التهام(٢) أنفاساً ، وأفْسَدْتم عليّ رأيي بالْعِصْيان والخِذْلاَن حتّى قَالت قريش : إنّ ابنَ أبي طَالب رجلٌ شُجَاع ولكنْ لاَ عِلَمَ لَه بالْحَرْب ، لله أبُوهم ! وهلْ أحدٌ مِنْهُم أشدّ لَهَا مِرَاساً(٣) ، وأقْدم فِيها مَقَاماً مِنّي ؟ لَقَدْ نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين ، وهَأنذَا قد ذرّفْت(٤) على السّتين ، ولكن لاَ رَأْي لِمَنْ لاَ يُطاع .

صاحب الخطبة :

هو علي بن ابي طالب رابع الخلفاء الراشدين واعظمهم شهرة ادبية، ولد حوالي سنة ٦٠٠ م وربي في حجر الرسول عليه السلام ،ولما بعث الرسول سنة ٦١٠ م كان عليّ اول من آمن به من الصبيان ، اشترك الى جانبه في المعارك وابدى من ضروب الشجاعة ما كان يعجز عن مثله الكماة .

وكانت موقعة الجمل اول معركة يحارب فيها عليٌ خصومه ، فقد ثار طلحة والزبير بعلي — تساندهما عائشة زوج النبيّ — فسار اليهم وانتصر عليهم وبقي عليه ان يخضع والي الشام المتمرد معاوية بن ابي سفيان الذي نصب نفسه مطالباً بدم عثمان ،ولم تنفع الرسائل المتبادلة بين الخليفة والوالي في تصفية الامور ، ولم يبق الا الاحتكام الى السيف ، فنشبت معركة (صفين) ،وكاد عليّ ينتصر فيها لولا الخدعة التي لجأ اليها معاوية وابن العاص،فأحجم السيف عن قطف الثمار أمام المصاحف التي رفعها جندُ الشام استجابة لنصيحة الداهية عمرو بن العاص ،فتوقف القتال وقبل مبدأ

(١) النغب : جمع نغبة وهي الجرعة .
(٢) التهام : الهم الكثير .
(٣) المراس : المزاولة .
(٤) ذرف : زاد .

التحكيم ، وألب عليه التحكيم جماعة من جيشه كانوا يريدون متابعة القتال فخرجوا عليه وعرفوا (بالخوارج) واصبحوا من اصلب أعدائــه قناة ، وأسفرت نتيجة التحكيم عن خلع علي فانصرف الى الكوفة يستعد للجولة الثانية ، ولكن عبد الرحمن بن ماجم الخارجي كمن له وهو في طريقه الى المسجد فضربه بسيف مسموم فتوفي بعد ثلاثة أيام وكان ذلك سنة ٦٦١ م .

عرف علي ببلاغته وذاعت خطبه في ايامه وبعد وفاته ، ولم تنتظم في كتاب الا في مطالع القرن الحادي عشر الميلادي حين عمد الشريف الرضي الى جمعها في كتاب (نهج البلاغة) .

تحليل الخطبة :

خطب الإمام عــلي في الناس يوم اغار سفيان بن عوف الاسدي[١] وغزا مدينة الانبار[٢] بالعراق ، وتجري الخطبة شوطاً بعيداً فتلمس فيها النزعة الدينية حيث يفتتح الإمام علي كلامه بالتحدث عن اهمية الجهــاد فيقول « ان الجهاد باب من ابواب الجنة ... » فجنوده اذ يحاربون لا يحاربون سفيان او غيره من أجل علي بل يجاهدون قصد احقاق عــدل الله في البرية . وتلمس فيها حرارة العاطفة التي تنبع من اخلاص عليّ ، فهو لا يعرف الرياء والمداهنة ، ومن ثم خاطب اتباعة وقرّعهم حين تخلفوا عن نصرته ، وعتب على اعدائه ، ونقم حين بالغوا في الغيّ ، وهو في اخلاصه صريح الفكرة والعبارة ،لا يتوانى عن ان يقـول لجنوده. « يا أشباه الرجال . ولا رجال ، حلوم الاطفال وعقول ربات الحجال» .

ونلمس فيها أخذه اتباعه بالبرهان الجدلي اخذاً فيه احكام وفيه غيرة ، فهو يتهم ويتوعد « الا واني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ... فتواكلتم»

---

(١) هو احد بني غاسد ، وهي قبيلة باليمن ، وقد بعثه معــاوية لشن الغارة على أطراف العراق .

(٢) بلدة على الشاطىء الشرقي للفرات .

ثم يقابل متعجباً بين صواب قضيته وضلال قضية الآخرين ، حتى اذا ما شام في جماعته تقاعساً اظهر التأفف منهم وحمل عليهم حملة لا تراعي لاحد منهم جانباً .

ونلمس فضلاً عن الاساليب البيانية الرائعة ، شيئاً من التسجيع ، ولكنه تسجيع الطبع والفطرة . لا تسجيع الصنعة والتكلف .

ونلمس في هذه الخطبة برهاناً على فصاحة علي وبلاغته وفيها من عناصر الخطبة : المقدمة ، والعرض ، والخاتمة .

وقد كان بارعاً في عرضه ، فانظر كيف تدرج في اثاره شعور سامعيه حتى وصل الى القمة ، فإنه اخبرهم — بعد المقدمة — « بغزو الانبار ، ثم بقتل عامله ، وان ذلك لم يكف سفيان بن عوف فأغمد سيوفه في نحور كثير من رجالهم .»

ثم توجه في الخطوه الثانية الى مكان الحمية ، ومثار العزيمة والنخوة من نفس كل عربي كريم ، الا وهو المرأة. فإن العرب تبذل ارواحها رخيصة في الذود عنها والدفاع عن خدرها .

ثم اظهر الدهشة والحيرة في الخطوة الثالثة من تمسك اعدائه بالباطل ومناصرته وفشل قومه عن الحق .

ثم بلغ الغيظ منه مبلغه في الخطوة الرابعة . فعيرهم بالجبن والخور، وشبههم بالنساء في ضعفهم ، وبالاطفال في عقولهم .

خصائص الخطبة :

١ — قوة المعاني والالفاظ ، واختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين .

٢ — التكرار واستعمال المترادفات .

٣ — قوة الحجة والبرهان ، وقوة العقل الخصيب ، والتدرج في مراقي اقامة الحجة .

٤ — تعاقب ضروب التعبير من إخبار الى استفهام الى تعجب الى استنكار.

ثالثاً — الخطبة البتراء

لزياد ابن أبيه

أمّا بَعْدُ : فإنّ الجَهَالَة الجَهلاء ، والضَلالَة العَمْيَاء ، والغَيّ (١) المُوفي (٢) بأهْلِه على النّارِ ، ما فيه سُفَهَاؤُكم ويَشْتَمِلُ عليه حُلَماؤكم من الأمور العِظَام ، يَنْبَتّ فيها الصغير ، ولا يتحاشى عَنْها الكبير ، كأنّكم لم تقرأوا كِتَاب الله ولم تَسْمعوا ما أعدّ الله من الثّوابِ(٣) الكَرِيمِ لأهْلِ طَاعَتِه ، والعذابِ الأليم لأهل مَعْصِيَتِه ، في الزّمَن السّرْمديّ (٤) الذي لا يزول ، أتكونون كمن طَرَفَت عَيْنيه (٥) الدنيا وسدّت مسامِعَه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحَدَثَ الذي لم تُسْبقُوا إليه من ترككم الضعيفَ يُقهر ويُؤخذ ماله ، هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المُبصرِ ، والعددُ غيرُ قليل ، ألم يكن منكم نُهاة(٦) تمنع الغُواة عن دَلَج الليْل(٧) وغارة النّهار ؟ قرّبتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العُذْر وتُغْضُون على المختلس ، كل امرئ منكم يذُبّ(٨) عن سفيه صنيعَ من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو مَعاداً(٩) ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتّبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترَون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرَم

---

(١) الغي : الضلال . (٢) الموفي : المشرف . (٣) الثواب : الجزاء على أعمال الخير . (٤) السرمدي : الازلي الابدي . (٥) طرفت عينه الدنيا : طمحت عيناه الى الدنيا وزخرفها فشغلتا بها عن الآخرة . (٦) النهاة : الزاجرون المانعون . (٧) دلج الليل : السير فيه . (٨) يذب : يدافع . (٩) المعاد : الآخرة .

الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كُنوساً(١) في مَكانِسِ الرِّيَب ، حرامٌ عليَّ الطعامُ والشراب حتى أسوِّيها بالأرض هدماً وإحْراقاً .

إني رَأيتُ آخِرَ هَذَا الأمر لا يَصْلُحُ إلا بِمَا صَلَحَ بِهِ أوَّله ، لِينٌ في غَيْرِ ضَعْف ، وشِدَّةٌ في غير عُنْف ، ولأقْسِمُ بالله : لآخُذَنَّ الوليَّ بالْمولى ، والمُقِيمَ بِالظاعِن(٢) ، والمُقْبِل بالمُدْبِر ، والمُطيع بالعاصي ، والصَّحيحَ بالسقيم حتى يَلْقى الرجُل منكم أخاه فيقول « انجُ سَعْدُ فَقَدْ هَلَكَ سُعَيْد(٣) » أو تَسْتَقِيمَ لي قناتكم .

إنّ كِذْبة الأمير بَلْقاءُ(٤) مشهورةٌ ، فإذا تَعَلَّقْتُمْ عليَّ بِكذبة فقد حلّت لكم مَعْصِيتي ، فإذا سمعتموها مني فاغتمزُوها(٥) فيَّ واعلموا أنّ عِندي أمثالهَا .

مَن نُقِب(٦) منكم عليه فأنَا ضامنٌ لِمَا ذَهَبَ منه ، فإيَّايَ ودَلَج(٧) الليل ، فإني لا أوتَى بِمُدْلجٍ إلا سفكتُ دَمَهُ ، وقد أجّلتُكُمْ في ذَلِك بمقْدار ما يأتي الخبرُ الكوفة ويرجع إليكم ، وإياي وَدَعْوَى (٨) الجَاهِلية ، فإني لا أجد أحداً دَعَا بِها إلا قطعتُ لسانه .

وقد أحدَثْتُم أحدَاثاً(٩) لم تكُن ، وَقدْ أحدَثنا لكلِّ ذَنب عقوبة ، فمن غرّقَ قوماً أغرقنَاه ، وَمَنْ أحرَق قوماً أحرقناه ، وَمَنْ نقَب بيتاً نقبْنا عليه قلبَه ، ومن نَبَشَ قبراً دَفَناه فِيه حيّاً ، فكفوا عَني أيديَكم وألسنتكم

---

(١) الكنوس : المختبئون ، المكانس الملاجيء وتكون للوحوش تختبيء فيها .

(٢) الظاعن : المسافر .

(٣) مثل يضرب في تتابع الشر ، وأصله ان رجلا يقال له ضبة كان له ابنان سعد وسعيد فنفرت له ابل فخرجا في طلبها فوجدها سعد فردها اما سعيد فقد ظفر به اعرابي فقتله ليستولي على حلته .

(٤) المعنى انها واضحة كوضوح الفرس الابلق بين الخيل .

(٥) عدوها من عيوبي ، والمراد لن يكون كاذباً فسوف يتبع القول بالفعل .

(٦) نقب عليه : سرقت داره (٧) دلج الليل : السير فيه ، والمراد التلصص .

(٨) دعوى الجاهلية : دعوى العصبية والنزق .

(٩) أحدثتم أحداثاً : الامور المنكرة .

أكفُفْ عنكم يدِي وَلِسَاني ، ولا تَظْهَرْ منْ أحَدٍ منكم ريبةٌ(١) بخلافِ ما عليه عَامّتكم إلا ضربتُ عُنقه ، وقد كانَتْ بيني وبين أقوامٍ إحَنٌ (٢) فجعلتُ ذَلك دَبْرَ(٣) أُذُني وَتَحْتَ قَدَمِي ، فمنْ كانَ مِنكم محْسِناً فليزْدَدْ إحساناً ، ومنْ كانَ مُسِيئاً فلينزع عن إساءته ، إني لو علمت أنّ أحدكم قد قَتَلَه السّلّ منْ بغضي لم أكْشِفْ له(٤) قِنَاعاً ، ولم أهْتِكَ له(٥) ستراً حتى يُبْدِيَ لي صَفْحَتَه(٦) فإذا فعل ذلك لمْ أنَاظِرْه (٧) ، فاسْتأنفوا أموركم وأعينُوا (٨) على أنْفُسِكم فَرُبَّ مُبْتئس بقُدُومنا سَيُسرّ ، وَمسْرُورٍ بقدومنا سَيَبْتئِس .

أيها الناسُ : إنا أصْبحنا لكم ساسة نسوسُكم بِسُلطانِ الله الذي أعْطَانَا ، ونَذُودُ عنكم بفَيء (٩) اللهِ الذي خَوّلنَا(١٠) فلَنَا عليكم السّمْع والطاعة فِيما أحْببْنَا وَلكمْ عَلَيْنا العدلُ فِيما وَلِينَا ، فاستوْجِبُوا عدْلنا وفيأنا بمُنَاصَحَتِكم لنا ، واعْلَمُوا أني مَهْمَا قصّرْتُ عنه فلَنْ أقصِّر عن ثلاث : محُتجباً عَنْ طَالِب حَاجةٍ منكم ، ولو أتاني طارقاً بلَيْل ، ولا حابساً عطاءً ولا رزْقاً عن إبّانِه(١١) ولا مجَمِّراً لكم(١٢) بعثاً .

---

(١) الريبة : الامر المخالف للدين .
(٢) الإحن : الاحقاد والضغائن .
(٣) دبر : خلف . والمراد اهماله وتركه .
(٤) أكشف له قناعاً : اي لم اقابله بمثل عدوانه .
(٥) أهتك : أشق .
(٦) يبدي لي صفحته : يكاشفني ويجهر بالعداوة .
(٧) أنظره : لم أمهله .
(٨) أعينوا على أنفسكم : أي بالاستماع والطاعة .
(٩) الفيء : مال الخراج والغنيمة .
(١٠) خولنا : أعطانا .
(١١) ابانه : وقته .   (١٢) مجمراً : حابساً في أرض العدو .

فادْعُوا الله بالصلاح لأئمتِكم فإنّهُم ساستُكم المُؤدِّبون لكم ، وكهفُكم(١) الذي إليه تأوُون ومتى يصلحُوا تصلحُوا ، ولا تُشْربوا قلوبكم بُغضهم فيشتدّ لذلك غيْظكم ، ويطولَ له حُزنكم ، ولا تدركوا حاجتَكم ، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شراً لكم ، أسألُ الله أنْ يُعينَ كُلاً على كل ، وإن رَأيتُمُوني أُنْفِذُ فيكم الأمر فأنفذوه عَلى إذْلاله ، وايْمُ الله إنّ لِيَ فيكم لَصَرْعَى كثيرةً فَلْيَحْذَرْ كلّ منكم أنْ يكون مِنْ صَرْعَاي .

صاحب الخطبة :

هو زيادة بن سميَّة، وسمية هذه كانت مولاة للطبيب العربي المشهور الحارث بن كلدة ، ولما لم يكن معروف النسب لانه كان من أب غير شرعي دعاه الناس زياد ابن ابيه ولكن يرجح ان اباه هو ابو سفيان والد معاوية ، ويدعم هذا الترجيح ان معاوية استلحقه بنسبه واعترف به اخاً له من ابيه .

ولد زياد في الطائف في السنة الاولى للهجرة فنشأ نشأة اسلامية وظهرت عليه امارات النجابة المبكرة فامتاز بطلاقة اللسان وبلاغة القول وقوة الحجة ، واعجب به عمرو بن العاص فقال : (لو كان ابوه قرشياً لساق العرب بعصاه) .

وقد تمرس بالوظائف العامة منذ كان حدَثاً فمن العراق الى البصرة الى فارس وبعد مقتل علي تلطف له معاوية واستلحقه بنسب ابيه ابي سفيان ، وولاه العراق وفي هذا الدور من حياته ظهرت مواهبه وخصاله ناضجة قوية حتى أكد الملك لمعاوية وشمل حذقه جميع الناس ، فكان يقول : (لو ضاع حبل بيني وبين خراسان لعرفت آخذه .)

وفدَ زياد على البصرة سنة ٤٥ هـ وكانت كسائر العراق مركزاً من مراكز الفتنة الدائمة ضد الحكم الاموي فسار الى المسجد الجامع وخطب

(١) كهفكم : ملجأ لكم .

في الناس هذه الخطبة الشهيرة البتراء ، وسميت بذلك لانه لم يحمد الله فيها ، وقد وضح فيها معالم سياسته،وتوفي بعد حياة حافلة سنة ٥٣ هـ.

تحليل الخطبة :

تناول زياد في خطبته العناصر التالية :

(ا) استهل زياد خطبته بهجوم عنيف على اهل البصرة لضلالهم ومروقهم لا يستثني صغيراً او كبيراً فكأنهم لم يقرأوا القرآن وما فيه من الثواب للمطيعين والعقاب للعاصين ، ثم شبه حالهم بحال من ألقت الدنيا غشاوة على بصره فآثر الحياة الدنيا على الآخرة .

ثم تدرج الى الناحية الايجابية وبسط الخطة العامة التي اعتزم تطبيقها في سياسة تلك المدينة محدداً معالمها وانها ليست بغريبة عليهم ،فهي الخطة التي صلح بها امر الاسلام من قبل ، « لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف » ثم اقسم ليأخذنّ البريء بالمذنب حتى يستقيم ما اعوج من امر أهل البصرة ، واردف ذلك بقسم آخر ، ان له فيهم ضحايا كثيرة منتظرة ، محذراً كل فرد من البصريين ان يكون واحداً من هذه الضحايا .

(ب) اعلن عن قانون العقوبات: فاذا العقوبة من نوع الجريمة والجزاء من جنس العمل ، فللمغرق الإغراق وللمحرق الإحراق ، ولمن ينبش قبراً الموت فيه .

(حـ) صفحة جديدة : يعلن انه سيفتح صفحة جديدة، وسجلاً آخر لكل فرد يقوم على نسيان الماضي ، وان المحاسبة ستكون من الآن فصاعداً ، فيجازي في هذه الصفحة المحسن ولو كان عدواً قديماً ، ويؤاخذ المسيء ولو كان قريباً .

(د) دستور الحاكم والمحكومين : مهمة الحاكم ان يسوس الناس بما اعطاه الله ويحميهم ، ومن حقّه عليهم الطاعة ومن حقهم عليه ان يقيم العدل بينهم .

(هـ) صلاح الرعية في صلاح الراعي: وذلك بأن تعينوهم بدعواتكم وحبكم واخلاصكم ففي صلاحهم صلاح امركم .

(و) تهديد : لم يقف عند وعيده بل أتبعه بالإنفاذ ، لا يخذل الراغبين في الطاعة ، ولا يهادن مخالفي القوانين .

خصائص الخطبة :

١ — التأليف المحكم الواضح في ذلك الترتيب المنطقي ، فهو ينطلق من معنى الى معنى ، ومن جزء الى جزء في تسلسل مترابط الحلقات .

ففي الجزء الاول: وقف موقف المُتَّهِم لانتهاك حرم الاسلام وعنفهم بشدة تمهيداً لأخذهم بحد السيف .

وفي الجزء الثاني : وقف موقف القاضي المشرِّع فبين لهم انهم احدثوا اموراً منكرة ، فأوجد لهم عقوبات رادعة .

وفي الجزء الثالث : وقف موقف الحاكم النزيه المرتفع عن التعصب .

وفي الجزء الرابع : وقف موقف السياسي المحنك يبث الدعوة للأمويين.

وفي الجزء الخامس : وقف موقف الشرطي الذي ينتظر تنفيذ العقوبة في المحكوم عليهم .

٢ — النزعة الدينية ، ولا غرو فالدين كان ذا سلطان على العقول والقلوب « كأنكم لم تقرأوا كتاب الله » .

٣ — القوة المنبثة في الفاظها ومعانيها ، وتنوع اساليبها بين الشدة واللين ، والإخبار والإنشاء . ويكفي ان تعلم انها انقضت على رؤوس البصريين انقضاض الصواعق .

٤ — الاقتباس من مأثور الكلام ومن القرآن الكريم .

٥ — الشرح والتفصيل لأنه يرسم السياسة والمنهج الذي سيسير عليه .

٦ — العناية بالصناعة اللفظية ، ولكن مع عدم إغراق فيها ، في فقرات قصيرة مسجوعة أحياناً ، مرسلة أحيانـاً أخرى ، كما اشتملت على بعض الصور الخيالية .

٧ — اتخاذ الخطبة أداة للعقوبة والتوبيخ .

رابعا - خطبة الولاية

في أهل الكوفة

للحجاج بن يوسف

أنَا ابنُ جَلاَ وَطَلاعُ الثّنَـــايا مَتَى أضعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُوني (١)
صَلِيب العُودِ مِنْ سَلفي نِزَار كَنَصْلِ السّيفِ وضّاحُ الجَبين

أمَا واللهِ إنّي لأحْمِلِ الشّر بحَمْله ، وأحذوه بِنَعْلِه (٢) ، وأجْزيه بمِثله (٣) ، وإني لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً مُتَطاوِلة ، ورُءوساً قَدْ أيْنَعَتْ وَحَانَ قِطَافها وإني لَصَاحبُها ، وكأني أنْظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللّحى . ثم قال :

هذا أوَان الشّدِّ فاشْتَدي زِيَمْ قَدْ لَفّهَا الليلُ بِسَوّاقٍ حُطَم (٤)
لَيْس بِراعي إبلٍ وَلاَ غَنَم ولا بِجَزّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ (٥)

ثم قال :

قَد لَفهَــا الليــلُ بِعَصْلبيِّ أرْوعَ خَرّاجٍ مِنَ الدّويّ (٦)
مُهَاجرٍ لَيْسَ بأعْرَابيّ (٧) .

---

(١) ابن جلا : الصبح أو الامر الظاهر ، الثنايا ، الاراضي الخطرة .
(٢) حذا النعل : قطعه على مثال ، والمعنى أنه يرد الشر بمثله .
(٣) وأجزيه بمثله : هذه جمل مترادفة معناها أنه يجزي الشر بالشر .
(٤) الشد : العدو . زيم : اسم فرس او ناقة . الحطم : الراعي الذي يظلم الماشية .
(٥) الوضم : ما يقطع عليه اللحم .
(٦) العصلبي : القوي . الاروع : الذكي . الدوي : الفلاة .
(٧) مهاجر ليس بأعرابي : أي يخرج من البدو الى المدن ، والاعرابي ساذج ، ليس في تجربته كأهل المدن .

ثم قال :

قَدْ شَمَّرتْ عَنْ سَاقِهَا فشُدّوا وَجَدّت الحرب بكم فجِدوا(١)
والقوسُ فيها وترٌ عُرُدّ مثلُ ذِراع البَكرِ أو أشَدّ(٢)
لابدَّ مِمّا لَيْسَ مِنْه بُدّ

إني والله يا أهْلَ العِراق . ومعدنَ الشِّقاق والنِّفاق، ومساوئ الأخلاق ما يُقَعْقَع (٣) لي بالشّنان ، ولا يُغمز جانبي كتَغْمَازِ التّين(٤) ولقد فُرِرْتُ(٥) عن ذكاء ، وفتشت عن تَجْربة وأُجريت إلى الغاية القصوى وإنّ أميرَ المؤمنين — أطال الله بقاءه — نثرَ كِنانتَه(٦) ثم عجم(٧) عيدَانها فوَجدني أمَرّها عوداً ، وأشدّها مكسراً فوَجّهَني إليكم ورماكم بي لأنكم طالما أوْضَعْتم(٨) في الفِتنَ واضطجَعْتم في مراقد الضلال وسَنَنْتم سُنَنَ الغَيّ ، وَايم الله لألْحونّكم لْحوَ (٩) العصا ، ولأقرعنّكم قرع المَرْوة(١٠) ولأعصبنكم عَصْب السّلَمة(١١) ولأضربنّكم ضَرْبَ غرائب الإبل ، فإنكم لكأهْلِ قرية كَانَتْ آمنةً مُطْمئنةً يأتيها رِزْقُها رغداً مِنْ كل مَكان فكَفرَت بأنعُم الله فأذاقَها اللهُ لِبَاسَ الجوعِ والخوفِ بمَا كَانُوا يَصْنَعون .

---

(١) شمرت عن ساقها : اشتدت .
(٢) عرد : شديد ، البكر : الناقة الفتية .
(٣) القعقعة : تحريك الشيء الصلب مع الصوت . والشنان : القربة البالية وهم يحركونها اذا أرادوا حث الابل على السير : مثل يضرب لمن يروعه ما لا حقيقة له . وقد تمثل به معاوية من قبل .
(٤) التين معروف . والمعنى لست ضعيفاً .
(٥) فررت : اختبرت . (٦) الكنانة : جعبة السهام .
(٧) عجم : عجم العود عضه ليعرف صلابته أو لينه .
(٨) لحو : لحا العصا : قشرها . (٩) أوضعتم : أسرعتم .
(١٠) المروة : الحجر . (١١) السلمة : شجر كثير الشوك .

إني والله لا أعِدُ إلا وفيت ، وَلا أهُم إلا أمضيت(١) ، ولا أخلُق (٢) إلا فريت (٣) ، وإيّاي وهذه الزّرافات (٤) والجماعات وقالاً وقيلاً ، وما يقولون ، وفيم أنتم وذاك ، والله لتستقيمُنّ على الحق أوْ لأدعنّ لكل رجل منكم شُغْلا في جسده ، من وجدته بعد ثالثةٍ مِنْ بَعْثِ المهلّب سَفكْتُ دمه ، وانتهبت ماله ، وهدمت منزله .

صاحب الخطبة ،

هو الحجاج بن يوسف الثقفي رجل الحرب والخطابة ، والجبّار الداهية ، ولد الحجاج بالطائف سنة ٤١ هـ وكان أبوه مُعلّماً ، ولما شب اتخذ صناعة أبيه فراح يعلم الصبيان القرآن .

وكان مولده في أول ظهور الدولة الأموية ، وكانت الثورات والفتن تهزّ أركان الدولة وتشغل بال الحاكمين ، وكان الحجاج عندما اكتمل شبابه شرطياً في شرطة روح بن زنباع قائد جيوش عبد الملك بن مروان فأشار القائد على عبد الملك أن يولي الحجاج رياسة جيشه الذي وجّهه ليقضي على ثورة الجزيرة ، فأظهر شدة وعنفاً وأدرك الخليفة حاجته الى ظهير كالحجاج فأطلق يده فيما ندبه له ، اختاره لقتال عبدالله بن الزبير بالحجاز، وقد بلغ من قلة تحرج الحجاج انه ضرب الكعبة بالمنجنيق، وكان عبدالله قد تحصّن بها ، وتمّ له النصر على ابن الزبير فقتله، فما كان من عبد الملك إلا أن كافأه بتوليته على الحجاز ، ثم ولاه بعد ذلك العراق ، فدخل الكوفة في اثني عشر راكباً وتوجه إلى المسجد ، وهنا صعد المنبر معتماً بعمامة قد غطّى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفه ، مُتَنَكِّباً قوسه ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فجلس لا يفوه بكلمة، واستصغر الحاضرون شأنه،

---

(١) أمضيت : أنفذت .

(٢) أخلق : أقدر .

(٣) فريت : قطعت . (٤) الزرافات : الجماعات .

فقال احدهم : قبَّح الله بني أميَّة حيث تستعمل مثل هذا على العراق، حتى قال عُمير بن صابىء البُرْجُمي : ألا أحْصبه لكم ؟ فقالوا : امهل حتى ننظر ما يصنع ، وعند ذلك وقف الحجاج وحسر اللثام عن فيه والقى هذه الخطبة الشهيرة ، وبعد حياة حافلة بعشرات الالوف من الضحايا توفي الحجاج وله من العمر ٥٤ سنة ، وعلى الرغم مما يؤخذ عليه من إذلال الامة العربية وسلب حريتها ، فان للرجل مع ذلك يداً على اللغة العربية ، اذ بدل لغة الدواوين من الفارسية الى العربية، ورأى الكتابة العربية غامضة لخلوها من النقط والشكل ، فأمر بوضع هذين ، كذلك نسخ عدة نسخ من مصحف سيدنا عثمان وبعث بها الى المدن ، وله الفضل في جمع أشتات المسلمين وتوحيد كلمتهم تحت راية واحدة.

تحليل الخطبة :

بدأ الحجاج بالفخر بنفسه والتعريف بشخصيته ، فكان ذلك مدخلاً للموضوع مناسباً للمقام، ثم سلك في خطبته مسلك زياد بن ابيه في التهديد حتى قالوا : تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس، ثم هدّد العاصين وتوعد الثائرين فأورد صوراً مرعبة : (إني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها ، وإني لأنظر الى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى) ثم انتقل الى وصف اهل العراق وصفاً قاسياً فرماهم بالشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق ، ثم عاد ليفخر بنفسه ، وفي مقام الفخر صوّر نفسه تصويراً بليغاً ، ثم انثنى ليتوعدهم وينذرهم في قالب من القسم والتوكيد « وايم الله لألحونكم لحو العصا ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل » ولم يكتف بما ضمن الخطبة من تهديد مرعب بل اراد ان يستوثق من تأثير خطبته في الناس فقال لغلامه : اقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين فما وصل الى قوله : سلام عليكم حتى ردّ السلام كل من بالمسجد .

خصائص الخطبة :

١ — النزعة الدينية . ولم يكن الحجاج ليشذّ عن القاعدة المتبعة في

خطب الاسلام فقال : « اللّهم أرني الغيّ غيّاً فأجتنبه وأرني الهدى هدياً فأتبعه » وهذا يدلنا على ان الناس كان لهم من تعاليم الاسلام الوازع القوي .

٢ — الاستشهاد بآي القرآن وقصصه وتعاليمه وتضمين خطبته بعض الشعر والامثال وما الى ذلك من مأثور الكلام المقتبس .

٣ — قصر الجمل ، وقصر الجمل اوقع في النفس وأشدّ تأثيراً .

٤ — اشتمالها على الالفاظ الضخمة ، والاساليب الرائعة ، والمعاني البليغة ، وقوة السبك (فرقرقة الدماء ، والعجم للعود ،واللحو للعصا ، والقرع للمروة) كل هذا يدلنا على مدى اختياره للألفاظ الضخمة .

٥ — تنوع الاساليب بين الإخبار والإنشاء والشدة والإنكار .

٦ — توشية الكلام بالصناعة ، كتشبيه اهل العراق بأهل قرية كانت آمنة مطمئنة فكفرت بأنعم الله ، وتشبيههم بالإبل والعصي والمروة ، ثم استعمال الاستعارات ومراعاة النظير مثل : إني لأرى رؤوساً أينعت وحان قطافها .

٧ — كان موقفه موقف تهديد ، لذلك كرر عبارات التهديد،وأكثر من المترادفات : (لأحمل الشر بحمله ، واحذوه بنعله،واجزيه بمثله) .

٨ — القوة : فهذه الخطبة وسابقتها من نوع الخطب (السياسية الادارية) وهي التي يلقيها الحكام في الحضّ على الطاعة والتحذير من مغبة المروق ، ومن ثمّ يكون طابعها القوة ؛ اذ تتكتل فيها شوامخ اللفظ والمعنى لتؤدي الدور الاكبر في الارهاب والتهويل ، ومظاهر القوة الإغراب الكامن في تلك الاشعار التي ضمنها الخطبة ، هذا الى غرابة بعض الالفاظ والمعاني .

خصائص الأسلوب الخطابي

أظهر مميزات الأسلوب الخطابي التي يمكن أن نستنبطها من هـذه النماذج السابقة بعد ان عرفنا بخصائص كل خطبة على حدة هي :

١ — الجزالة ذات الرنين ، والعبارات الرائعة ذات الصدق، والمعاني الواضحة الملائمة لمستويات السامعين .

٢ — التنوع في الأسلوب، يراوح فيه الخطيب بين الإخبار والإنشاء، والتنوع بين الضمائر وهو يصور بهذا التنويع التيارات الانفعالية المختلفة التي تمر في نفوس السامعين .

٣ — الاستعانة بالكلمات الموحية المؤثرة وبالعبارات المسجوعة والمزدوجة في غير تكلف .

٤ — الإكثار من استخدام الجمل القصيرة التي تسعف السامعين في المعنى وتنفي عنهم الملل .

٥ — التكرار واستعمال المترادفات واستخدام الازدواج كما أوضحنا في خطبة زياد ، وذلك لتثبيت الأفكار في الذهن .

٦ — الاستشهاد بآيات القرآن والاقتباس من الامثال والحكم ومأثور الكلام ، فرب بيت أو آية غيَّرت وجه الرأي عند السامعين .

٧ — الترتيب المنطقي في التفكير كما أوضحنا في خطبة الرسول والإمام علي ، فيجب في الخطبة أن تبنى بناءً محكماً بحيث يكون الجزء التالي مبنياً على سابقه .

٨ — وحدة الموضوع بأن يكون للخطيب غرض محدود يوجه إليه كل خطبته .

موضوعات للبحث

١ — بيّن أهم الخصائص التي تميزت بها الخطابة في العصر الأموي، وأوضح الأسباب التي دعت إلى ازدهارها .

٢ — قال الشعبي :
« ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا تمنيت أن يسكت، خوفاً من ان يسيء إلا زياداً فإنه كلما اكثر كان أجود كلاماً » .
ناقش هذا القول مظهراً الدعائم التي قام عليها فن زياد الخطابي.

٣ — وقف زياد في القسم الأول من الخطبة موقف القاضي المشرع ، وفي القسم الثاني وقف موقف الحاكم النزيه العادل ، وفي القسم الأخير وقف موقف السياسة الداهية المحنك — وضح .

٤ — بطش لسان الحجاج بأهل العراق قبل ان يبطش بهم سيفه .
اشرح هذا القول وبين الدور البلاغي وعناصر القوة في خطبة الحجاج.

٥ — ذكر علي بن أبي طالب بين الخطباء وذكر بين الحكماء فإلى أي الفنين تجده اقرب في آثاره ؟ — ناقش .

للمطالعة

١ — البيان والتبيين الجزء الثالث : للجاحظ
٢ — تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الأول : لجرجي زيدان .
٣ — التوجيه الأدبي : لطه حسين وآخرين .
٤ — العقد الفريد الجزءان الرابع والخامس : لابن عبد ربه .
٥ — الفن ومذاهبه في النثر : لشوقي ضيف .
٦ — فن الخطابة : لإيليا حاوي .
٧ — كتاب الخطابة لأرسطو : ترجمة الدكتور إبراهيم سلامة

٨ — الخطابة : لنقولا فياض .
٩ — الروائع : لأفرام البستاني (علي بن ابـي طالب).
١٠ — النقد والبلاغة الجزء الثاني : للدكتور مهدي علام وآخرين .
١١ — جمهرة خطب العرب : لاحمد زكي صفوت .
١٢ — نهج البلاغة : شرح الإمام محمد عبده .
١٣ — سيف بني مروان : للدكتور عبد الرزاق حميده .
١٤ — الدهاة الثلاثة : لعمر ابـي النصر .
١٥ — الخطابة : للدكتور احمد الحوفي .

الفصل السادس

التراجم والسير

فن التراجم :

هو ذلك الفن الذي يتناول التعريف بحياة رجل او اكثر ، وهو نوعان : ذاتي ، وغير ذاتي ، واولها ما يتناول فيه الكاتب تاريخ حياته ، والثاني ما يعرّف فيه بسواه ، وهذا الفن قديم لدى كثير من الأمم ، ومن اقدم ما وصل الينا ما كتبه « بلوتارك » الروماني في كتابه (سير عظماء اليونان والرومان) ، ولكنّ اوروبا لم تعرف هذا الفن الاّ في عصور متأخرة ، في حين انه ازدهر ازدهاراً عظيماً لدى العرب منذ العصور الاسلامية الاولى ، وكانت سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام اول ما عُني به مؤرخو العرب منذ نهاية القرن الاول الهجري ، ومن اشهر هذه السّير : السيرة النبوية لابن هشام المتوفي ٢١٨ ه.

وتعدّدت الوان التراجم والسير في الادب العربي وكثرت كثرة عظيمة ، فمن تراجم ذاتية الى سير شخصية الى كتب الطبقات من شعراء ونحاة ومحدثين واطباء ، واذا كانت اوروبا لم تعرف فن التراجم الذاتية قبل ظهور صمويل بيبيس الانكليزي (١٦٣٣ — ١٧٠٣) م الذي كتب يومياته ومذكراته ، وعدّ كتابه اول خطوة في التراجم الذاتية ، فان كتاب (الاعتبار) للأمير الفارس العربي المسلم اسامة بن منقذ (٤٨٨ — ٥٨٤ ه) يعدّ اسمى ما كتب في التراجم الذاتية ، وقد ظهر قبل ان يكتب بيبيس كتابه بعدة قرون ، كما ظهر في الوقت نفسه للشاعر عمارة اليمني كتاب (النكت العصرية) الذي ترجم فيه لنفسه ، كما ترجم لسواه من الوزراء والحكام في أخريات العصر الفاطمي .

وقد ظهر لدى العرب كتب في التراجم تعدّ نموذجاً عالياً في الدقة التاريخية

ككتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ ه،و (معجم الادباء) لياقوت المتوفي سنــة ٦٢٦ ه ، وغيرهما من عشرات كتب التراجم ، واعيان القرون الهجرية ، تلك التي زخرت بها المكتبة العربية.

على ان فن التراجم قد تطور لدى الغربيين منـذ القـرن الثامن عشر واستحدثت اساليب جديدة توائم روح العصر وتطوره وتفكيره ، واشتهر من المعاصرين (اميل لودفيج) في ترجمته لبسمارك ونابليون ،و(اندريه موروا) في ترجمته لشيلي وبيرون ودزرائيلي وغيرهم .

وقد تأثر الادب العربي بهذا التطور الذي حدث لدى الغربيــين ، ونزع كتابنا المتأخــرون الى التعمق والتحليــل ودراسة الاسباب والعلل والنتائج،كما نرى في العبقريات التي كتبها العقاد عن للنبي محمد عليه السلام وكبار الصحابة،وكما نرى فيما كتبه الدكتور هيكل في سيرة ابـي بكر وعمر بن الخطاب ، وفيما كتبه طه حسين في سيرة عثمان ، والإمام علي.

ولعل من اوائل التراجم الذاتية لدى المحدثين العرب ما كتبه الاستاذ محمد كرد علي عن نفسه حين الف كتابه (خطط الشام) ثم ما كتبه الدكتور طه حسين عن حياته في (الايام) ، وما كتبه احمد امين في كتابه (حياتي) ، وما كتبه لطفي السيد في كتابه (قصة حياتي) .

نماذج تطبيقيّة

أولا – الايام

لطه حسين

المثل العليا :

انك يا ابنتي لساذجة سليمة القلب ، طيبة النفس ، انت في التاسعة من عمرك ، في هذه السن التي يعجب فيها الاطفال بآبائهم وامهاتهم ، ويتخذونهم مثلاً عليا في الحياة ، يتأثرونهم في القول والعمل ، ويحاولون ان يكونوا مثلهم في كل شيء ، ويفاخرون بهم اذا تحدثوا الى اقرانهم اثناء اللعب ، ويخيل اليهم انهم كانوا اثناء طفولتهم كما هم الآن مثلاً عليا ، يصلحون ان يكونوا قدوة حسنة ، واسوة صالحة ، أليس الامر كما اقول ؟ ألست ترين ان اباك خير الرجال واكرمهم ؟ ألست ترين انه قد كان كذلك خير الاطفال وأنبلهم ، ألست مقتنعة انه كان يعيش كما تعيشين او خيراً مما تعيشين ؟ ألست تحبين ان تعيشي الآن كما يعيش ابوك حين كان في الثامنة من عمره ؟ ومع ذلك فان اباك يبذل من الجهد ما يملك ، ويتكلف من المشقة ما يطيق وما لا يطيق ، ليجنبك حياته حين كان صبياً ، لقد عرفته يا ابنتي في هذا الطور من اطوار حياته ، ولو أني حدثتك ما كان عليه حينئذ لكذبت كثيراً من ظنك ، ولخيبت كثيراً من أملك ، ولفتحت الى قلبك الساذج ، ونفسك الحلوة ، باباً من ابواب الحزن ، حرام ان يفتح اليها وانت في هذا الطور اللذيذ من الحياة ، ولكني لن احدثك بشيء مما كان عليه ابوك في ذلك الطور الآن . لن احدثك بشيء من هذا حتى تتقدم بك السن قليلاً . فتستطيعي ان تقرئي وتفهمي وتحكمي ، ويومئذ تستطيعين ان تعرفي ان اباك أحبك حقاً ، وجدّ في إسعادك حقاً ، ووفق بعض التوفيق الى ان يجنبك طفولته وصباه . نعم ! يا ابنتي لقد عرفت اباك في هذا الطور من حياته ، واني لأعرف ان في قلبك رقة وليناً ، واني لأخشى لو حدثتك بما عرفت

من أمر أبيك حينئذ ان يملكك الإشفاق وتأخذك الرأفة فتجهشي بالبكاء .

لقد رأيتك ذات يوم جالسة على حجر ابيك وهو يقص عليك قصة (اوديب الملك) وقد خرج من قصره بعد ان فقأ عينيه لا يدري كيف يسير ، وأقبلت ابنته « أنتيجون » فقادته وأرشدته . رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصة مبتهجة من اولها ثم اخذ لونك يتغير قليلاً قليلاً ، واخذت جبهتك السمحة تربدّ شيئاً فشيئاً . وما هي الا ان أجهشت بالبكاء وانكببت على ابيك لثماً وتقبيلاً ، واقبلت امك فانتزعتك من بين ذراعيه ، وما زالت بك حتى هدأ روعك ، وفهمت امك وفهم ابوك ، وفهمت انا أيضاً انك إنما بكيت لانك رأيت (أوديب) الملك كأبيك مكفوفاً لا يبصر ، ولا يستطيع أن يهتدي وحده فبكيت لأبيك كما بكيت (لأوديب) . نعم ! وإني لأعرف ان فيك عبث الأطفال وميلهم الى اللهو والضحك ، وشيئاً من قسوتهم ، وإني لاخشى يا ابنتي إن حدثتك بما كان عليه ابوك في بعض أطوار صباه أن تضحكي منه قاسية لاهية وما احب ان يضحك طفل من أبيه ، وما احب أن يلهو به او يقسو عليه ، ومع ذلك فقد عرفت اباك في طور من أطوار حياته استطيع ان احدثك به دون ان أثير في نفسك حزناً ، ودون ان أغريك بالضحك أو اللهو .

عرفته في الثالثة عشرة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف الى دروس العلم في الازهر ، ان كان في ذلك لصبي جدٍ وعملٍ[١] . كان نحيفاً شاحب اللون مهمل الزي ، أقرب الى الفقر منه إلى الغنى ، تقتحمه العين اقتحاماً في عباءته القذرة (وطاقيته) التي استحال بياضها إلى سواد قاتم . وفي هذا القميص الذي يبين من تحت عباءته ، وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفي نعليه الباليتين المرقعتين ، تقتحمه العين في هذا كله ، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثة ، وبصر مكفوف ، وواضح الجبين ، مبتسم الثغر ،

(١) اي انه كان في ذلك الوقت صبي جد وعمل . فان هي المخففة من الثقيلة ، واذا خففت بطل عملها ، ولكن معناها وهو التوكيد باق ، وتثبت لام في الجملة بعدها لتدل على ذلك .

مسرعاً مع قائده إلى الأزهر . لا تختلف خطاه ، ولا يتردد في مشيته . ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى عادة وجوه المكفوفين . تقتحمه العين . ولكنها تبتسم له ، وتلاحظه في شيء من الرفق حين تراه في حلقة الدرس مصغياً كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاماً ، مبتسماً مع ذلك لا متألماً ولا متبرماً ، ولا مظهراً ميلاً إلى لهو ، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشرئبون الى اللهو .

عرفته يا ابنتي في هذا الطور ، وكم أحب لو تعرفينه كما عرفتُه إذاً تقدرين ما بينك وبينه من فرق . ولكن أنى لك هذا ، وأنت في التاسعة من عمرك ترين الحياة كلها نعيماً وصفواً .

عرفته ينفق اليوم والاسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً . يأخذ منه حظه في الصباح ، ويأخذ منه حظه في المساء ، لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجلداً ولا مفكراً في أن حاله خليقة بالشكوى . ولو أخذت يا ابنتي من هذا اللون حظاً قليلاً في يوم واحد لاشفقت امك، ولقدمت إليك قدحاً من الماء المعدني .. ولانتظرت ان تدعو الطبيب .

لقد كان أبوك ينفق الاسبوع والشهر لا يعيش إلا على خبز الأزهر ، وويل للأزهريين من خبز الأزهر . إن كانوا ليجدون فيه ضروباً من القش ، وألواناً من الحصى ، وفنوناً من الحشرات .

وكان ينفق الاسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا في العسل الأسود ، وأنت لا تعرفين العسل الاسود . وخير لك ألا تعرفيه.

كذلك كان يعيش ابوك جاداً مبتسماً للحياة والدرس، محروماً لا يكاد يشعر بالحرمان، حتى إذا انقضت السنة وعاد الى أبويه، واقبلا عليه يسألانه كيف يأكل ؟ وكيف يعيش ؟ أخذ ينظم لهما الأكاذيب ، كما تعود أن ينظم لك القصص فيحدثهما بحياة يحياها كلها رغد ونعيم، وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حب الكذب ، إنما كان يرفُق بهذين الشيخين ، ويكره أن ينبئهما بما هو فيه من حرمان ، وكان يرفق بأخيه الأزهري ،

ويكره ان يعلم أبواه انه يستأثر دونه بقليل من اللــين ، كذلك كانت حياة ابيك في الثالثة عشرة من عمره .

فان سألتني كيف انتهى الى حيث هو الآن ؟ وكيف اصبح شكله مقبولاً لا تقتحمه العين ولا تزدريه ؟ وكيف استطــاع ان يهيء لك ولاخيك ما انتما فيه من حياة راضية؟ وكيف استطاع ان يثير في نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة ، وان يثير في نفوس آخرين ما يثير من رضا عنه ، وإكرام له وتشجيع ؟ ان سألت كيف انتقل من تلك الحال الى هذه الحال ، فلست أستطيع ان اجيبك ، وانما هناك شخص آخر هو الذي يستطيع هذا الجواب فسليه ينبئك .

أتعرفينه ؟ انظري اليه ، هو هذا الملك القائم الذي يحنو على سريرك اذا امسيت لتستقبلي الليل في هدوء ونوم لذيذ ، ويحنو على سريرك اذا اصبحت لتستقبلي النهار في سرور وابتهاج ، ألست مدينة لهذا الملك بما انت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار ! لقد حنا يا ابنتي هذا الملك على ابيك فبدله من البؤس نعيماً ، ومن اليأس املاً ، ومن الفقـر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفواً .

صاحب النموذج :

هو طه حسين ولد سنة ١٨٨٩ باحدى قرى مديرية المنيا بصعيــد مصر ، وكف بصره وهو صغير ، ولما حفظ القرآن ، دخل الأزهر ، وظهرت ميوله الادبية وهو بعد طالب في الأزهر ، وتتلمذ على : سيد ابن علي المرصفي تلميذ الشيخ محمد عبده ، واتصل بأحمد لطفـي السيد من رجال حزب الامة ، ولما اسست الجامعــة المصرية القديمـة في سنة ١٩٠٨ التحق بها ودرس على المستشرقين الاجانب الذين كانوا يحاضرون فيها ، ونال شهادة الدكتوراه منها سنة ١٩١٤ ، وان لم ينل شهــادة العالمية من الأزهر ، وارسل في بعثة الى فرنسا ، وعاد منها بعد ان نال شهادة الدكتوراه في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، واشتغل حيناً بالصحافة ، ولما ضمت الجامعة الأهلية الى الحكومة في سنة ١٩٢٦ عين بهــا استاذاً

للأدب العربي ، ثم صار عميداً لكلية الآداب بالجامعة، ثم عين مستشاراً فنياً لوزارة التربية والتعليم ، فوزيراً لها، وشغل بجانب هذا عدة مناصب، فهو لا يزال رئيس اللجنة الثقافية بالجامعة العربية ، ورئيس لجنة النشر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، ورئيس نادي القصة ، وعضو مجمع اللغة العربية .

ولطه حسين عدد كبير من المؤلفات من اشهرها : ذكرى ابي العلاء الذي نال به درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية، وفي الأدب الجاهلي ، وحديث الاربعاء ، ومن حديث الشعر والنثر ، والفتنة الكبرى ، وحافظ وشوقي، واوديب ، والايام، وعلى هامش السيرة ، وغيرها من الكتب المؤلفة والمترجمة .

ولطه حسين اسلوب اشتهر به ، يعمد فيه الى السهولة والتكرار والتصوير ، وموسيقية العبارة ، ونقاوة الالفاظ ، ومن اشهر كتبه : كتاب الايام الذي سجل فيه تاريخ حياته ، وهو في جزءين، وهو الذي اخترنا منه النموذج السابق .

التعليق :

يوازن طه حسين بين طفولته حين كان في الثامنة من عمره ، وبين طفولة ابنته ، ويبين ان ابنته تنظر اليه كما تنظر كل طفلة الى ابيها « وكل فتاة بأبيها معجبة » تنظر اليه نظرة فخار ، وتظن ان طفولته كانت مثل طفولتها هنية ناعمة، ويبين لها انه هيأ لها هذه الطفولة السعيدة، وانها لو عرفت طفولة ابيها على حقيقتها لحزنت كل الحزن ، وانه لن يحدثها عن هذه الطفولة وهي في هذه السن حتى تدرك كيف جد ابوها في إسعادها، ويروي حادثة بكت فيها ابنته حينما قص عليها قصة « اوديب الملك » وقد خرج من قصره بعد ان فقأ عينيه تكفيراً عن الإثم الذي ارتكبه ، وحتى يخف البلاء عن قومه ، ولم يعد يدري كيف يسير وأقبلت ابنته تقوده وترشده، وروى لها طرفاً من حياته ايام كان تلميذاً في الأزهر ، زري الهيئة متسخ الثياب ليس له الا طعام واحد في

الصباح والمساء ، يتناوله طوال السنة ، ومع هذا كان طالباً مجداً مقبلاً على درسه ، ولم يؤثر في نفسيته طعامه ولا خبز الأزهر ، ولا العسل الاسود الذي لم يكن له غذاء غيره ، وأنه كان يكذب على والديه حين يعود إلى القرية حتى لا يعرفا بما يعانيه من حرمان .

وقد عزا هذا التغيير الذي طرأ عليه في زيه وفي حياته وفي مكانته التي أثارت الحسد عند قوم والرضا عند آخرين إلى زوجته التي يرعاها وترعاه.

وقد قص طه حسين على طريقته قصة حياته، مصوراً طفولته وشبابه، عامداً الى الصراحة وإن ساقها بضمير الغائب ، وهي تعطي صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية والعقليـــة في ريف مصر في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل العشرين وكيف كان الجهل والخرافات يسيطران على عقلية الشعب ، كما يبين طرفاً من طريقة التعليم في ذلك الوقت وبخاصة تعليم الاطفال ، وقد كان صادقاً زاهيـــاً في تصويره هذا ، وان اكثر من التكرار واطالة الكلام في المعنى الواحد ، وفي النموذج الذي بين أيدينا نلحظ هذا التكرار .

وقد كانت عاهة طه حسين وكف بصره ذات أثر واضح في هذه القصة ، فلم يتورع عن ذكر ما يعانيه طفل مكفوف البصر مثله ، وهو في النموذج الذي قدمناه يذكر كيف أشفقت عليه ابنته حين ذكر لها كيف فقد « أوديب » بصره وقادته ابنته ، كما يعترف صراحة بفضل زوجته عليه ، وكيف بدلت حياته ، وسهرت عليه ، وهذا وفاء منه لهذه الزوجة .

ولعلنا نلحظ نقاوة ألفاظه وسهولة عبارته ، وموسيقية جمله، وبراعته في قص القصة ، وقد اخبرنا في أول هذه المذكرات كيف كان شغوفاً بالقصص من كل نوع في طفولته ، يسمعها من الاطفال في المكتب ، ومن الشاعر الذي يسمر لديه الرجال ، ومن اخوته حين كانوا يعودون من المدرسة ، فلا عجب اذا برع في قص القصة على طريقته الخاصة ، ومن بسط الجملة، وتكرار الألفاظ، وتعاور الجمل المختلفة على المعنى الواحد.

ثانيا – حياتي

لأحمد أمين

المعلم الثاني :

.. ولكن أعظم ما كسبته في الاسكندرية تعرفي بشخصية قوية كان لها أثر كبير في نفسي — كتب اليه قريب لي يوصيه بي خيراً — كان استاذاً للغة العربية في مدرسة رأس التين الثانوية ، تخرج في دار العلوم ، وكنت في الثامنة عشرة ، وكان في نحو الثانية والأربعين ، وكان طويل القامة ، معتدل الجسم ، جميل الوجه ذا لحية سوداء ، نظيفاً في ملبسه ، أنيقاً في شكله من غير تكلف ، اتصلت به فأعجبني من أول نظرة ، واتخذني اخاً صغيراً ، واتخذته اخاً كبيراً ، وكان متديناً ، بل كان صوفياً ، يعتنق (طريقة النقشبندية) ، وهي طريقة ليس لها شعائر ولا تقاليد ظاهرة ، فالنقشبندي اذا ذكر الله ، ذكره بقلبه لا بلسانه ، وأول دروسها رسم الله بنور على القلب ، ورفع اللسان الى الحلق حتى لا يتحرك ، ولم أعرف تصوفه الا بعد مدة طويلة من معاشرته ، وكان مع تصوفه هذا — واسع الافق حر الفكر ، لا يدين بشيء من الخرافات والأوهام ، ويؤيد الشيخ محمد عبده في دعوته الى الإصلاح ، وكان في مدرسته محبوباً محترماً ، يجله زملاؤه ، ورؤساؤه وتلاميذه ، أبي النفس عزوفاً عن الصغائر ، يعتمد في دروسه مع تلاميذه على الحب لا على الإرهاب ، ويترك لهم الحرية في الحديث والنقد الى درجة تشبه الفوضى. ولم يكن في دروسه مدرس لغة عربية فحسب ، بل مدرس تفكير ونقد للمجتمع ، وما شئت من شؤون الحياة ، حتى كان تلاميذه يسمونه الشيخ الإنكليزي ، لترفعه وحريته وصدق قوله وسعة تفكيره .

صحبته فكان مكملاً لنقصي ، موسعاً لنفسي ، مفتحاً لأفقي ، كنت

اجهل الدنيا حولي فعرفنيها ، وكنت لا اعرف الا الكتاب فعلمني الدنيا التي ليست في كتاب ، وكان ابي وشيوخي يعاملونني على اني طفل ، فعاملني على اني رجل ، فملأ فراغي ، وآنس وحدتي ، كنا نلتقي في كثير من الايام بعد العصر ، او يوم الجمعة ، انتظره في محل قريب من بيتي ، وكان هذا المحل ايضاً غريباً هو محل عم احمد الشربتلي ، يصنع شراب الليمون كأحسن ما يصنع ، ويعتني بنظافته ما امكن ، فكان مضرب المثـــل في النظافة والاتقان ، وحانوته صغير لا يتسع لأكثر من خمسة عشر شخصاً ، فاذا كثروا جلسوا امامه ، وهو مع ذلك يدعي الأدب والشعر ، ويتصيـــد من يجلس عنده من الأدباء ليسمعهم شعره . واذا حار في قافية انتظر من يتوسم فيه الشعر فيسأله إكمال القافية . ويقرأ في الجرائد كل يوم ما فيها من شعره ، فاذا لم يفهم بيتاً انتظر العصر حتى يأتي بعض زبائنه الادباء فيسألهم ويناقشهم في معناه وهو ذواق حساس اذا استثقل احـداً لم يمكنه من الجلوس في حانوته . واقصى ما يستطيع ان يمكنه من شرب ليمونه ، ولذلك كان محله مجمعاً للظرفاء والادباء ، فاذا مر علي صديقي الاستاذ أخذني وذهبنا الى مقهى فخم ، اما في محطة الرمل او (كازينو) المكس ، او نحو ذلك من الاماكن الممتازة حيث الموسيقى احياناً وجودة الهواء ومنظر البحر . وقد يكون معنا رجل او اثنان من بعض اصدقائه ، والاستاذ في الطريق ، او في المقهى او حيث كان معنا ، يحدثنا حديثاً طريفاً ممتعاً ينقد المجتمع نقد خبير ، ويتحدث في شؤونه الزراعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وهو في كل ذلك كثير التجارب ، واسع الاطلاع ، طلق اللسان ... وعلى الجملة فلئن كان ابي هو المعلم الاول ، فقد كان هذا الاستاذ هو المعلم الثاني ، انتقلت بفضله نقلة جديدة ، وشعرت اني كنت خامداً فأيقظني ، وأعمى فأبصرني ، وعبداً للتقاليـــد فحررني ، وضيق النفس فوسعني .

صاحب النموذج :

هو أحمد امين ولد بالقاهرة سنة ١٨٨٦ بحي المنشية بالقرب من قلعة صلاح الدين ، وكان ابوه من علماء الازهر يشتغل بالتدريس فيه ، وكان ذا عيلة

كثير الاولاد وكان احمد رابع اولاده الذكور،وقد حفظ القرآن صغيراً، ثم حار في امره أيدخل الأزهر ام يدخل المدارس المدنية ؟ ، ثم أدخله المدرسة المدنية واخذ في الوقت نفسه يعده لدخول الأزهر ،واخيراً دخل الازهر بعد ان مكث بالمدرسة المدنية اربع سنوات ، ومكث بالأزهـــر مدة ولم يتم به تعليمه ، واشتغل بالتدريس في المدارس وهو بعد حدث السن ، ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعي اول تأسيسها فتخرج فيها سنة ١٩١٢ وعين بها مدرساً بنفس السنة ، ثم نقل الى القضاء والمحاكم وتنقل في بلاد كثيرة ولما ضمت الجامعة المصرية القديمـــة الى الحكومة عـــين مدرساً بكلية الآداب سنة ١٩٢٦ ، وانتخب عميداً لها سنة ١٩٢٩، وبعد سنتين من عمادتها استقال ورجع الى الاستاذية حتى احيل الى المعاش سنة ١٩٤٦ وكان في سنة ١٩٤٥ قد انتدب مديراً لادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ، فأسس الجامعة الشعبية .وفي سنة ١٩٤٩ وبعد إحالته الى المعاش عين مديراً لادارة الثقافة بالجامعة العربية وتوفي في ٢٠ مايو عام ١٩٥٤.

كانت حياته جداً خالصاً تبعاً لنشأته وبيئته ، وقد درس الانكليزية وهو مدرس بمدرسة القضاء الشرعي ، وكثرت قراءاته ، واسس مـــع لفيف من اخوانه لجنة التأليف والترجمة والنشر في سنة ١٩١٤ ، وكان لها رسالة عظيمة في نشر الثقافة وتوجيه التعليم بمصر ، كـــما انشأ مجلة الثقافة سنة ١٩٣٨ .

وترك احمد امين عدداً كبيراً من المؤلفات ابتدأها بترجمـــة كتاب (مبادىء الفلسفة) وكتاب (الاخلاق) ومن اشهرها كتب : فجـر الاسلام ، وضحى الاسلام ، وظهر الاسلام ، تلك الكتب التي بسط فيها اصول الثقافة الاسلامية ، ومنها كتابه (فيض الخاطر) في عـدة اجزاء حوى مقالاته الكثيرة،وقد جمع بعضها فيما بعد في كتابه (زعماء الاصلاح الاجتماعي) .

ويمتاز أحمد امين بغلبة عقله على فنه ، فهو يهتم دائماً بالفكـــرة ، وتراه يتناول الحديث عن ابسط الاشياء ، فاذا هو يعمل فيه فكره فيولد منه افكاراً كثيرة لا تخطر بالبال ، ويرجـع هذا الى نشأته الازهرية ،

والى احتكاكه بأستاذه عاطف بركات ناظر مدرسة القضاء الشرعي . وهو ليس بصاحب اسلوب ، فلا يهتم بالعبارة واناقتها ،وتغلب عليه الواقعية، وقلّ في عباراته الخيال ، وكثيراً ما يلجأ الى الكلمات العامية والأعجمية، مع انه كان عضواً في مجمع اللغة العربية .

التعليق :

في هذا النموذج يبين احمد امين اثر الصحبة الطيبة في نفسه وعقله وخلقه ، وانه افاد من صديقه الكبير اكثر مما افاد من الكتب،واستطرد كما رأيت الى ذكر طريقة النقشبندية ، والى حانوت (أحمد الشربتلي) ومن كان يجتمع عنده من الادباء .

ويبين لنا السر في انه افاد من صديقه ، لانه عامله معاملة الرجل (وهو في الثامنة عشرة) بينما كان والداه واساتذته يعاملونه معاملة الطفل، ولذلك شعر برجولته مع صديقه فأحبه واقبل عليه بنفس متفتحة ليفيد منه ، وقد كانت فيه مزايا كثيرة اثرت في نفس احمد امين الشاب .

ولعلك لاحظت صراحته ، واستطراده الكثير فهو لا يقصر الكلام على نفسه ولكن يتناول ما يمر به في اثناء سرد قصة حياته ، ولعلك لاحظت كذلك انه لا يتأنق في اساوبه ، وانما يكتب كما يتحدث الشخص المثقف ، كتابة اشبه بأسلوب الصحافة منها بالأسلوب الادبي ، وهكذا كان في كل ما يكتب ..

ولقد احببنا ان نختار نصاً من كتاب (حياتي) لا يغلب عليه اللون المحلي (المصري) ولا تكثر فيه الكلمات العامية ، فجئنا بهذا النموذج .

واحمد امين نشأ في حي شعبي بالقاهرة ، وعلى الرغم من قراءاته الكثيرة في الأدب واللغة نراه يميل الى اللغة الشعبية ، والى اللغة التقريرية التي لا خيال فيها ولا طلاوة عليها ، ولعل هذه الصفة الاخيرة جاءت من دراسته لكتب الفقه واشتغاله بالقضاء وقراءته للقوانين وايثاره الفكرة على العبارة وبعده عن التكلف في طبعه وعاداته واسلوب كتابته .

ثالثا – محمد

لحسين هيكل

عظمة الحق :

وبادأهم (اي قريش) محمد بذكر آلهتهم وكان من قبل لا يذكرها، وعابها وكان من قبل لا يعيبها ، هنالك عظم الأمر على قريش ، وحز في صدورهم ، وبدأوا التفكير الجدّ في امر هذا الرجل ، وما هو لاق منهم ، وما هم لاقون منه ، لقد كانوا الى يومئذ يسخرون من قوله ، وكانوا اذا جلسوا في دار الندوة او حول الكعبة وأصنامها فجرى ذكره على لسانهم لم يُثر اكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم ، اما وقد حقر من شأن آلهتهم وسَخر مما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم ونال من هُبَل ومن اللات والعُزّى ، ومن الاصنام جميعاً ، فلم يبق الامر موضع استخفاف وسخرية ، بل اصبح موضع جد وتدبير . او لو اتيح لهذا الرجل ان يؤلب عليهم اهل مكة ، وان يصرفهم عن عبادتهم فماذا تؤول اليه تجارة مكة ؟ وماذا يكون مقامها الديني ؟

ولم يكن عمه ابو طالب قد دخل في دين الله ، ولكنه ظل حامياً لابن اخيه قائماً دونه ، معلناً استعداده للدفاع عنه ، لذلك مشى رجال من أشراف قريش الى ابي طالب وفي مقدمتهم سفيان بن حرب فقالوا: « يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه احلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما ان تكفه عنا ، واما ان تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه » فردهم ابو طالب رداً جميلاً . ومضى محمد يشتد في الدعوة الى رسالته ، ويزداد لدعوته اعواناً ، وائتمرت قريش بمحمد ، ومشوا الى ابي طالب مرة اخرى ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وكان انهد فتى من قريش واجمله، وطلبوا اليه ان يتخذه ولداً ويسلمهم محمداً فأبى. ومضى محمد في دعوته،

ومضت قريش في ائتمارها ثم ذهبوا الى ابي طالب مرة ثالثة وقالوا له: « يا ابا طالب، ان لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله واياك حتى يهلك أحد الفريقين » وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً باسلام ابن أخيه ولا خذلانه . ماذا تراه يصنع ؟ بعث الى محمد فقص عليه رسالة قريش ثم قال له : « فابق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق » .

وأطرق محمد إطراقة وقف إزاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتاً لا يدري بعدها ما اتجاهه ، في الكلمة التي تفترّ عنها شفتا هذا الرجل حكمه على العالم : أهو يظلّ في الضلال يُمد له فيه فتطغى المجوسية على النصرانية المتخاذلة المضطربة ، وترفع الوثنية بباطلها رأسها الخرِف الأفن ، ام هو يضيء أمامه نور الحق وتعلن فيه كلمة التوحيد وتحرر فيه العقول من رق العبودية والقلوب من أسر الأوهام ، وترتفع فيه النفس الانسانية لتتصل بالملأ الأعلى. وهذا عمه كأنه ضَعُف عن نصرته والقيام معه فهو خاذله ومُسْلمه ، وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافاً لا يقوْون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعُدّة والعَدد. اذن لم يبق له دون الحق الذي ينادي الناس باسمه نصير، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عدة .

ليكن ! إن الآخرة خير له من الأولى ، وليؤد رسالته ، وليدع ما أمر به ربه . ولخير له ان يموت مؤمناً بالحق الذي اوحي اليه من ان يخذله أو يتردد فيه، لذلك التفت الى عمه ممتلىء النفس بقوة ارادته وقال له : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على ان أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

يا لعظمة الحق ! وجلال الايمان به ! اهتز الشيخ لما سمع من جواب محمد ، ووقف كذلك مبهوتاً أمام هذه القوة القدسية ، والارادة السامية

فوق الحياة وكل ما في الحياة . وقام محمد وقد خنقته العبرة مما فأجأه به عمه ، وان لم تدر بنفسه خالجة ريب في السبيل الذي يسلك ، ولم تك الا لحظة اهتز فيها وجود ابي طالب متحيراً بين غضبة قومه ، وموقف ابن اخيه حتى نادى محمداً : أن أقبل ، فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن اخي فقل ما أحببت، فوالله لا اسلمك لشيء تكرهه ابداً .

وافضى أبو طالب الى بني هاشم ، وبني المطلب بقول ابن اخيه وبموقفه ، وحديثه عنه يتدفق بروعة ما شهد وجلال ما شعر به ،وطلب اليهم ان يمنعوا محمداً من قريش ، فاستجابوا له جميعاً الا ابا لهب ، فانه صارحهم العداوة ، وانضم الى خصومهم عليهم ، وهم لا ريب قد منعوه متأثرين بالعصبية القومية وبالخصومة القديمة بين هاشم وبني أمية.

لكن العصبية لم تكن وحدها التي حفزتهم الى الوقوف هذا الموقف من قريش كلها في أمر له من جلال الخطر ما للدعوة الى نبذ دينهم والخروج على عقائدهم التي وجدوا عليها آباءهم ، بل كان موقف محمد منهم وشدة ايمانه برأيه بينهم ودعوته الناس بالحسنى الى عبادة الواحد الأحد ، وما كان شائعاً يومئذ بين قبائل العرب جميعاً من ان لله ديناً غير دينهم الذى هم عليه ، مما جعلهم يرون حقاً لابن أخيهم محمد ان يعالن الناس برأيه كما كان يفعل امية بن ابي الصلت، وورقة بن نوفل وغيرهما ، فان لم يكن محمد على الحق — وذلك ما لا ثقة لهم به — فسيظهر الحق من بعد وسيكون لهم من مجده نصيب ، والا يكن على الحق فسينصرف الناس عنه كما انصرفوا من قبل عن غيره، ثم لن يكون لدعوته من الأثر ان يخرجوا على تقاليدهم ، وان يسلموه لخصومه كي يقتلوه .

صاحب النموذج :

هو محمد حسين هيكل وَلد في (كفر غنام) بمديرية الدقهلية سنة ١٨٨٨. وكان لأسرته بعض الوجاهة والثراء، ودخل كتاب القرية صغيراً، وظل به حتى حفظ ثلث القرآن ، وفي السابعة من عمره جاء الى

القاهرة ، والتحق بالمدرسة الابتدائية ثم الثانوية ، وأتم دراسته في مدرسة الحقوق حتى نال اجازتها في سنة ١٩٠٩ . وظهر ميله الى الادب منذ كان طالباً في المدارس الثانوية ، واتصل بالاستاذ احمد لطفي السيد محرر (الجريدة) فأفسح له من جريدته ، فكانت مجالاً لمران قلمه ، وتلقى عنه دروسه في السياسة والاجتماع والأخلاق .

ولما تخرج في الحقوق رأى ان يتم تعليمه في فرنسا فسافر الى باريس، وحصل منها على الدكتوراه في الاقتصاد السياسي سنة ١٩١٢ ، وكتب وهو في باريس (قصة زينب) وكتب عليها بقلم (فلاح مصري) ولم يظهر اسمه ، ولما عاد الى مصر اشتغل بالمحاماة فترة من الزمن ، ولما انشأ حزب الاحرار الدستوريين جريدة السياسة في سنة ١٩٢٢ تولى تحريرها، ثم اخرج السياسة الاسبوعية وكانت تحمل علم التجديد الأدبي، ويحرر فيها جمهرة من اعلام الكتاب الذين تثقفوا ثقافة غربية ، وفي هذه الحقبة اخرج هيكل مجموعة من كتبه عن : جان جاك روسو ، وفي اوقات الفراغ ، وعشرة ايام في السودان ، وتراجم مصرية وغربية، وفي سنة ١٩٢٣ نشر كتابه : ثورة الادب ، ثم كتابه : محمد عليه السلام ، واتبعه بكتابين عن الخليفتين ابي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وشغل هيكل مركز الوزارة مراراً ، وعين رئيساً لمجلس الشيوخ في سنة ١٩٤٥ ومع اشتغاله بالسياسة ومهام الوزارة لم يكن يترك الكتابة آناً في التاريخ وآناً في القصة ، وله بعض قصص فرعونية كإفروديت ، وراعية هاتور ، وله قصة كتبها سنة ١٩٥٥ بعنوان (هكذا خلقت) وختم حياته بنشر مذكراته السياسية وتوفي في ديسمبر سنة ١٩٥٦ .

تأثر هيكل في دراسته بمذاهب الادب الغربية ، ونراه احياناً يرقى بأسلوبه ، واحياناً يغلب عليه الجانب الصحفي ، وله في النقد آراء طيبة وجهت ادبنا الحديث وجهات عديدة ، وقصته زينب فيها عامي كثير ، وكانت تغلب عليه الروح المصرية فيما يكتب في التاريخ والادب ، وقد

تأثر بآراء المستشرقين في بعض ما كتبه في التاريخ الاسلامي ، وان حاول في كتابه (محمد) ان ينحو في دراسته نحواً علمياً صحيحاً ، فناقش كثيراً من آرائهم الباطلة ودحضها .

التعليق :

في هذا النص يروي هيكل بأسلوبه ، معتمداً على روايات التاريخ وكتب السيرة ، موقفاً من اهم المواقف التي غيرت مجرى التاريخ، ذلك الموقف الذي لم يتزعزع فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، حين ائتمرت به قريش ، ونالوه بالإيذاء ، وارادوا من عمه ابي طالب ان يخلي بينهم وبينه بعد ما تعرض لآلهتهم وآبائهم وسفه احلامهم وبعد ان هددوا عمه ابا طالب كذلك ، وطلب من النبي ان يبقي على نفسه وعلى عمه والا يحمله من الامر ما لا قبل له به ، ولكن رد النبي كان رد صاحب الرسالة الذي يمضي في ادائها قدماً حتى يؤديها حق ادائها او يقضي دونها ، فلو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره على ان يترك هذا الامر حتى يظهره الله او يهلك في سبيله ما تركه ، وقد راع هذا الثبات وتلك العقيدة ابا طالب ، وملك عليه هذا الموقف العظيم كل قلبه ، فما كان منه الى ان اصر على حمايته له ، بل دعا عشيرته ان تتضافر معه .

وقد صور هيكل بنظرة تحليلية هذا الموقف .. وصور صاحب المبدأ والرسالة لا تهزه الحوادث ، وبين كل الظروف التي احاطت بالموقف وكلها ظروف مثبطة ولكن العقيدة ارتفعت على كل هذا . وقد كان بارعاً حين صور التاريخ يمسك انفاسه وينتظر لحظة حتى يتبين الكلمة التي يفوه بها محمد، ايسير الفساد الى غايته ام يرتفع نور الحق ... هذه الدراسات التحليلية للتاريخ الاسلامي جديدة في ادبنا الحديث ، وهي تخالف طريقة القدماء المعتمدة على السرد والقصص من غير تحليل وتمحيص .

واسلوب هيكل ليس اسلوب الأديب المحلق على اجنحة الخيال، ولكنه أسلوب المؤرخ الذي يرتفع بعبارته الى مستوى الاحداث ، والذي يعنى بالحقائق أهم عناية، ولا يجعلها تضيع في ثنايا العبارات المموهة بزخارف الحياة.

رابعاً - في الطفولة

لعبد المجيد بن جلون

عندما زرت جدتي ذات مساء أصرّت على أن أقضي عندها الليلة ، فاعتذرت بأنني لا أستطيع أن أنام الا اذا وضعت رأسي على وسادتي ، فأرسلت جدتي في طلب الوسادة السحرية التي اخذ هذا الطفل المدّلل على نفسه الا يضع رأسه الا عليها ، ومنذ تلك الليلة ظلت تلك الوسادة تتبعني الى اي مكان اقضي فيه الليل خارج المنزل .

فلما كنت على أهبة مغادرة البلاد ، هذه المغادرة الطويلة ، وذهبت الى محطة القطار ، كنت احمل معي تلك الوسادة فلم يكن من المستغرب ان يدسها والدي تحت ذراعي ، وقد ادهشني ذلك حقاً ، ولكنني قدرته ، ان والدي يودعني وهو يمعن في احترام صبيانياتي .

وعندما هممت باختراق الباب بعد ان ودعت اهل المنزل استوقفتني جدتي الباكية وقذفت في وجهي ببعض الملح — ألا رحمها الله — لقد ارادت بذلك ان تضمن رؤيتي مرة اخرى ، ولكن الموت خيب آمالها ، وسارت القافلة في الظلام حول غلام على عتبة الشباب لتودعه عند محطة القطار ، هذه المعتمة المعزولة المتواضعة. وتأخر القطار فأخذ الغلام يتأمل — ووسادته تحت ابطه — وجه والده ، وتذكر الحرقات التي عاناها وهو يودع اهل المنزل واستغرب لاستهانته بالقدرة على مغادرة البلاد لاول مرة ، واستسخف الفرح الذي انتابه حينما سمح له بالسفر كما استسخف الجزع الذي اصابه منذ بضعة ايام حينما كادت السلطة تحول بينه وبين ما يريد ، وكانت مئات الخواطر تسطر في نفسه ، وكان المستقبل يتراقص امام مخيلته بصور شتى تتباين تمام التباين عن الصور التي

تكشفت عنها الايام بعد ذلك ، كل هذا وعيناه لا تكادان تبارحان وجه والده القلق الحزين الذي كان ينظر الى ابنه يبتلعه البعاد دون ان يعرف على وجه التدقيق المصير الذي ينتظره .

وبالرغم من كل ما كان يصطرع في نفسه — في اثناء تلك الليلة الغامضة من ليالي اكتوبر — من آمال وعواطف ونزعات ومخاوف وتوجسات ، ظلت عيناه مركزتين في ذلك الوجه الوقور ، واستطاع ان يلحظ بالرغم من كل ما كان يعانيه ان وراء السحنة الصارمة قلباً يخفق بشدة .

وكان جزعه يزداد مع مرور الثواني والدقائق وقد ضاعف منـــه الظلام الكئيب الذي كان يكتنف المحطة المنزوية ، ويكاد يخنق مصباحها اليتيم الشاحب فاستسلم لهذه الخواطر المبهمة التي يستسلم لها الناس عادة وهم على وشك اقتحام باب المجهول ، هذه الخواطر الغريبة التي يتكاتف فيها الجزع مع الاطمئنان ، والخوف مع الرجاء .

وفجأة تردّد في سكون الليل صفير ، ثم بعد ذلك بدأ دخان ابيض في سحمة الليل تتخلله شرارات حمراء ، فتردد في قلبي صفير مثـــل الصفير ، وتطايرت شرارات مثل الشرارات ، فقد تبينت في الظلام الحالك شبح القاطرة وهي تزفر لتكبح من جماحها ، حتى تتمكن من الوقوف عند المحطة .

لن انسى ما حييت الدمعتين اللتين ترقرقتا في عيني والدي وهـــو يعانقني العناق الاخير ، فلقد تحولتا بعد ذلك الى جوهرتين ترصع بهما ذكرياتي ، وما كدت اصعد انا ورفيقي الى الغرفة حتى عادت القاطرة تستجمع انفاسها ، وسمع هديرها كما لو كانت تعجم عود قدرتها على فصم كل العرى التي تربطني بالماضي ، ثم تزحزحت ، ثم سارت ثم انطلقت في الظلام مولولة صارخة لا تلوي على شيء .

* * *

كان رفيقي يجلس في مواجهتي يبادلني الحملقة مـــدة طويلة من الوقت ، كان كل واحد منا يلقي التبعة على زميله في هذه الورطة التي

وقعنا فيها طوعاً واختياراً وكان القطار يزحف بنا نحو مدينة وُجدَة في قلب الظلام ، ثم تذكرت انني كنت قد اشتريت استعداداً لتحمل هذه المأساة علبة من لفافات التبغ ، ففضضتها واشعلت واحدة منها ، بثثت دخانها احزاني ، وما تزال اخواتها تتـالى بين اصابعي الى الآن حزناً على طفولة عبثت بها المقادير ، فقطعت اوصالها وجعلت آخرها لا يدُل على اولها كما لا يدل اولها على آخرها ، وجـاءت اليوم تفتح صفحة جديدة مجهولة ومحفوفة بالاخطار .

وانطلقت من فمي سحابة من الدخان وتراقص خلالها مستقبل مجهول ، وقد استسلمت لما انتابني من خواطر مبهمة ، وبينما كانت اللفافات تتالى تتالت معها آلاف من الخواطر استمرت طول الليل ، وكنت اسنـد رأسي الى ظهر المقعد فاذا بعيني تقعان على الوان غريبة تماوج وتحاول ان تهتك ستار الظلام ، انه الفجر ، وهذه قمم الجبال العتيدة تنفض عن نفسها الدجى ، لتتخذ لهـا مكاناً بين السحب ، وتلك الوديان العميقة تزحزح عن نفسها الظلام لتبدو جلية رائعة ، لقد تنفس الفجر بألوانه ونسماته وانغامه وهمسـاته واندائه ، يا إلهي كيف تستعبد بلاد هذا فجرها !

* * *

سرني في مدينة « وجدة » ان اشعر ان مقاليدي قد اصبحت بيدي فليس هناك من يستطيع ان يأمرني بهذا او ينهاني عن ذلك ، فأممت مع زميلي متجراً من متاجر الملابس وابتعنا بذلة إفرنجية ، وبذلك تمكنت من تحقيق رغبة طالما جاش بها صدري وعجزت عن تحقيقهـا وهي ان اخلي هذه الثيـاب الفضفاضة التي حبست فيها منـذ رجعت من مانشستر واعود الى ثيابي القديمة فلقد اشاعت في طفولتي الكهولة ، ولما غادرنا المتجر كنا حقيقة مخلوقين جديدين تحررت عضلاتهما وخفت خطواتهما ، وشعرت انا بأني اعود الى الصبا ولا اغادره .

* *

قضينا يومنا في وجدة وحان ان نفارقها ، فلما وصلنا الى محطة القطار

سلمنا شرطة المدينة الى رجال الجزائر ، واذا بي اجدني امام شرطي ضخم ، اخذ يتأملني ساخراً ، وكأنه يقارن نفسه بين ضخامته وضآلة بنيتي ، وبدا عليه من اللحظة الاولى انه عثر على صيد ثمين ، وما كادَ يسألني سؤالا او سؤالين حتى تأكدَ من ان فراسته لا تخطيء ، ذلك اني توجست منه شراً فوضعت يدي على صدري اتحسس مكان قصيدة وطنية كانت في جيبي ، فقد خيل إليّ ان فراسته لمستها ، وان هذه الجثة المترامية الاطراف اعمق غوراً من ان يفوتها شيء ، فهالني الامر وبدا عليّ الاضطراب .

وما كاد الرجل — عفا الله عنه — يتأكد من صدق فراسته حتى دس يده في صدري دساً ثم اخرجها بورقة ، فقلت في نفسي وقد ازداد اضطرابي (لعن الله الشعر والشياطين التي اوحت بقرضه) ثم استرقتُ النظر الى الورقة فاذا بها قائمة كتب ، لقد اخطأ الرجل القصيدة ، ثم أتى بعض التصرفات التي دلت على ان عقله في مثل كثافة جسمه ، واخذ يسألني ، ما معنى هذا ؟

— قائمة باسماء كتب .

— كتب ؟ كفى تدليساً .

وسرعان ما انتفخت اوداجه وبدا عليه الاعتزاز بالنفس والتأكد من انه وضع يده على مجرم ضليع في السياسة ، فأصدر الي امره بان اتبعه الى مكتب الرئيس ، وماذا املك إلا ان اطيع !

ولما كنت اعلم ان الامر جد كلّ الجد ، وان القائمة قد تفضي الى القصيدة ، وان القصيدة قد تخلق بعض العراقيل لان فيها تعبيراً عن الرأي ، فقد تمكنت من تمزيقها وانا اتبعه بين الجماهير الى مكتب الرئيس. اخترق الباب الزجاجي فاخترقته من خلفه خفيف الحركة بعد ان تخلصت من العبء الثقيل واصبحت على استعداد لأن اسير وراءه الى الجحيم ليحاسبني واذا بنا نقف معاً امام مكتب رئيسه ، وكان رجلا ظريفاً حقاً ، فقد رفع الى الشرطي عينين مثقلتين بالسهاد واخذ يتأمل كلامه

في حزن حينما مضى الشرطي يتحدث عن خطورة الموقف وعن اضطرابي في اداء اقوالي ، وعن استغلالي لعدم فهمه اللغة العربية فأقحمت لـه شيئاً غريباً اسمه (قائمة كتب) وهذا في رأيه كاه تدليس يخفي وراءه جريمة شنعاء ضد الوجود الفرنسي ، وقد استمع الرئيس في كآبة الى كلامه ، ثم نقل نظرته الحزينة من جسم الشرطي الضخم الى جسمي النحيل ، ومن جسمي النحيل الى جسم الشرطي الضخم ، ثم اخذت الكآبة تنحسر عن وجهه قليلا قليلا الى ان تحولت الى ابتسامة ساخرة فأخذ الرئيس — طيّب الله ذكره — الورقة من يده ليدفع بها في وجهه وهو يتأفف .

شعر الجندي ان رئيسه اهانه اهانة لا تخفى على غلام ، اما انا فان ضخامته تضاءلت حتى اصبح من الصعب علي ان اراه ، فلما فتح الباب ليخرج شعرت برغبة ملحة في ان اتحداه ، فاقتربت منه وربت على كتفه لانبهه ان في يده ورقة يحسن به ان يرجعها الي لانها ملكي .

وثارت ثائرة الرجل وهمّ بأن يعصرني في كفه عصراً ولكن جبروته ذهب بعد ان رأيت رئيسه ينهره ، فظل يحاورني ، ثم دفع الي بالورقة فمزقتها وعدوت الى القطار بعد ان حملت الوسادة والحقيبة واستطعت ان ألحق به واقذف نفسي فيه الى جانب زميلي الذي نجا من هذا العنت .

* * *

قضينا اليوم الثاني في مدينة وهران ضيفين على شيخ مراكشي ، وكان متفانياً في خدمتنا ، ولما تجولنا في المدينة بدت كما يبدو الفرنسي حين يلبس الطربوش ، او العربي حين يلبس القبعة .

ورأى الشيخ المراكشي ان يستمد من تجاربه الطويلة في الحياة ما ينصحنا به فأوصانا بان نشتري تذكرة لركوب سطح الباخرة ، ثم نستأجر غرفة احد البحارين نقضي فيها الليلة بين وهران ومرسيليا ، وبذلك نوفر عدداً من الفرنكات وندخرها لما قد يصادفنا في الطريق ، وكانت الفكرة بالنسبة لحالتي المالية رائعة .

ولم نجد اية صعوبة في الاتفاق مع البحار كما اوصى الشيخ ، وما كادت الباخرة تمخر عباب البحر حتى طاب منا ان نتبعه في احـــد الدهاليز ، وبدا الامر مريباً منذ اللحظة الاولى ، فعلى باب الدهليز صدمتنا لافتة كتب عليها بالحرف الكبير (ممنوع الدخول لغير البحارة) وما كدنا نخترقها حتى استدار الينا البحار بسحنته الذابلة وطلب منا ان نسير على رؤوس اصابعنا ثم رفع سبابته الينا قائلا في همس (هشهش).

وما كدنا ندخل الغرفة ونلقي عليها نظرة حتى اهاب بنا البحار ان نشق الارض او نتخذ سلماً في السماء لان المفتش على الابواب ، فاختفينا لنظهر على سطح السفينة ، لا ادري كيف ؟

ولما تقدم الليل استقر الرأي على ان نغامر مرة اخرى ونعود الى الغرفة لننام وما كدنا ندخلها حتى عرفنا اننا لسنا وحدنا فقد كانت في الغرفة امتعة اخرى ولكننا صعدنا الى اسرتنا غير آبهين فان هذه الامتعة ليست امتعة المفتش على كل حال ، ولم تنته المفاجآت عند هذا الحد ففي الوقت الذي بدأ النوم يداعب اجفاننا انطلق صوت الحاكي فجأة فلما نهضنا لنرى ماذا حدث رأينا فتاة فرنسية في لبسة المتفضل ترقص وحدها في الغرفة وكانت دهشتنا بالغة ، ولكن النوم عاد يداعب اجفاننا فاستسلمنا له على نغمات الحاكي ورقصات الفتاة .

ثم من مرسيليا الى الاسكندرية ومن الاسكندرية الى القاهرة وبوصولي الى محطة القاهرة وصلت الى أولى محطات شبابي بعد ان غادرث آخر محطات الطفولة .

صاحب النموذج :

هو عبد المجيد بن جلون الذي ولد في الدار البيضاء سنة ١٩١٩ م وقضى طفولته في انجلترا ثم عاد الى المغرب والتحق بالمدرسة الابتدائية فالثانوية ، ثم رحل الى مصر وفيها حصل على الليسانس من كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٣ ودبلوم في الصحافة من نفس الجامعة سنة ١٩٤٥م .

نشأ عبد المجيد في بيئة متحررة جعلته يستشعر بؤس امته في اعماق نفسه وهو بعد طفل وما كـاد ينتهي من حياته التعليمية حتى شارك في تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٧ م وشغـل فيه منصب السكرتير من سنة ١٩٥٠م الى سنة ١٩٥٦م وهو في هذه الفترة لم ينس وطنه بل ناضل دونه بقلمه ولسانه ، وتعتبر هــذه الفترة اخصب ايام حياته من حيث النتـاج الادبي ففيها كـتب عشرات القصص والقصـائد والمقالات كما مثل المغرب في مؤتمر باندونج .

ولما نال المغرب استقلاله سنة ١٩٥٦ م عاد الى وطنه في نفس السنة حيث تولى رئاسة تحرير جريدة العلم لسان حال حزب الاستقلال ، ثم تركها الى وزارة الخارجية التي ظل يعمل بها حتى عين في سنة ١٩٥٨ وزيراً مفوضاً لبلاده ، فسفيراً في دولة الباكستان وما يزال بهذا المنصب الى اليوم .

واشهر آثار ابن جلون ، هي في المجموعة (مارس استقلالك) ، وله في التاريخ (هذه مراكش) ، واشهر قصصه المطبوعة : في الطفولة ، ووادي الدماء . وابن جلون من شعراء المغرب المبدعين الذين يدعون الى التجديد في الشعر العربي من حيث الموضوع ونظام القصيدة .

التعليق :

في الطفولة لعبد المجيد بن جلون كتاب حاول ان يكتب فيه سيرته في فترة من فترات حياته وهي (طفولته وصباه) وقد نشرها في مجلة (رسالة المغرب) سنة ١٩٤٩ و ١٩٥١ ، ثم جمع الجزء الاول منهـا وهو الخاص بطفولته في كتاب .

ويصف في هذه الترجمة صورة واضحة دقيقة لحياته في انجلترا وفي المغرب ، وفي مصر مسجلا كل ما اعتلج في نفسه من ضيق او سعـة وما كان يحس من مربيته وامه وجدته وابيه وجده ومدرسته ورفاقه من لين ورفق ، ثم هو يفي بالاحداث التاريخية التي ارتبطت بحياته في هذه

الفترة . والكاتب يسوق ذلك في بساطة واسلوب سلس يشوق القاريء، الى متابعته والاصغاء الى اعترافاته والبوح بما انطوت عليه نفسه ، ولكنه كان يظهر نفسه وحياته احياناً على حقيقتها فلا يحجبها حجاب او تظللها أغلفة كهذا المقطع الذي سقناه لك ، واحياناً كان يحجم قلمه عن الاعتراف بمكنونات فؤاده ولعله كان يرى فيها ما يرذل ذكره .

موضوعات للبحث

١ — لماذا غلب على ترجمة احمد امين لحياته الاسلوب العلمي ؟ حلل وناقش .

٢ — كانت تتمثل في ترجمة ابن جلون لحياته البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية في مختلف الاقطار التي حط بها رحالة وهي : انجلترا والمغرب ومصر ، وازن بين هذه البيئات موضحاً اثرها في شخصية ابن جلون .

٣ — (الايام) لطه حسين ترجمة صادقة لحياته بما فيها من خير وشر . ناقش ومثل .

٤ — هل ترى في كتاب (محمد) لهيكل جديداً اتى به في الطريقة والمنهج والتحليل ، عن كتب القدماء في السيرة (كسيرة ابن هشام)، مثلا ؟ ناقش .

للمطالعة

١ — الايام : للدكتور طه حسين
٢ — في المختبر : لمارون عبود
٣ — حياتي : للدكتور احمد امين
٤ — التراجم والسير : للدكتور شوقي ضيف
٥ — الترجمة الشخصية : « شوقي ضيف
٦ — محمد : للدكتور حسين هيكل
٧ — في الطفولة : لعبد المجيد بن جلون

الفصل السابع

النقد والأدب

ماهية النقد :

هو ذلك الفن الذي يتناول الاثر الادبي بالدرس لتقويمه وبيان ما فيه من جمال او قبح ، وتفسير نواحيه الفنية ثم الحكم عليها ، وهو قديم منذ كتب ارسطو كتابيه : (الشعر ، والخطابة) ووضع فيهما الاسس التي يجب ان يراعيها كل من الشاعر والخطيب .

والنقد الادبي عادة يكون لاحقاً للاثر الادبي ، ويقوم به مختصون ، وفي بعض الاحيان يقوم الاديب نفسه بتقديم اثره الادبي وتوضيح اتجاهاته الفنية والاسس التي سار عليها ، ولكل ناقد مقاييسه الخاصة التي ينظر بها الى الاثر الادبي ، وقد يختلف ناقدان في الحكم على اثر ادبي واحد ، تبعاً لاختلاف ثقافتهما وتخصصهما وذوقهما ، ونظرتهما المتباينة ، فقد يُنْظَر الى الادب على انه نتاج فني لا غير ، وقد ينظر الى اثره في الجمهور الذي وجه اليه هذا الادب ، وقد ينظر الى الاديب نفسه في سلبيته وايجابيته في ادبه ومجتمعه ، وهناك اديب يؤثر المعنى على اللفظ ، وآخر يهتم بالصياغة والموسيقى اكثر مما يهتم بالفحوى والمضمون.. الى غير ذلك من النظرات التي تتعدد بتعدد النقاد .

وقد تطور النقد الادبي بتطور الزمن ، واختلاف العصور وحظها من الثقافة والمدنية ، ونظرتها الى الاثر الادبي ، وقد نما هذا الفن لدى العرب من قديم ، وكان في اول الامر احكاما عامة يفضل فيها شاعر على شاعر لبيت قاله او لمهارته في موضوع من الموضوعات دون سواه

كقولهم : افضل الشعراء امرؤ القيس اذا ركب ، والنابغة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب .

ثم نما هذا الفن بعد الاسلام ، وقسم الشعراء الى طبقات تبعاً لشهرتهم وتجويدهم ، وتعدد موضوعاتهم ، ثم استمد النقد من الثقافات الاجنبية الطارئة ، ودخلت في تقديره قيم جديدة ، فأفاد من بلاغة الفرس ، وفلسفة اليونان ، ونراه في عصرنا الحديث يتأثر بمذاهب الادب الغربية ومقاييسها النقدية تأثرا كبيراً .

وفي اوروبا تطور النقد تبعاً للمدارس الادبية العديدة التي تمت في ظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية معينة من ؟ اتباعية (كلاسيكية) الى ابداعية (رومانتيكية) او واقعية او رمزية او سريالية ..

وليس المراد بالنقد التجريح والنيل من الادب او الاديب ، ولكن الكشف عن المحاسن والمساويء حين يسلط الناقد نظرته الفاحصة ، وذوقه المرهف على الاثر الادبي فيجاليه ويحاول ان ينفذ الى قرارة نفس الاديب يستخرج خبيئها ، بما اوتي من ثقافة عميقة ، وقوة قادرة على التحليل والموازنة والنقد والحكم الصحيح المبرأ من الهوى .

وللنقد اثر كبير في ترويج الاثر الادبي وشهرته ، او الازدراء به واماتته ، وهو مدرسة تربي الذوق لدى جماهير القراء وتعودهم النظرة الصحيحة الى الاثار الادبية ، اذا كان النقد سليماً ويقوم به من يحسنه .

ويختلف النقد باختلاف الاجناس الادبية ، فنقد الشعر الغنائي غير نقد الشعر التمثيلي ، ونقد القصة غير نقد المسرحية ، غير نقد المقالة ، غير نقد الخطبة ، فلكل من هذه الأجناس اسسها التي يجب ان يراعيها الناقد . كما يتناول الناقد كذلك المعاني التي يطرقها الكاتب وصلتها بالحقيقة والمجتمع ، والغرض الفني الذي يهدف اليه وطريقة عرض هذه المعاني وصياغتها ، ويرجعها الى مجموعة من النظريات والادراكات النفسية والاجتماعية التي تعتبر اسس ثقافته الفنية ، والى مجموعة من القيم التي تتغير من عصر الى عصر ، ومن بيئة الى بيئة ومن ادب الى ادب.

الى غير ذلك من الاعتبارات الكثيرة التي تتدخل في تقويم الاثر الادبي والحكم عليه .

عوامل ظهور الاثر الادبي :

لا يتاح للاثر الادبي حظ للظهور والشهرة الا اذا كان صادراً عن موهبة اصيلة ، فالادب المطبوع غير الادب المصنوع ، والاديب الذي يصدر عن موهبة خلاقة غير الاديب الذي يتكلف ادبه ، ويعانيه معاناة . بيد ان الموهبة وحدها لا تكفي ، بل لا بد لها من التنمية والتعهد والصقل وتزويدها بثقافة واسعة ، ودراسات متنوعة ، ولا سيما في عصرنا الحديث ، والاديب الذي يعتمد على موهبته وحدها سرعان ما تظهر ضحولة ادبه وتفاهته ، ومخالفته لاصول الفن وقواعده ، والاديب الذي يعتمد على ثقافته وحدها دون الموهبة يأتي ادبه مصنوعاً متكلفاً تنقصه الاصالة والابتكار . والاديب الذي يحيل ادبه الى علم ويعنى بالحقائق المجردة ويحشدها حشداً يخرج عن نطاق الادباء اذ لا بد من مراعاة ان الادب فن ، وان الغاية منه قبل كل شيء هي اللـذة الفنية لا افادة الحقائق العلمية .

وفوق كل هذا لا بد من اتساع تجاربه فلا يعيش في برج عاجي ، ولا يستمد ادبه وانفعالاته من الكتب وحدها ، والا جاء ادبه بعيداً عن الحياة والمجتمع ، لا يجد فيه الناس ما يتجاوب مع آمالهم وآلامهم ، ولا ما يعبر عن احاسيسهم وعواطفهم ، ومثل هذا الادب سرعان ما ينطفيء ويختفي ، اذ لا يجد له صدى في نفوس الناس ، ولا يفسح لهم في آفاق الحياة ، ويبعث فيهم الحماسة ، ويجدد آمالهم ، ويضمد جراحهم ، ويرسم لهم مستقبلا سعيداً ، ويصور لهم المثل العليا ، ويعالج مشكلاتهم ويصف لها الدواء الناجع .

والاثر الادبي الخالي من العاطفة لا ينفذ الى القلوب ، ولا يؤثر في النفوس فالاديب يجب ان يكون صادق الاحساس مترجماً عن انفعالاته ،

وعلى مقدار عاطفته وقوتها ، ومدى قدرته على ابراز هذه العاطفة بفنه واسلوبه يكون نجاح ادبه او اخفاقه .

والاثر الادبي خاضع للبيئة التي يظهر فيها ، ولكل بيئة طابعها وحظها من الثقافة والحرية والمدنية ، كما ان لكل بيئة مشكلاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية ، وكل هذه مؤثرات قوية في الادب يتنوع بتنوعها ، كما يتنوع باختلاف العصور ، واختلاف الادباء وامزجتهم وثقافتهم ومواهبهم ومقدرتهم الفنية .

المبنى والمعنى :

ويقصد بالمبنى اسلوب الكاتب وفنه ، وطريقة عرضه للحقائق التي يتناولها ، ولا يسمى الاثر ادباً الا اذا استوفى المبنى حظه من الجمال الفني ، وجاء طبقاً للاسس التي يقتضيها الجنس الادبي ، فالاب فن ، وكل فن صناعة .

الادب ينادي القلوب والعاطفة اولاً ، والعقل ثانياً ، وليس المعنى فيه مقصوداً لذاته . ولكن المقصود هو اللذة الفنية التي يصور الاديب فيها هذا المعنى . ولو كانت الحقائق المجردة والحقائق العلمية مقصودة لذاتها لتلمسناها في كتب الفلسفة والعلم فهي ثمة اوفى واحسن، والاديب الذي لا يهتم بأسلوبه وفنه ، وانما يعنى بمعانيه وحدها ، يتعمقها ويبرزها بأي لفظ تهيأ له ، يفقد ادبه طلاوته وجماله وقوة تأثيره في النفوس .

وقضية المبنى والمعنى قديمة اثارها نقاد العرب منذ عصر المعتزلة ، واثارها في عصرنا الحاضر كثير من نقاد العرب المحدثين الذين تأثروا بالثقافة الغربية ، وتثار اليوم باسم المذهب الواقعي ، وبعضهم يثيرها باسم الفن للفن .

وفي الحق ان المعنى وحده لا يقوم به الاثر الادبي ، كما ان المبنى وحده دون الاتيان بجديد من المعاني تغذي فكر القارىء والسامع لا يقوم به الاثر الادبي ، والادب الصحيح هو الذي يجمع بين جدة المعنى وطرافته ، وجمال المبنى وسلامته .

وهناك من يرى ان الاديب حر في المعاني التي يأتي بها ، وان الفن

وحده هو الذي يتحكم في الاثر الادبي دون نظر الى التقاليد والاخلاق ومصلحة المجتمع ، وهذا خطأ بيّن فاذا لم تكن رسالة الاديب تستهدف الحق والخير والجمال ، فان ادبه يكون معولا هداماً للامة ، او يكون هراء لا فائدة فيه .

والذين يتكلمون باسم (الواقعية) ويأتون بعبارات عامية ، او باسلوب سخيف لا طلاوة فيه ، ويصورون ابشع ما في المجتمع من رذائل ونقائص ، ينحرفون عن الادب ورسالته .

والشعراء الذين يحشدون القضايا الفلسفية والمنطقية في شعرهم يسلبون هذا الشعر ميزة من اهم مزاياه ، وهي اتجاهه نحو العاطفة والتأثير فيها ، ويأتي شعرهم قريباً من النثر ، والشعر لا يتحمل باوزانه وقوافيه وموسيقاه القضايا العلمية والفلسفية .

وكما ان العبارة يجب ان تكون رفيعة منتقاة الالفاظ ، جميلة التأليف ، رائعة الموسيقى ، تعتمد على ضروب الخيال ، فكذلك المعنى يجب ان يكون سامياً شريفاً لا مبتذلا ولا مرذولا ، ولا تافهاً ولا غليظا قبيحاً ، وكلما كان انسانياً عاماً كان ادنى الى الكمال .

نماذج تطبيقيّة

اولا - في الادب الجاهلي

لطه حسين

لغة امريء القيس :

واذا رأيت معنا ان كل هذا الشعر الذي يتصل بسيرة امريء القيس انما هو من عمل القصاص ، فقد يصح ان نقف معك وقفةً قصيرة عند هذا القسم الثاني من شعر امريء القيس ، وهو الذي لا يفسِّر سيرته ، وقد يتصل بها ولعل احقّ هذا الشعر بالعناية قصيدتان اثنتان :

الاولى : « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » .

الثانية : « ألا انعم صباحاً ايها الطّلل البالي » .

فاما ما عدا هاتين القصيدتين فالضعف فيه ظاهر ، والاضطراب فيه بين ، والتكلّف والاسفاف يكادان يلمسان باليد ، وقد يكون لنا ان نلاحظ قبل كل شيء ملاحظة لا ادري كيف يتخلص منها انصار القديم ، وهي ان امرأ القيس — ان صحت احاديث الرواة — يمنيّ ، وشعره قرشي اللغة ، لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه واعرابه ، وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ، ونحن نعلم — كما قدمنا — ان لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة اهل الحجاز ؟ بل في لغة قريش خاصة ؟ سيقولون : نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان ، وكان ابوه ملكاً على بني اسد ، وكانت امه من بني تغلب ، وكان مهلهل خاله ، فليس غريباً ان يصطنع لغة عدنان ، ويعدل عن لغة اليمن ، ولكنا نجهل هذا كله ، ولا نستطيع ان نثبته الا من طريق هذا الشعر الذي ينسب الى امريء القيس ، ونحن نشك في هذا الشعر ، ونصفه بانه منتحل .

واذاً فنحن ندور : نثبت لغة امريء القيس التي نشأ فيها ، بشعر امريء القيس الذي نشك فيه ، على اننا امام مسألة ليست اقل من هذه المسألة تعقيداً ، فنحن لا نعلم ، ولا نستطيع ان نعلم الآن اكانت لغة قريش هي اللغة السائدة في البلاد العربية ايام امريء القيس ؟ واكبر الظن انها لم تكن لغة العرب في ذلك الوقت ، وانها انما اخذت تسود في اواسط القرن السادس للمسيح ، وتمت لها السيادة بظهور الاسلام كما قدمنا .

واذاً فكيف نظم امرؤ القيس اليمني شعره في لغة القرآن مع ان هذه اللغة لم تكن سائدة في العصر الذي عاش فيه امرؤ القيس ؟ واعجب من هذا انك لا تجد مطلقاً في شعر امريء القيس لفظاً او اسلوباً او نحواً من انحاء القول يدل على انه يمني ، فمهما يكن امرؤ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع ان نتصور ان لغته الاولى قد محيت من نفسه محواً تاماً ، ولم يظهر لها اثر في شعره ؟ نظن ان انصار القديم سيجدون كثيراً من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة ، ونظن ان اضافة هذا الشعر الى امريء القيس مستحيلة قبل ان تحل هذه المشكلة .

على اننا نحب ان نسأل عن شيء آخر ، فامرؤ القيس ابن اخت المهلهل وكليب ابني ابي ربيعه — فيما يقولون — وانت تعلم ان قصة طويلة عريضة قد نسجت حول مهلهل وكليب هذين ، هي قصة البسوس ، وهذه الحرب اتصلت اربعين سنة — فيما يقول القصاص — وافسدت ما بين القبيلتين الاختين بكر وتغلب ، فمن العجيب الا يشير امرؤ القيس بحرف واحد الى مقتل خاله كليب ، ولا الى بلاء خاله المهلهل ، ولا الى هذه المحن التي اصابت اخواله من بني تغلب ، ولا الى هذه المآثر التي كانت لاخواله على بني بكر .

واذاً فأينما وجهت فلن تجد الا شكاً : شكاً في القصة ، شكاً في اللغة ، شكاً في النسب ، شكاً في الرحلة ، شكاً في الشعر ، وهم يريدون بعد هذا ان نؤمن ونطمئن الى كل ما يحدث به القدماء عن امريء

القيس . نعم نستطيع ان نؤمن ونطمئن لو ان الله قد رزقنا هذا الكسل العقلي الذي يحبب الى الناس ان يأخذوا بالقديم تجنباً للبحث عن الجديد ، ولكن الله لم يرزقنا هذا النوع من الكسل فنحن نؤثر عليه تعب الشك ، ومشقة البحث .

وهذا البحث ينتهي بنــا الى ان اكثر هذا الشعر الذي يضاف الى امريء القيس ليس من امريء القيس في شيء ، وانما هو محمول عليه حملا ، ومختلق عليه اختلاقاً ، حمل بعضه العرب انفسهم ، وحمل بعضه الآخر الرواة الذين دونوا الشعر في القرن الثاني للهجرة .

صاحب النموذج :

(سبقت ترجمته في الفصل السابق)

التعليق :

هذا اسلوب جديد في النقــد بناه الدكتور طه على الشك في الشعر الجاهلي بعامة ، وشعر امريء القيس بخاصة ، واخذ يدعم هذا الشك بأمور كثيرة اهمها لغة الشعر التي نظم بهـا امرؤ القيس شعره مع انـه يمني ولغة اليمن — كما يرى — الدكتور طه تخالف اللغة العدنانية كل المخالفة . وردّ على من قال ان امرأ القيس نشـأ في نجد وكـان ابوه ملكاً على بني اسد بالشك في هذا ايضاً . وقد يكون من العجيب الا تظهر هذه اللغة لتكون لسان العرب عامة حين يجتمعون في الحج ، وفي الاسواق العديدة التي كانت تقام على مدار السنـة ، ومنها ما يقـام في بلاد اليمن ، ثم من قال ان اللغة اليمنية التي كانت على عهـد امريء القيس هي الحميرية التي كانت قبل انهيار سد مأرب ، وكيف امكن لاهل اليمن حين نزل القرآن ان يفهموه ، وان يؤمنوا به ، وان يرسل النبي عليه السلام علياً كرم الله وجهه ، ومعاذ بن جبل الى اليمن ، فلم يجدا عسراً في نشر الدعوة الاسلامية ، لقد كانت هذه اللغة المشتركة مفهومة ، ومتداولة في جزيرة العرب كلها ، واذا اضفنا الى هذا نشأة امريء القيس

في نجد وان اخواله من بني تغلب ، وان اباه كان ملكاً على بني أسد لم نجد مسوّغاً للشك في شعر امرىء القيس كله .

أما ان القصيدتين اللتين أشار اليهما الدكتور طه قد خلتا من الاشارة لحرب البسوس ، فقد قيلتا في أغراض اخرى غير وصف هذه الحرب، وقد كان امرؤ القيس صاحب لهو ، ولعلهما قد انشئتا في وقت مبكر على حرب البسوس .

ونوافق الدكتور طه في ان بعض الشعر قد نسب الى امرىء القيس وانه ليس له لأسباب كثيرة ، كما ان بعض الشعر الجاهلي صنع فيما بعد ونسب الى شعراء الجاهلية ، ولكن الشك في كل شعر امرىء القيس ، وهو لا يختلف في نشأته عن شعراء نجد القدامى من أمثال عمرو بن كلثوم ، وأوس بن حجر ، والنابغة وزهير وسواهم ممن نشأ في نجد ، فان هذا الشك يجعلنا نشك في الشعر الجاهلي كله،وهو ما لم يقل به احد.

وعلى كل فهذا منهج في البحث اختطه وارتضاه الدكتور طه في وقت من الأوقات ، ولكنه عدل عن كثير من آرائه هذه فيما بعد .

ثانيا — بين الكتب والناس

لعباس العقاد

الحكمة في الشعر :

جرى حديث من أحاديث الصيام عن الحكمة والشعر وعن المقصود بالأثر المشهور « إن من الشعر لحكمة » هل يراد بالحكمة مشكلات العقل والعلم ، أو يراد بها نظرات الأمة الى الحياة ، ومواجهة الحياة من جانب الشعور والمزاج .

وسأل سائل : لا بد ان يكون الشعر الصادق ترجمة صحيحة لطبائع الأمة ونزعاتها النفسية ، فاذا سلمنا هذا الرأي — وهو مسلم — فعلام تدلنا مراجعة الشعر العربي في جملته ؟ هل يترجم لنا الشعر العربي في جملته عن إقبال على الحياة أو عن هروب من الحياة ؟

أما الإقبال على الحياة فمثاله هذه الأمم التي تنهض برسالة تؤديها او تطمح إلى سيادة تبسطها .

وأما الهروب من الحياة فمثاله تلك الأمم التي تتخذ أمثلتها العليا في حياة النسك والزهادة والتنحي عن معركة الحياة لمن يصطرعون عليها .

فأي الحكمتين — أو أي الفلسفتين — يترجم عنه الشعر العربي في وجهته العامة : هل هو شعر الإقبال على الحياة ، او هو شعر الهروب من الحياة ؟

قلنا : لا هذا ولا ذاك ، ولا ينبغي أن يكون هذا أو ذاك ، فان حكمة الحياة في الأمة ينبغي أن تتسع لكل شعور في كل نفس حية ، ومن هذا الشعور شعور الرضا والسخط ، وشعور الأمل واليأس، وشعور الإقبال والإعراض ، بل شعور الإقبال في حالات ، والإعراض في حالات يتردد في النفس الواحدة أوقاتاً بعد أوقات .

وما دامت الأمة تشعر بأمر من الأمور فمن الواجب أن تلقى صداه في بعض شعرها ، أو تلقى صداه في شعر الشاعر الواحد من كبار شعرائها ، إذا بلغ من رحابة الوعي ، واتساع الأفق مبلغ الاحاطة بالخوالج الانسانية في مختلف النفوس .

شعر الاقبال والطموح ممثل في قول امرىء القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدَّربَ دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وكان الأمر في هذين البيتين حواراً بين فلسفتين ، ولم يكن إعراباً عن فلسفة واحدة ، كان حواراً بين من يبكي من الخطب والمشقة ، ومن يواجه الموت وهو لا يبكي إذا كان في الموت إقامة عذر ودفع معرة.

والشاعر العباسي — كلثوم بن عمرو المشهور بالعتابي — يمثل لنا شعر القناعة والانقباض في أبياته التي يخاطب بها امرأته ويقول فيها :

تلومُ على تَركِ الغنى باهِلِيةٌ زوى الفقرُ عنها كلَّ طِرفٍ وتالد
رأتْ حولها النسوان يرفُلن في الثرى مُقلَّدة أعناقَها بالقلائد
أسرَّك أني نلت ما نال جعفر من العيش أو ما نال يحيى بنُ خالد
وأن أمير المؤمنين أغصَّني مُغصَّمها بالمرهفات البوارد
دعيني تجئني ميتتي مطمئنة ولم أتجشم قولَ تلك الموارد
رأيت رفيعات الأمور مشوبةً بمستودعات في بطون الأساود

وهذه الأبيات تعرض لنا المسألة من ناحيتيها ، وتعرضها في كل ناحية بأدلتها وشواهدها ، فالزوجة تنظر إلى من يرفلن في الغنى فتطمح ببصرها إلى الترف والزينة ، وتشتهي المتعة بالرغد والثروة ، والزوج ينظر إلى مصير الوزراء والأغنياء فيعتبر بهذا المصير ولا يسره أن ينال من العيش ما نال جعفر ويحيى ، ثم يلقى الموت الفاجع كما لقياه ، هكذا يجتمع

الطرفان من الفلسفة الواحدة أحياناً في بيتين او بضعة ابيات ، فلا نرى طرفاً منهما يغيب كل الغيب أو يظهر كل الظهور .

وإذا نظرنا الى فلسفة الحياة من الوجهة الفكرية ، فقد تكون الفكرة الواحدة سبباً للزهد وسبباً للمغامرة عند شاعرين من شعراء الحكمة والنظر ، فتعب الحياة جعل المعري يعجب ممن يشتهي طول الحياة كما قال :

تعب كلها الحيـــاة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

وهذا التعب نفسه هو الذي يدفع ابا الطيب إلى الغاية من المغـــامرة كما يقول :

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرُومٍ فلا تقنع بمـــا دون النجوم
فطعمُ الموت في أمر حقـــيرٍ كطعم المـــوت في أمر عظيم

وكلاهما يورد كلامه في أسلوب من يتوقّع المخالفة ، ويحس أنـه مطالب بالإقناع وإقامة الحجة ، فالمعري لا يفهم لماذا نطلب المزيد من الحياة إذا كنا نزداد من التعب ، وأبو الطيب لا يفهم لماذا نقنع بالمغامرة القليلة إذا كان الموت في طلب القليل كالموت في طلب الكثـــير ، ولا بدّ من مغامرة على كل حال .

أما إذا كانت المسألة مسألة مزاجية محضة فقد تسمع النقيضـــين من الشاعر الواحد ، بل تسمع النقيضين من الشاعر الذي اشتهر بالإقبال على الحياة والإقدام على الموت في سبيل المجد والسلطان فإن المتنبي الذي يقول:

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً

هو الذي يقول :

ومراد النفوس أهون من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

وهو الذي يقول :

وما الدهر أهل ان تؤمل عنده حياةٌ وأن يشتاق فيه إلى النّسل

لكنك مع هذا الاختلاف تلمس علة الزهد هنا ، وعلة الطموح هناك ، فاذا هما يصدران عن خليقة واحدة ،وهي خليقة الأنفة والكبرياء.

فالرجل هنا لا يعرض عن الحياة قناعة بالقليل ، وعجزاً عن تكاليف الجد والطموح .. معاذ الله ! بل يعرض عن الدهر تعالياً على الدهر ، وايماناً بأن هذا الدهر غير أهل لبقائه فيه ، وابقاء بنيه ، وكذلك اذا غامر فانما يغامر ويقامر ويقول :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

فيتجلى الفرق بين الحالتين حين تصدران من خليقة واحدة ، وبين الحالتين حين تصدران من خليقتين متناقضتين . قال يزيد بن المهلب :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة غير أن أتقدما

وقال أبو فرغون التميمي :

وما بي شيء في الوغى غير انني أخاف على فخارتي ان تحطما
ولو كنت مبتاعاً من السوق غيرها لدى الروع ما باليت ان أتقدما

شعر من بحر واحد ، ومن قافية واحدة ، وموضوع واحد ؛ ولكنه يريك مدى الاختلاف بين المزاجين ، والطبيعتين ، من حيث ترى ان المزاج واحد في طبيعة المتنبي ، وهو يدعو الى الزهد والقناعة او يدعو الى المغامرة والطموح .

فالترجمة الصادقة اذا تمت لأمة من الأمم في حكمة شعرائها ، فعلامة التمام فيها تكون ترجماناً لكل حالة ، وحجة لكل مستشهد ، وصورة متجلية لكل مزاج من أمزجة الحياة العامة أو الخاصة .

صاحب النموذج :

هو عباس محمود العقاد ولد بمدينة أسوان سنة ١٨٨٩ ،ودخل المكتب

صغيراً ليحفظ القرآن ثم نقل الى المدرسة الابتدائية فأتم تعليمه بها، وهي كل ما حصله من التعليم المدرسي ، وكانت الدروس في هـذه المدرسة وسواها تلقى كلها باللغة الانكليزية طبقاً لسياسة الاستعمار الانكليزي ، ثم اشتغل بكثير من الوظائف الصغيرة ، ولكنه ضاق ذرعاً بالوظائف الحكومية ، وكان كثير الشغف بالقراءة في الانكليزية والعربية فاشتغل بالصحافة وبالتدريس .

وكانت له صحبة مع عبد الرحمن شكري والمازني ، وألف ثلاثتهم مدرسة لها رأي خاص في الشعر معتمدة على مقاييس الأدب الغربية ، وبخاصة الانكليزية ، وأخذ ثلاثتهم يدعون لمذهبهم الجديد في مقدمات الدواوين التي ينشرونها ، وفي المجلات الادبية ، وفي كتب خاصة أهمها كتاب (الديوان) الذي ظهر منه جزءان في سنة ١٩٢١ . وقد وجه فيه العقاد والمازني الهجوم على بعض الأدباء المعاصرين ، وبخاصة شوقي والرافعي . وكان للعقاد ولزميله أثر كبير في توجيه الشعر الحديث في أغراضه ووزنه ومعانيه .

واتصل العقاد بالزعيم سعد زغلول ، وصار كاتب الوفد الأول ، ودخل معارك حامية مع كتاب الأحزاب الأخرى .

وكانت جريدة (البلاغ) ميدان صولاته وجولاته،وأصدر لها ملحقاً أدبياً سمي (بالبلاغ الاسبوعي) لينافس به (السياسة الاسبوعية) التي كان يصدرها الدكتور هيكل .

اهتمّ العقاد باعطاء القارىء العربي خلاصة الفكر الغربي، وهو يعد من أكثر أدباء العربية المعاصرين قراءة ، وقد جمع مقالاته الكثيرة في كتب منها : ساعات بين الكتب ، والفصول ، ومطالعات في الكتب والحياة ، ومراجعات في الأدب والفنون ، وبين الكتب والناس ، وكلها تدل على اطلاع واسع وعلى حسن فهم وتذوق، وقدرة على هضم الفكر الغربي وتمثيله ، وحسن التعبير عنه ، ودخل العقاد السجن مرتين لتمسكه بحرية رأيه في بعض عهود الاستبداد ، وله عدة دواوين شعرية

منها : وحي الأربعين ، وعابر سبيل ، وأعاصير مغرب ، وبعد الأعاصير . كما أن له كتباً في النقد منها : ابن الرومي ، وشعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي . وله أكثر من ستين مؤلفاً اشتهر منها: كتب العبقريات، وقد برع العقاد في كتابة التراجم والسير ، وسلك فيها مسلك التحليل والتعليل ، فكتب عبقرية محمد ، وعبقرية المسيح ، وعبقرية عمر ، وأبي بكر ، وعلي، وخالد ، وله كتب عن أبي نواس ، وابن رشد، وابي الأنبياء إبراهيم ، وجميل بن معمر ، وبيكون ، والله ، وإبليس، والفلسفة القرآنية . وهو بهذه الكتب والدواوين يعد من أغزر أدباء العربية نتاجاً ، وأكثرهم اطلاعاً ، وأكبرهم تأثيراً في توجيه الشعر العربي الحديث.

التعليق :

ومن هذا النموذج الذي أوردناه للأستاذ العقاد في شعر الحكمة عند العرب تتجلى لك طريقته التحليليّة ونظرته الفاحصة الدقيقة وحسن فهمه للشعر ، وبواعثه ، وسعة اطلاعه على الأدب العربي القديم .

وهو يريد ان يقرر ان شعر الحكمة هو ترجمان صادق عن الأمة ، ولكنه ليس ذا طابع واحد يدل على التفاؤل أو التشاؤم ، والشجاعة أو التخاذل ، وإنما يلبس لكل حالة لبوسها ، وفيه ما يوافق كل حالة ، من حالات الإنسانية ، في ضعفه وقوته ، ويأسه ورجائه ، وشجاعته وجبنه ، وأنفته وضعته ، الى غير ذلك من الحالات الكثيرة التي تعتري الناس باختلاف أحوالهم وطباعهم ، وقد تعتري حالتان متناقضتان فرداً واحداً ، ويصدران عن نفس واحدة ، ولكن على الرغم من ظهور تناقضهما نجد ان الباعث عليهما واحد كما في أبيات المتنبي التي يقول في بعضها معبراً عن زهده،وفي بعضها معبراً عن طموحه ، والزهد والطموح متناقضان ، ولكن الباعث عليهما في نفس المتنبي واحد ، وهو خليقة الانفة والكبرياء ، وقد شرح العقاد هذا الباعث شرحاً طيباً .

وأنت ترى انه يتناول موضوع الحكمة من جوانب كثيرة ، ويعرض عليك نماذج مختلفة منها ، ويوازن بينهـا ويشقق الموضوع ويغوص في أعماقه على طريقته التحليلية التي ينفذ بها الى اعماق الشاعر وفهم فلسفته في الحياة .

والحكمة في الواقع حقيقة مجردة تعبّر عن قانون من قوانين الحياة مصوغ صياغة مركزة ، وبأسلوب يجعله يجري على كلّ لسان ، وليس في الحياه قانون يشمل جميع حالات الإنسانية ، مع اختلاف الناس طبعاً وغاية ، ولذلك لا نستطيع أن نقول : إن شعر الحكمة لدى الأمة العربية يعبر عن أمة مقبلة على الحياة في كل حالة من حالاتها ، او شعر امة معرضة عن الحياة في كل حالة من الحالات ، وإن كان الاستاذ العقاد في آخر هذا البحث، قد وصل الى ان شعر الزهد والقناعة اكثر من شعر الطموح والمغامرة ، ولكن الأمر عندنا يحتاج الى استقراء دقيق .

والعقاد كما رأيت يبسط فكرته وموازناته من غير تكلف ، وبعبارة مستقيمة ليس فيها تعقيد ، وإن كان هذا ليس شأنه دائماً ، بل الغالب عليه ان تأتي عبارته غامضة نوعاً ما ، وذلك ناشىء عن عمق معانيه وغوصه وراءها ، وكثرة تحليله ، وغزارة معلوماته .

ثالثا – التعاشيب

لعبدالله كنون

شاعر العربية الأكبر :

من كان من اهل التأديب فلا بد من ان يكون قد اصطدم يوماً ما بسؤال أحد الطابة ، من هو شاعر العربيـة الأكبر ؟ ولا بـد من ان يكون قد تردّد أولاً في الجواب ، وابدى اعتبارات مختلفة ثم أجمـع رأيه أخيراً وحكم حكماً مُسْمَطاً ، انه هو ابو الطيب المتنبي .

أما تردّده أولاً فانه أن يرى أئمة الأدب ونقّاد الشعر قلّما تطرقوا لهذا الموضوع واعطوه ما يستحقه من البحث ، فغاية الأمر انهم يذكرون ميزات كل شاعر على حدة ، ويطرون مواهبـه من غير ان يتعرضوا للمقارنة بينه وبين غيره الا في دائرة محدودة ، واتجاه خاص .

وأما حكمه أخيراً لأبـي الطيب فقد يقال : ان الضرورة الوقتية هي التي ألزمته به لأنه لا يجوز ان يجيب بأن العربية التي هي أم اللغات ليس لها شاعر ، ولكن هل كان مما ألزمته به هذه الضرورة ان يحكم لأبـي الطيب خاصة دون غيره من شعراء العربية الكثيرين ؟.

فالأمر دائر بين ان يكون للعربية شاعـر او لا يكون ، واذا كان فهو أبو الطيب لا غير ،وقضية ذلك انه اختلفت أنظار القدماء والمحدثين في قيمة هذا الادب ومنزلته بين آداب الأمم الراقيـة ، فالقدماء الذين يجلُّون عربيتهم – ولهم الحق – فيضعونها في مستوى لا تسمو اليه الابصار يعتقدون ان أدب العرب هو خلاصة المعارف البشرية على الاطـلاق ، وزبدة ما تمخضت به العقول الانسانية من لدن انبثاق فجـر الحياة الى الآن مستودعاً في قوالب من اللفظ الفصيح والتركيب الصحيح لا تكاد نظائرها توجد في لغة من اللغات، وهم يرتفعون بالأدباء العرب الى مقام

عال جداً ، وعندهم ان بعضهم ارفع واعلى من بعض ، ولا بد ان يكون واحد منهم هو الأرفع والأعلى مطلقاً .

والمحدثون الذين يسيئون الظن بهذه اللغة ويكثرون القالة في تراثها الأدبي يرون ان البحث في هذه المسألة من قبيل البحث في النتائج قبل المقدمات ، لأن الأدب العربي عندهم أبتر ناقص مادة ومعنى ، فهو لا يزال خالياً من القصة والشعر التمثيلي ، وهذا نقص في المادة ، ومع ذلك فان روح الفردية تكاد تغمره ، وهذا نقصان معنوي ، فكيف اذاً نفكر في شاعر العربية الممتاز ، وأدب العربية بشعره ونثره لم يستكمل تكوينه بعد ؟.

أما نحن فلا نثق بكل هذه الأقوال ولا تفزعنا هذه التهاويل،واعتقادنا أن لحب التقليد وقلة الاطلاع دخلاً كبيراً في نشوء هذه الآراء ، فلننظر كيف يكون ابو الطيب شاعر العربية الأكبر على مذهب القدماء ثم نرجع بعد الى مذهب هؤلاء المحدثين .

لقد تساهل بعض القدماء فكان يحكم للشاعر بالتفوق على غيره من أهل طبقته وسواهم بالبيت المفرد يحتوي النكتة البديعة او الحكمة الغالية او التعبير البليغ عن العاطفة الرقيقة او ما الى ذلك ، وهو مقياس سريع التأثر لا يثبت على حال ، فكلما حكم لفرد عاد فحكم لأفراد،لأنه كيف يكون الشاعر شاعراً ، ولا يكون له ابيات لا بيت مفرد من مثل هذه المعاني ؟.

ومع ذلك فاننا بموجب هذا القياس نحكم للمتنبي بأنه شاعر العربية الأكبر ،لأنه لا يوجد شاعر له من الابيات المفردة السائرة مسير الأمثال في غالب المعاني التي تخطر في القلب وتجوس خلال النفس وذلك شيء مشهود معلوم ، اذا أردنا التدليل عليه لم تعوزنا عشرات الدلائل ،وربما لم نزد الناس به علماً .

وبعضهم يجعل مقياس الشاعرية الغوص على المعاني المبتكرة ، وحسن التخيل،ولطف المسلك في الانتقال الى الاغراض المختلفة مع فخامة اللفظ

وجزالته ، ووضوح دلالته على المعنى المراد ، وأي منا ينكر ما للمتنبي من الآيات البينات والمعجزات الباهرات التي أربى فيها على من تقدم وسبق بها جميع من تأخر ؟ .

فهو أبو الابتكار في الشعر العربي الذي فتح ابواباً من الحكمة والتربية الخلقية والمثل الأعلى لم تفتح لشاعر قبله ولا بعده ، وهو صاحب الأخيلة البديعة والمطالع والمخالص والمقاطع البارعة التي لم يكتب لواحد من الشعراء ان يشاركه في بعض منها ، فأحرى ان ينازعه شرف الاختصاص بها ، وهو المؤثر فخامة اللفظ وجزالته حتى ضرب به المثل في ذلك ، فإذا اريد وصف شاعر ما بالفخامة قيل فيه إنه متنبي النزعة فهو في هذا الأمر ذو مذهب خاص ينسج الناس فيه على منواله وحسبك ما قاله فيه علي بن مظفر :

ما رأى الناس ثاني المتنبي أي ثان يرى لبكر الزمان
هو في شعره تنبأ لكن ظهرت معجزاته في المعاني

واختصر المعري ديوانه وشرحه وسماه (معجزة أحمد) وناهيك بها شهادة من مثل أبي العلاء ، ولقد قال علي بن فرجة قرأت على أبي العلاء ، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب ، فقلت يوماً في كلمة ما ، ما ضر ابا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى وأوردتها فأبان لي عوارها ، ثم قال لا تظن انك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها فجرب ان كنت مرتاباً : وها انا اجرب منذ زمن فلم اعثر بكلمة لو ابدلتها بأخرى كانت أليق بمكانها ، وليجرب من لم يصدق يجد الامر على ما اقول ، فبان بهذا كيف حاز ابو الطيب الفضل في ميدان المعنى واللفظ على مذهب القدماء واستحق ان يتوج بتاج الأمارة على الشعراء ، ولا تتقاضى منا شواهد على ما ذكرناه فإن ديوانه كله شواهد ناطقة بذلك وإنما إيثار الاختصار هو الذي حدانا الى عدم ذكر شيء منها حيث لا يصح الاقتصار على بعضها دون البعض الآخر .

ونرجع الى مذهب المحدثين فنرى ان دعواهم في نقصان الأدب

العربـي باطلة إذ لا يلزم من فقدان القصة والشعر التمثيلي نقصان أدب، لا سيما عند الامة التي لم تكن تعبأ بالقصة في دور من ادوار حياتها ، وإنما تعتبرها عبثاً من القول وزوراً من الكلام ، كذلك لم تعن بالتمثيل ولم يشغل حيزاً من فكرها قط ، فكيف يشتمل نثرها او شعرها على ما لم يتبين له وجه في حياتها الأدبية اصلاً ؟

وإذا كان الادب هو المرآة الصقيلة التي تتمثل فيها صور الحياة على وجوهها ومشاعر النفوس بكل ما تنطوي عليه من حب وبغض وسرور وحزن ولذة والم وطمع ويأس وانشراح وانقباض فما هي فائدة الأشكال اللفظية والأساليب الكلامية بعد حصول المقصود وفهم المراد ؟ .

وبعدئذ فهل يصح ان يقال : ان الأدب العربـي الذي ادى رسالته في الحياة كما يجب وبطرق هي الصق بنفوس اهله وان خـالفت بعض طرق الاداء عند غيرهم هو ادب ناقص وابتر ؟

من جهة نزعة الفردية التي تغلب على الادب العربـي في زعمهم لا يمكننـا ان نقول الا ان هذه نظرية لا يدعمها شيء من الاختبار ولا يؤيدها قليل من التمحيص ، وهي عندنا من قبيل الإيماء النـاشىء من عدم الاضطلاع ، وهل نحتاج ان نقيم الادلة على وهمها وعدم صحتها وابو الطيب وحده الذي هو عنـدهم اعظم ممثل لهذه النزعة كاف في الرد عليهم وتسفيه رأيهم ؟

حقاً لقد اكثر ابو الطيب في شعره من الحديث عن نفسه وآمال قلبه وآلامه وافكاره في الحياة ، وذلك من اعظم نواحي العظمة فيـه فإن الشاعر كل الشاعر من يصدق التعبير عن ذات نفسه وهواجس فكره ، وخطرات قلبه ، فمن ذلك تكون النظريات الاجتماعية والمذاهب الخلقية ، لأن علم الاجتماع والنفس بل الفلسفة بكاملهـا ان هي الا آراء الأفراد مرتبة ترتيب العلوم .

كما أكثر ابو الطيب من الحديث عن جماعة عصره وصورها تصويراً بارعاً بالغاً الغاية في الدقة والكمال ، ولكنه لم يفن فيها ولم يفقد شخصيته

التي شذت عن احوال جماعته ، التي كان يمقتها أشد المقت ، وينقدها أمر النقد ، لأنه المصلح الخطير الذي حقه ان يكون متبوعاً لا تابعاً ، والمجدد الكبير الذي مهمته في الهداية لا في الاهتداء . فاستمع اليه ماذا يقول :

ودهر ناسه ناس صغار — وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم — ولكن موطن الذهب الرغام
أرانب غير انهم ملوك — مفتحة عيونهم نيام
بأجسام يحر القتل فيها — وما أقرانها إلا الطعام
وخيل ما يخر لها طعين — كأن قنا فوارسها ثمام

ويقول :

وإنما نحن في جيل سواسية — شر على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلق — تخطى اذا جئت في استفهامهم بمن
لا أقتري بلداً إلا على غرر — ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً — إلا أحق بضرب الرأس من وثن
إني لأعذرهم مما أعنفهم — حتى أعنف نفسي فيهم وأني
فقر الجهول بلا قلب إلى ادب — فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

ويقول :

أذم الى هذا الزمان اهيله — فأعلمهم فدم واحزمهم وغد
واكرمهم كلب وابصرهم عم — واسدهم فهد واشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى — عدواً له ما من صداقته بد

ويقول :

ما زلت اضحك إبلي كلما نظرت — الى من اختضبت اخفافها بدم
اسيرها بين اصنام تشاهدها — ولا اشاهد فيها عفة الصنم

ويقول :

إنا لفي زمن ترك القبيح بـه   من اكثر الناس إحسان وإجمال

الى غير ذلك مما يطول تتبعه ، وقد شاهد الخبيرون بأن اقوال المتنبي في السياسة والاجتماع منطبقة تمام الانطباق على احوال عصره ، بل ان غالب حكمه واحكامه منتزعة من صميم واقع دهره ، فكيف يقال بعد ذلك ان روح الفردية تغمر الأدب العربي ، وهذا شاعـر الفردية في ذلك الادب يكاد يكون تاريخاً ناطقاً بوقائع الزمان الذي عاش فيـه ، وسجلاً حافلاً بما كان عليه أهل ذلك الزمان من امراض خلقية وعلل نفسية ، وفساد اساليب العيش وخلل في نظم السياسة ، مما لم يتكفـل ببيانه اعظم كتب التاريخ جمعاً وافخمها حجماً ؟

واذاً فالأدب العربي هو تلك الروضة الغناء والغيضة اللفاء ، المفتحة الورود والازهار ، المتفجرة العيون والانهـار ، وابو الطيب المتنبي هو بلبل تلك الروضة وصداح هاتيك الغيضة .

صاحب النموذج :

عبدالله كنون ، ولد بفاس سنة ١٩٠٨ وعند فرض الحماية الفرنسية على المغرب خرج به والده مهاجراً وقد جعل قبلته المشرق ولكنه ما كاد يصل الى طنجة حتى تعذر عليه السفر لاندلاع الحـرب العالمية الاولى وانقطاع المواصلات ، فاستقر بطنجة وفيها تثقف الكاتب بالثقافة العربية الخالصة والدينية ، ثم مارس مهنة التعليم ودفعه شغفه بالشعر والادب الى الكتابة في الصحف والمجلات ، ثم دفعته نفسه الكبيرة وقد رأى ابناء وطنه يحرمون الثقافة العربية ويرغمون على التزود من ثقافة الاجنبي ، دفعه هذا الى تأسيس مدرسة حرة للبنين واخرى للبنات ، وعمل عـلى انشاء المعهد الديني بطنجة ! وتولى إدارته ولم يتركه إلا في عشرين أغسطس سنة ١٩٥٣ احتجاجاً على ما قام به الفرنسيون الطغاة من اختطاف عاهل

المغرب المغفور له محمد الخامس ونفيه،ولجأ الى تطوان حتى لا يشارك في البيعة المزيفة لابن عرفة،وفي تطوان تولى وزارة العدل سنة ١٩٥٤ ، ثم ما لبث ان استقال منها سنة ١٩٥٦ ، وتولى اخيراً عمالة طنجة ، هذا الى اسهامه في عشرات النوادي والهيئات والصحف والمجاميع اللغوية .

آثاره :

لم تخل حياة الاستاذ كنون السياسية والإدارية دون انصرافه الى التأليف وانتاجه عدداً من الآثار القيمة في اللغة والشعر ، والتراجم والنقد ، والتاريخ والأدب ، ومن اشهر هذه المؤلفات : النبوغ المغربي،وسلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ومدخل الى تاريخ المغرب ، وخل وبقل، والتعاشيب ، وهو هذا الكتاب الذي اخترنا لك منه مقال (المتنبي) ، والكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات في مختلف الفنون سلك في بعضها طريق السرد والتقرير والفحص، وبعضها طريق النقد الذوقي والموضوعي، وبعضها المقارنة والاستشهاد ، وبعضها طريق التقريظ وبيان المآخذ .

قيمته النقدية :

يطالعنا في اولى صفحات التعاشيب تواضع الأستاذ كنون العلمي حين يقول : « روض الأدب في فنونه ومحتوياته يشتمل على الآثار العالية والنماذج المثالية، ويضم الى ذلك ايضاً منتجات واغراضاً هي وان كادت تكون الصق بالأرض فإنها تظهر سمو المعاني الاولى ، وتسهم بحظها في تنسيق منظر الروض الحسان ، وأنا اذا دعوت هذا الكتاب(التعاشيب) فقد بينت نسبته من كتب الأدب ، ولا أعني بذلك التواضع فما كنت ممن يدع حقيقة ما عنده لظن الناس ، لو وجد من الناس من يظن بما فيه من الأدب ظناً جميلاً » .

وهذه الطريقة التي سلكها الاستاذ كنون في كتابه من جمع المقالات المبعثرة له في الصحف والمجلات في كتاب ، والتي لا يجملها الا (منهج النقد) اصبحت تقايداً عند الكتاب كطه حسين والعقاد والزيات .

والأستاذ كنون كان بصيراً في نقده ، فلم يهجم او يطعن ، وانما كان يناقش بالتي هي احسن ، ويقدم بين يدي حديثه الدليل والرأي منتفعاً بآراء غيره من الكتاب ، فلم يأخذه الغرور ويدعى دعوى ويتركها يرن صداها دون ان يقف حولها مبيناً ومحللاً ومعللاً .

والكاتب واسع الاطلاع ، كان يعمق النظر في مواطن الإعماق ، ويغذ بك السير في المسالك الواضحة ، ويدلنا على هذه الثقافة الجامعة تلك الشواهد التي اطل بها علينا من خلال مقالات التعاشيب ، من مقدمته الى منتهاه ، وهي واضحة في المقال الذي اخترناه لك ، وهو تارة يستشهد بالوقائع التي حصلت له كقوله: « حضرت مجلساً علمياً للأستاذ الجليل السيد المدني بن الحسني عقده بعد العصر فانتهى فيه الى المغرب فلما سمع الأذان ختم المجلس وأنشد :

ولو نعطي الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الأذان

فقلت يا له من أديب » .

وطوراً يستشهد بالشعر والنثر ، اما لإثبات ما يقرره من شؤون الفصاحة والبلاغة ، واما للبرهان على سقط الكلام ، وهو في كلتا الحالتين زاخر العلم قوي الحجة .

ولا يقوم استشهاد الأستاذ كنون على تراث الأدب العربي فحسب، بل يتعداه الى القرآن الكريم يثبت بالبينات من آياته ما في اللغة من طاقات جمالية بلاغية ، والى أساليب النقد الحديث من الإلماح الى الصورة والخيال والعاطفة ومقاييسها والأسلوب وعناصره والفكرة وماهيتها .

ولا يكتفي بالتعلم والموضوعية عماداً للكتابة بل يعتبر الذوق رِفْداً ضرورياً للنقد ، يقول في مقدمة كتابه : « واي إنسان رزق ذوقاً مهذباً ونفساً مطبوعة على ادراك الجمال سواء في المعاني والألفاظ والذوات والصفات يسمع حديث ام زرع وما فيه من فنون البيان وما يعبر عنه من العواطف والميول ، لا يكاد يملك عليه حسه » .

وكان يستعين أحياناً في تعليل نقده بطريقة السؤال والجواب ففي حديثه في المقدمة يقول: «وأعود الى الأدب فأتساءل ما معنى هذا اللفظ؟ وفي الجواب لا حاجة بي الى التعريج على مذاهب الاقدمين، ولعل خير ما يعرف به الأدب هو انه كل فن جميل في عبارة جميلة» .

اما الاسلوب الذي اتخذه الاستاذ «كنون» فسلس جميل تتناوله الافهام بسهولة ، وهو منطقي عقلي في تقسيم الموضوعات ، ويميل في بعض الاحيان الى الأحكام المتسمة بسمة الشاعرية والحلى اللفظية كقوله : «واذاً فالأدب العربي هو تلك الروضة الغناء ، والغيضة اللفاء، المتفتحة الورود والازهار ، المتفجرة العيون والأنهار ، وابو الطيب المتنبي هو بلبل تلك الروضة ، وصداح هاتيك الغيضة» .

موضوعات للبحث

١ — (بين الكتب والناس) صرح من صروح النقد الحديث ، حوى فكراً عميقاً ، وعقلاً ذواقاً ، وثقافة موسوعية ، وآراء جديدة . اشرح وناقش .

٢ — ما منزلة طه حسين من ادباء العصر الحديث. واي أثر كان له في النقد والأدب . وهل توافقه على آرائه في الأدب الجاهلي؟ولماذا؟.

٣ — أتوافق الاستاذ «كنون» على ان المتنبي شاعر العربية الأكبر ؟ ابن جوابك على شواهد من شعر المتنبي .

٤ — وتعلم حب الطبيعة منها   واترك القال للورى والقيلا
أنت للأرض أولا وأخيراً   كنت ملكاً، أو كنت عبداً ذليلا
كل نجم الى الأفول ولكن   آفة النجم أن يخاف الأفولا
اذا ماوجدت في الأرض ظلا   فتفيأ بـه الى ان يحولا

انقد هذه الأبيات وحللها ، واستخلص منها رأي الشاعر في الحياة، ومدى ما فيها من سمات الشعر الحديث .

للمطالعة

١ — مدخل الى النقد : للدكتور غنيمي هلال ..
٢ — في الأدب والنقد : للدكتور محمد مندور .
٣ — أصول النقد الأدبي : لأحمد الشايب .
٤ — في الأدب الجاهلي : للدكتور طه حسين .
٥ — النقد : للدكتور شوقي ضيف ..
٦ — بين الكتب والناس : لعباس محمود العقاد .
٧ — التعاشيب : لعبدالله كنون .
٨ — النقد المنهجي عند العرب : للدكتور محمد مندور ..
٩ — الرؤوس : لمارون عبود .
١٠ — المتنبي : للدكتور طه حسين .
١١ — الحكم والأمثال : حنا فاخوري .
١٢ — أسس النقد الأدبي عند العرب : للدكتور أحمد بدوي ..

الفصل الثامن

التاريخ

التاريخ ونشأته عند العرب :

ابتدأ اهتمام العرب بالتاريخ منذ وقت مبكر في عهد معاوية بن أبي سفيان حيث كان يهتم بأخبار ملوك الفرس وسواهم ويدعو من يقص عليه من أخبارهم ويترجم له سيرهم ، ولكن تدوين التاريخ عند العرب لم يظهر إلا في اخريات القرن الأول ، وكان الاهتمام كله موجهاً لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخذ عدد من العلماء يجمعون أخبار النبي وأخبار غزواته واشتهر من بينهم محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٢ هـ وقد انتهت الينا سيرة الرسول الكريم في كتاب عبد الملك بن هشام (السيرة النبوية) وغيرها من كتب الفتوحات ، ثم أخرج ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ كتاب « الطبقات » الكبير ذكر فيه تاريخ الصحابة والتابعين حتى بلغ عدد من ترجم لهم نحو ثلاثة آلاف مع اهتمامه بذكر المغازي والفتوح .

واشتهر ممن كتبوا في الفتوح الاسلامية في العصر العباسي الثاني البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ في كتاب فتوح البلدان ، كما اشتهر في هذا العصر عدد من المؤرخين تناولوا تواريخ البلدان والأمم والقبائل والطوائف مثل كتاب الازرقي في تاريخ مكة ، وابن طيفور ٢٨٠ هـ في تاريخ بغداد .

وفي أخريات العصر العباسي الثاني بدأت كتابة التاريخ العام حين ظهر كتاب اليعقوبي المتوفى سنة ٢٧٨هـ ، ثم كتاب أبي حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ، والمسمى بالأخبار الطوال ويمتاز بتوسعه في تاريخ بني أمية وخصوصاً أخبار الإمام على كرم الله وجهه ومعاوية والخوارج وفرقهم ، ثم أتى محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ وألف

كتابه (أخبار الرسل والملوك) ويبدأ بالخليقة من عهد آدم وينتهي إلى سنة ٣٠٢ هـ ويقع في عدة مجلدات وقد أرخه حسب السنين .

وفي العصر العباسي الثالث كثرت كتب التاريخ العام ، واعتمد بعض أصحابها على مشاهداتهم ورحلاتهم ووصفهم أحوال المجتمعات الإسلامية، ومن أشهر الكتب في هذا العصر تاريخ المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ والمسمى (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وقد بدأ كذلك من أول الخليقة الى عهد المطيع لله العباسي المتوفى سنة ٣٣٦ ، وهو موسوعة تاريخية جغرافية ألمّ فيه صاحبه بتاريخ كثير من الأمم كالهند وإيران والرومان والعبرانيين ودياناتهم ، وبكتاب الطبري والمسعودي بلغ فن تأليف التاريخ لدى العرب أعلى مراتبه ، وكان آخر المؤرخين الكبار مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ في كتابه (تجارب الامم) . وكانت طريقة العرب في كتابة التاريخ الاعتماد على الروايات المختلفة مسلسلة الأسانيد ، وكان المهم عندهم صحة الإسناد على طريقة رواية الأحاديث النبوية . وقد ظهرت بجانب كتب الطبري والمسعودي ومسكويه طائفة من الكتب تؤرخ لإقليم أو لطائفة او لمدينة مثل كتاب ابن القوطية في تاريخ الأندلس ، وهلال الصابي سنة ٤٤٨ هـ في تاريخ الوزراء ، وأبي بكر الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ عن تاريخ بغداد .

وفي العصور الاسلامية المتأخرة ظهر عدد من كبار المؤرخين من أمثال أبي الفداء سنة ٧٣٢ هـ ، وابن خلدون ، وابن عرب شاه والصفدي والمقريزي وعشرات غيرهم .

وقد اتهم العرب بأنهم لم يعنوا بغير صحة الإسناد من غير اهتمام بالموضوع والفحص عنه ونقده مع أننا نجد هذا النقد كثيراً لدى الطبري وهو من أوائل المؤرخين يتحرى الصدق ما وسعه الجهد وكذلك مسكويه في كتاب تجارب الأمم ، والمسعودي في مروج الذهب ، وقد ذكر ابن الطقطقى سنة ٧٠٩ هـ في كتابه الفخري انتقادات كثيرة على بعض مصنفي التاريخ ، وقد خطا ابن خلدون خطوة كبيرة حيث وضع في مقدمته فلسفة التاريخ وكان بذلك قدوة لمن أتى بعده .

نماذج تطبيقيّة

اولا – المقدمة

لابن خلدون

مقدمة ابن خلدون :

تطلق المقدمة على الجزء الاول من السبعــة المجلدات التي ألفها ابن خلدون وسماها « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » .

وتتكون المقدمة : من خطبة الكتاب ذكر فيها الأسباب التي دعتـه لتأليف كتاب العبر ، ثم مقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، وما يعرض للمؤرخين من « المغالط والاوهام وذكر شيء من أسبابها » .

وتقسم المقدمة الى ستة بحوث رئيسية :

١ – (في العمران البشري على الجملة) بين فيه ان الاجتماع الانساني ضروري ، وأتبعه ببحوث جغرافية وأثر البيئة في ألوان البشر وأخلاقهم وشؤون معاشهم ، وتعرض فيه للوحي والأدباء ، وحقيقة النبوة والكهانة والعرافة .

٢ – والمبحث الثاني في (العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل) تكلم فيه على البدو ونشأتهم وبعض شؤونهم الاجتماعية ، واصول المدنيات ، وتعرض في آخره لطائفة من نظم الجيش والسياسة المتعلقة بالشعوب البدوية .

٣ – ويتكلم المبحث الثالث (في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية) .

٤ — أما المبحث الرابع فخاص (بالبلدان والأمصار وسائر العمران) تعرض فيه لنشأة المدن والامصار ومواطن المجتمع الانساني وما تمتاز به المدن عن غيرها من مختلف الوجوه العمرانية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية.

٥ — والمبحث الخامس يتناول الكلام في المعاش ووجوه الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله .

٦ — والمبحث السادس (في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال) . وأهم ما يلفت النظر في مقدمة ابن خلدون عنايتها بدراسة الظواهر الاجتماعية عناية جعلت أبحاثه أساساً لما نسميه اليوم (علم الاجتماع) ، ولم يكن ابن خلدون يدرس هذه الظواهر لمجرد وصفها ولا للدعوة اليها ولا لبيان ما ينبغي ان تكون عليه ، كما فعل من قبله بعض المؤرخين والفلاسفة ، ولكن يدرسها ليحللها تحليلاً يؤدي الى الكشف عن طبيعتها والأسس التي تقوم عليها والقوانين التي تخضع لها ، كما يدرس العلماء ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء ووظائف الأعضاء وما اليها .

وان دراسة ابن خلدون للظواهر الاجتماعية على هذا الوجه لم يسبقه اليها أحد فيما نعلم ، وهو محق في نقده هذا ؛ فلم يهتد الباحثون حتى اليوم الى بحث صادق كبحوث ابن خلدون تتناول ظواهر الاجتماع في مجموعها وعلى انها موضوع شعبة مستقلة ودرسها كما تدرس العلوم والرياضة والطبيعة .

ولعل من الأسباب التي دعت ابن خلدون لإنشاء هذا العلم الجديد هو حرصه على تخليص البحوث التاريخية من الاخبار الكاذبة،وعلى انشاء أداة يستطيع بفضلها الباحثون والمؤلفون في علم التاريخ ان يميزوا بين ما يحتمل الصدق وما لا يمكن ان يكون صادقاً من الأخبار المتعلقة بظواهر علم الاجتماع .

وذكر ابن خلدون اسباب الكذب في الخبر ، وقبول الخبر غير الصحيح،وان هذه الأسباب يرجع بعضها الى المؤلف وميوله واهوائه وتشيعه

لمذهب خاص ، وعلاج ذلك يكون بتجرد المؤلف من الهـــوى والتشيع وعوامل الانحراف ، ويرجع بعضها إلى الجهل بالقوانين التي تخضع لهـا الظواهر الطبيعية فيسجل المؤرخون أخباراً تحكم هذه القوانين باستحالتها ، وضرب أمثلة على هذا الجهل وما وقع المؤرخون فيه من أخطاء ويرى أن علاجه الإلمام بهذه القوانين .

ويرجع بعضهـــا الى الجهل بالقوانين التي تخضع لها ظواهر الاجتماع الإنساني ؛ فهذه الظواهر لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ، وإنمـــا تحكمها قوانين ثابتة مطردة شأنها في ذلك شأن الظواهر الطبيعية،وقـد دل ابن خلدون بمقدمته هذه على عقلية خصبة مبتكرة ، وقد اشتهرت المقدمة حتى غطت على كتاب العبر .

صاحب المقدمة :

هو أبو زيد ولي الدين عبـــد الرحمن بن محمد بن خلدون ولد سنة ٧٣٢ ﻫ في تونس، ويرجع نسبه إلى الصحابـي الجليل وائل بن حُجر، وأسرته يمانية حضرمية ، وقد نزح جده خالد بن عثمان الذي اشتهر فيما بعد باسم خلدون إلى الاندلس مع الغزاة الفاتحين واتخذ إشبيليـــة موطن إقامته ، وفي أواسط القرن السابع للهجرة انتقل أجداده الى تونس عند غلبة الجلالقة في الأندلس .

كانت تونس حينذاك مركز العلماء والأدباء في بلاد المغرب ، ومقام رهط من علماء الأندلس الذين شتتتهم الحوادث ، فكان من هؤلاء جميعاً أساتذة ابن خلدون ، قرأ عليهم القرآن وجوده بالسبع ، ودرس عليهم العلوم الشرعية واللسانية والفلسفة والمنطق . وأظهر تفوقاً ملحوظـــاً إبان الدراسة ، وقد حدث وهو في الثامنة عشرة من عمره حادثان قطعا عليه طريق الدراسة أولها الطـــاعون الذي اجتاح البلاد الشرقية والغربية حتى بعض أجزاء اوروبا ، وثانيهما هجرة معظم العلماء والأدباء الذين أفلتـوا من هذا الوباء الجارف من تونس الى المغرب الأقصى سنة ٧٥٠ ﻫ مع سلطانه أبـي الحسن صاحب دولة بني مرين .

وقد شغل ابن خلدون كثيراً من المناصب العامة في تونس والمغرب الأقصى والأوسط . وقدم فاس في سنة ٧٥٥ هـ وتقرب الى السلطان ، وأخذ يدنيه ويرفع من مكانته حتى عينه ضمن كتابه . ولكن هذه الوظيفة لم ترض مطامحه الكبيرة فزج بنفسه في دسائس مع السلطان المخلوع ؛ بغية إعادة عرشه له ، على أن يوليه الحجابة فعرف أمره ، وسجن زهاء عامين ، وأخذ يتشفع للسلطان بالكتابة والشعر فوعد بالإفراج عنه ، ولكن الموت عاجله قبل ان ينجز وعده ، ثم أطلق سراح ابن خلدون الوزير الحسن بن عمر ، وأكرم ابن خلدون اكراماً بالغاً ، ومرة أخرى دخل في دسائس طويلة ارضاء لطموحه ، حتى آثر في آخر الأمر الذهاب إلى غرناطة بالأندلس سنة ٧٦٤ هـ.

وأكرمه سلطان غرناطة ووزيره ، وسفر لهما لدى ملك قشتالة ، فنجحت سفارته ، فأقطعه السلطان قرية ألبيرة بمرج غرناطة فحسنت حالته . واستدعى أسرته للإقامة معه ، ولكن هذه الحال لم تدم ، إذ سعى الساعون بينه وبين السلطان والوزير ، فعزم على الرحلة من الأندلس ، وتصادف في ذلك الوقت ان امير بجاية الذي سجن ابن خلدون في سبيل اعادته الى العرش قد استرد سلطانه فاستدعاه ليوليه الحجابة ، وهو منصب أشبه بمنصب رئيس الوزراء ، فاستأذن في الرحيل من الأندلس ، فأذن له سلطان غرناطة ، وزوده بأعطيته ، ثم تركها بعد أن مكث بها عامين ونصف .

ونهض ابن خلدون في بجاية يتحمل أعباء منصبه الكبير ، وأظهر اقتداراً ومهارة ، ولكن سلطانه خلع عن العرش فانضوى تحت لواء خلفه ، ثم شك فيه وهمّ بالقبض عليه ففر إلى بسكرة ، وأخذ يتنقل في بلدان كثيرة ، وذهب إلى الأندلس مرة ثانية ، وعاد منها .

وأخيراً استقر في تلمسان مع اهله ، ومكث بها أربع سنين ، وأخذ في ذلك الوقت يدون تاريخه ، ويكتب مقدمته ، ثم رأى العودة الى تونس

مسقط رأسه فزارها سنة ٧٨٠ ﻫ وأكرمه سلطانها واختصه بأسراره ، ثم سعى الساعون بينهما فخرج الى مصر ، ووصلها سنة ٧٨٤ ﻫ، وشغل بها منصب القضاء والتدريس بالأزهر،واشتهر أمره فتكاثر حساده والمرجفون به ، وكان قد ارسل في استدعاء اهله ، ولكن المركب غرقت بهم في الطريق الى مصر فماتوا جميعاً ، فعظم الأمر ، واستقال من منصبه ، وخرج الى الحج في سنة ٧٨٩ ﻫ ، وأتمّ كتابه بمصر سنة ٧٩٧ ﻫ ، ووافاه أجله في سنة ٨٠٨ ﻫ من الهجرة وهو بمصر فدفن بها .

نموذج تطبيقي :

نكبة البرامكة

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة ، من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيي بن خالد مولاه ، وانه لكلافه بمكانهما من معاقرته اياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه ، وان العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه،فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب .

وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها،وانها بنت عبدالله بن عباس ليس بينها وبينه الا اربعة رجال هم أشراف الدين ، وعظماء الملة من بعده ؛ والعباسة بنت محمد المهدي بن عبدالله ابي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء بن عبدالله ترجمان القرآن ابن العباس عمّ النبي صلى الله عليه وسلم ، ابنة خليفة واخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز ، والخلافة النبوية ، وصحبة الرسول وعمومته ، وإمامة الملة ونور الوحي ، ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العروبة ، وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ، ومراتع الفواحش، فأين يُطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها ؟ او اين توجد الطهارة والذكاء اذا فقدا من بيتها ؟ او كيف تَلحُمُ نسبها بجعفر بن يحيي ، وتدنّس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من

الفرس ، او بولاء جدها من عمومة الرسول ؛ واشراف قريش ، وغايته ان جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه ، واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الاشراف ، وكيف يسوغ من الرشيد ان يصهر الى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها ، وفي سلطان قومها ، واستنكره ولج في تكذيبه ، واين قَدْر العباسة والرشيد من الناس ؟

وانما نكبَ البرامكةَ ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في امور ملكه فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من وُلدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، ويقال : انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف ، وصاحب قلم ، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ، ودفعوهم عنها بالراح ، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ، وليّ عهد وخليفة حتى شب في حجره ، ودرج من عشه ، وغلب على أمره ، وكان يدعوه يا أبت . فتوجه الإيثار من السلطان اليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك ، وتحف الامراء ، وسيرت الى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية ، وآفاضوا في رجال الشيعة ، وعظماء القرابة العطاء ، وطوقوهم المنن ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العاني ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسْنَوْا لعُفاتهم الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة ، وأحقدوا الخاصة ، وأغصّوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية ، حتى

لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم ، لم تعطفهم — لما وَقَر في نفوسهم من الحسد — عواطف الرّحم ، ولا وزعتهم أواصر القرابة ، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشيء الغيرة والاستنكاف من الحَجْر والأنفة ، وكامن الحقود التي بعثها منهم صغائر الدّالة ، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة ، كقصتهم في يحيى ابن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزّكية الخارج على المنصور ، ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل ابن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه ، وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري ، ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره ، فحبسه مدة ، ثم حملته الدّالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله ، حُرْماً لدماء أهل البيت بزعمه ، ودالة على السلطان في حكمه ، وسأله الرشيد لما وشي به إليه ، ففطن ، وقال : أطلقته ، فأبدى له وجه الاستحسان واسرها في نفسه ، فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه ، حتى ثُلّ عرشُهم ، وألقيت عليهم سماؤهم ، وخُسفت الأرض بهم وبدارهم ، وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامُهم. ومن تأمل اخبارهم واستقصى سير الدولة وسِيرَهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب .

التعليق :

هذه نبذة من فصل طويل عقده ابن خلدون لأخطاء المؤرخين ، وقد وضع هذه الأخطاء تحت منظار الفحص الدقيق ، وبين ما فيها من زيف ، معتمداً على منطق الحوادث ، وعلى احوال الاجتماع وطبائع الأشياء ، فأنكر إنكاراً جازماً ان ينزلق الرشيد الى مصاهرة مولاه ، وأن تظهر بالمظهر الذي لا يليق بمكانها من بيت النبوة ، واخذ يسوق الأسباب الحقيقية التي أدت إلى نكبة البرامكة ، ذاكراً أنها المكانة التي كانت ليحيى بن خالد ، ومنزلته من الرشيد . وانه حشد اهله في بيت الخلافة ، واستأثروا بكل شيء ، فأثاروا الحسد والغيرة في نفوس الناس ، حتى

لدى أخوال جعفر بن يحي. وكذلك ما كان لهم من دالّة ومن ارتكابهم صغائر الأشياء، ومن تخطّيهم الحدود مع الرشيد، كمسألة يحي الطالبي.

وهكذا نجد ان ابن خلدون لا يعتمد على الروايات التي تُروى، وإن كانت أسانيدها قوية صحيحة، وإنما يحكم عقاله، ويحكم الظواهر الاجتماعية، فما قبله العقل وكان متّفقاً مع طبيعة الأمور قبله وإلا رفضه.

وهناك ظاهرة اخرى في المقدمة، وهي الأسلوب الذي كتبت به، ذلك الأسلوب المرسل الخالي من السجع، والحلى البديعة، على خلاف ما كان عليه الكتّاب جميعاً في عصر ابن خلدون، مؤرخين وغير مؤرخين، فقد التزموا السجع، وأكثروا من استخدام الوان البديع، ولقد كان لأسلوب ابن خلدون هذا اثره في نهضتنا الحديثة، فما ان طبعت المقدمة لاول مرة وتداولتها الأيدي حتى اخذ رواد الكتابة يحاكونها ويبتعدون عن الأسلوب المسجوع. ومع ان المقدمة مرسلة، فهي ليست ركيكة الأسلوب، ولكنها تنم عن ذوق اديب وعلى ان ابن خلدون كان عالماً باللغة، متمكناً من استخدام الالفاظ، وانه كان مدرسة وحده، في فكره، وثاقب نظره، وبحسبك ما جاء في هذه المقدمة من آراء ونظريات سبق بها علماء الغرب بقرون، وكذلك كان مدرسة وحده في اسلوبه، لم يشأ ان تستعبده تقاليد الكتابة السائدة في عصره، فحرر اسلوبه من القيود.

وقد افادت المقدمة فائدة اخرى، وهي إن هذه الطريقة التحليلية التي لجأ إليها ابن خلدون لم تجعل التاريخ خبراً يُروى فحسب، ولكنها اشارت الى الأسباب والعلل والنتائج، وبذلك جعلت التاريخ مدرسة يفيد منها القارىء الفطن، ويتعظ بها من يتلمس الموعظة من الملوك والوزراء والعلماء وذوي المناصب الخطيرة في الدولة.

ثانيا – الخطط

للمقريزي

الخطط :

هي كتاب المقريزي المسمى بكتاب « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » وقد ذكر المقريزي في مقدمة هذا الكتاب ان الذي دفعه الى تأليفه حبّه لمصر وشغفه بها لأنها مسقط رأسه، فأحب أخبارها، وتتبعها في كل مظنة لها ، وأخذ يقيد ما يحصل عليه حتى تجمع له من ذلك شيء كثير لم يسبق لانسان قبله ، فأراد ان يجمع هذه الاخبار في كتاب ، حتى اذا وقف عليها القارىء عرف ما كان بأرض مصر من الآثار الباقية والمندثرة ، ولكنه لما بحث عن أخبار مصر وجدها مختلفة متفرقة ، فلم يستطع ان يرتبها حسب السنين ، كما كانت الطريقة المتبعة لدى المؤرخين قبله لعدم ضبط وقت كل حادثة لعراقتها في القدم ، كما لم يتهيأ له ان يضعها على أسماء الناس ، فآثر ان يجمع تلك الحقائق التاريخية في ابواب تجمعها الخطط والآثار ، فاذا وصف أثراً أو بناء أو شارعاً أو بلداً أو مسجداً أفاض في ذكر تاريخه ، وتاريخ مؤسسه، وما توالى عليه من الأحوال ، فاذا تكلم عن القاهرة ذكر اصل وضعها وما تقلّبت عليه ، فاقتضى ذلك ذكر تاريخ الدولة الفاطمية والدول التي خلفتها الى أيامه ، وقس على ذلك سائر ما ذكره من آثار وبلدان .

ويحتوي الكتاب على كثير من التراجم والتواريخ التي لا تجدها في سواه ، ففيه تاريخ وجغرافية وفلسفة واجتماع ودين ، وقد قسّمه سبعة أجزاء : يشتمل اولها على جمل من اخبار مصر واحوال نيلها وخراجها وجبالها ، وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها ، وثالثها أخبار الفسطاط ومن ملكها ، ورابعها على اخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من آثار ، وخامسها يشتمل على ذكر ما أدرك عليه القاهرة

وظواهرها من الاحوال ، أي القاهرة في عهده ، وسادسها على ذكر قلعة الجبل وملوكها ، وسابعها على ذكر الاسباب التي نشأ عنها خراب إقليم مصر (كما يزعم) .

وقد سلك المقريزي في كتابة الخطط طريقة البحث العلمي الحديث ؛ اذ نسب كل خبر الى صاحبه ، وأسند كل حقيقة الى مصدرها ولو كانت نادرة ، فيذكر اسم الكتاب الذي نقلها منه ، واعتمد كذلك على مشاهداته الخاصة ومعاينته للآثار ، ولذلك حفل الكتاب بأمور لا توجد في غيره ، وتحرى فيه الحقيقة ما وسعه الجهد .

صاحب الخطط :

هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي ، أهله من بعلبك ، ويعرف بالمقريزي نسبة الى حارة كانت تعرف بحارة المقارزة ، وكان جده من كبار رجال الحديث ببعلبك ، ثم انتقل والده الى القاهرة ، وبها ولد له تقي الدين سنة ٧٦٦ هـ ، وأخذ الحديث عن جده لأمة شمس الدين بن الصائغ ، وحج وسمع في مكة من كثيرين من العلماء الأجلاء ، وكان حنفي المذهب ، ثم تحوّل شافعياً ، وقد درس عدة فنون ، وكتب بخطه كثيراً من الفنون، ونظم ونثر ، وتعلم واشتغل بالتدريس ، وتولى النيابة في الحكم،وكتابة التوقيع والحسبة في القاهرة ، والخطابة بجامع عمرو ، والسلطان حسن ، والإمامة بجامع الحاكم ، وقراءة الحديث بجامع المؤيد .

واتصل بالظاهر برقوق ، ودخل دمشق مع ولده الملك الناصر سنة ٨١٦ هـ وعاد معه ، وقد أصاب ثروة ، وتنقل في مناصب كثيرة في دمشق ، واستقرّ بالقاهرة ، وانقطع للعلم ، واشتغل بالتاريخ ، وألف فيه مؤلفات قيمة منها هذا الكتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، ومنها (السلوك لمعرفة دول الملوك) وهو تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ — ٨٤٤ هـ وهو تكمله لكتابيه : « عقد جواهر الإسقاط »

و « اتعاظ الحنفاء » ، إذ يشتملان على من ملك مصر من الأمراء والخلفاء، وما كان في ايامهم من حوادث منذ التاريخ الإسلامي الى ان زالت دولة الفاطميين .

وفي كتاب (السلوك) تتمة لهذا التاريخ،ورتبه حسب السنين .

وقد ترك المقريزي عدداً من الكتب المؤلفة يبلغ نحو ثلاثين كتاباً ، تدل كلها على ثقافة واسعة ، ودقـــة في البحث وصبر عليه ، وتوفي المقريزي في سنة ٨٤٥ هـ بالقاهرة .

نموذج تطبيقي :

ذكر ما قيل في نسب الخلفاء الفاطميين :

اعلم ان القوم ينسبون الى الحسين بن علي بن ابـي طالب رضي الله عنهما ، والناس فريقان في امرهم ، فريق يثبت صحة ذلك وفريق يمنعه وينفيهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويزعم انهم ادعيـاء من ولد ديصان البوني الذي ينسب الى البونة ، وان ديصان كان لـــه ابن اسمه ميمون القداح ، وكان له مذهب في الغلو ، فولد ميمون عبدالله، وكان عبدالله عالماً بجميع الشرائع والسنن والمـذاهب ، وانه رتب سبـع دعوات يندرج الإنسان فيها حتى ينحل عن الأديان كلها ويصير معطلاً إباحياً ، لا يرجو ثواباً ، ولا يخاف عقاباً ، ويرى انه واهل نحلتهعلى هدى ، وجميع من خالفهم اهل ضلالة ، وانه قصد بذلك ان يجعـــل له اتباعاً ، وكان يدعو الى الإمام من آل البيت محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وانه كان من الأهواز ، واشتهر بالعلم والتشيع ، وصار له دعاة ، وقصد بالمكروه ففر الى البصرة فاشتهر امره وسار منها الى سلمية من ارض الشام ، فولد له ابن بها سماه احمد ، ومات فقام من بعده احمد ؛ وبعث بالحسين الاهوازي داعية الى العراق ، فلقي أحمـــد ابن الاشعث المعروف بقرمط في سواد الكوفة ،ودعاه الى مذهبه فأجابه، وقام هناك بالأمر .

وإلى قرمط هذا تنسب القرامطة ، وولد لأحمد بن عبدالله بن ميمون القداح الحسين ومحمد المعروف بأبـي الشلعلع ، فلما مات احمد خلفه ابنه

الحسين في الدعوة حتى مات ، فقام من بعده اخوه ابو الشلعلع ، وكان لأحمد بن عبدالله ولد اسمه سعيد ، فصار تحت حجر عمه ، وبعث ابو الشلعلع بداعيين الى المغرب ، وهما ابو عبدالله واخوه ابو العباس فنزلا في البربر ودعوها ، واشتهر سعيد بسلمية بعد موت عمه ، وكثر ماله، فطلبه السلطان ففر من سلمية الى مصر يريد المغرب ، وكان على مصر عيسى النوشري ، فورد عليه كتاب الخليفة ببغداد بالقبض عليه ففاته ، وصار بسجلماسة في زي التجار ، فبعث المعتضد من بغداد في طلبه ، وحبس ، حتى اخرجه ابو عبدالله الشيعي من محبسه ، فتسمى حينئذ بعبدالله ، وتكنى بأبي محمد ، وتلقب بالمهدي ، وصار إماماً علوياً من ولد محمد بن جعفر الصادق ، وإنما هو سعيد بن الحسين بن احمد بن عبدالله بن مأمون القداح بن ديصان البوني الأهوازي ، واصله من المجوس ، فهذا قول من ينكر نسبهم ، وبعض منكري نسبهم في العلوية يقول : ان عبدالله من اليهود ، وان الحسين بن احمد المذكور تزوج امرأة يهودية من نساء سلمية كان لها ابن من يهودي حداد مات وتركه لها فرباه الحسين ، وأدبه وعلمه ثم مات من غير ولد ، فعهد الى ابن امرأته هذا فكان هو عبدالله المهدي .

وهذه أقوال إن أنصفت تبين لك انها موضوعة ، فان بني علي بن ابي طالب رضي الله عنه قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد، وجلالة القدر عند الشيعة، فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسي او لابن يهودي ؟ فهذا ما لا يفعله أحد ، ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف ، وإنما جاء هذا من قبل ضعفة خلفاء بني العباس عندما غصوا بمكان الفاطميين ، فانهم كانوا قد اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة ، وملكوا من بني العباس بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن ، وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة ، وعجزت عساكر بني العباس عن مقاومتهم ، فلاذت حينئذ بتنفير الكافة عنهم باشاعة الطعن في نسبهم ، وبث ذلك عنهم خلفاؤهم ، وأعجب به اولياؤهم وامراء دولتهم الذين كانوا يحاربون عساكر الفاطميين، كي

يدفعوا بذلك عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن مقاومتهم ودفعهم عما غلبوا عليه من ديار مصر والشام والحرمين. حتى اشتهر ذلك ببغداد، وأسجل القضاة بنفيهم من نسب العلويين ، وشهد بذلك جماعة من أعلام الناس منهم الشريفان: الرضي والمرتضى،وأبو حامد الأسفرايني والقدوري في عدة وافرة عندما جمعوا لذلك في سنة اثنتين واربعمائة ايام القادر .

وكانت شهادة القوم في ذلك على السماع ، لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وأهلها ، إنما هم شيعة بني العباس ، الطاعنون في هذا النسب ، والمتطيرون من بني علي ابن أبي طالب ، الفاعلون فيهم منذ ابتداء دولتهم الأفاعيل القبيحة .

فنقل الإخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه ، ورووه حسب ما تلقوه ، من غير تدبر ، والحق من وراء ذلك ، وكفاك بكتاب المعتضد من خلائف بني العباس حجة ، فانه كتب في شأن عبيدالله الى ابن الأغلب بالقيروان، وابن مدرار بسجلماسة بالقبض على عبيدالله فتفطن — أعزك الله — لصحة الشاهد ، فان المعتضد لولا صحة نسب عبيدالله عنده ما كتب لمن ذكرنا بالقبض عليه ، اذ القوم حينئذ لا يدعون لدعي ألبتة ، ولا يذعنون له بوجه ، وانما ينقادون لمن كان علوياً ، فخاف مما وقع ، ولو كان عنده من الأدعياء لما مر له بفكر ، ولا خافه على ضيعة من ضياع الأرض .

التعليق :

كان هذا النص عقب الحديث عن القاهرة ، وكيف أسست ، ولما كان الفاطميون هم الذين وضعوا أساسها ، أخذ يذكر دولتهم ، وابتدأ بذكر أصلهم ، وساق المفتريات التي قيلت عن نسبهم ، ثم أخذ في دحضها ، وذكر ان العباسيين حسدوا الفاطميين على دولتهم القوية ، فروجوا هذه المفتريات، واستدل بشهادة الشريفين : الرضي والمرتضى ،

وبشهادة غيرهما في مجتمع كبير ببغداد تأييداً لتلك المفتريات. وابن الاثير من قبله دحض هذه الفرية ، واستشهد بأبيات للشريف الرضي يثبت فيها نسب الفاطميين حيث يقول :

ما مُقَامِي عَلَى الهَوانِ وعندي   مقول صارم وأنف حَمِيُّ
أَلْبَسُ الذّل في بلاد الأعادي   وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا   ي اذا ضامني البعيد القصي
لفَّ عِرْقي بعرقه سيد النا   س جميعاً محمدٌ وعليُّ

وفي الحق انا نستبعد أن يكون الشريفان الرضي والمرتضى قد رضيا بهذه الفرية وأنكرا نسب الفاطميين ، على ان المقريزي في دحضه لحجج خصومهم كان عالماً مدققاً،أخذ يسوق الأدلة العقلية والمنطقية ،ويستعرض الملابسات وبواطن الامور فجاءت حججه قوية للغاية ، وهو بهذا يسير على النهج السوي في نقد التاريخ ، ولا يصدق كل ما يروى . وكيف يعقل أن يجمع علماء الأمة وكبار العلويين وفيهم من هو أهل للولاية والخلافة ويؤسس دولة ؟ وأي دولة ؟ دولة تنتسب الى السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان هذا مما لا يصدقه العقل ، ولم يقل به الا الموتورون .

ونلاحظ ان المقريزي يبتعد في أسلوبه الكتابي عن أسلوب معاصريه، ويصطنع النثر المرسل كما فعل ابن خلدون،وانه ملم بالتاريخ إلماماً تاماً ، وانه يحاول أن ينفذ الى الحقيقة ما وسعه الجهد .

وهو بهذا يعدّ من علماء التاريخ الأفذاذ ، وآثاره الكثيرة التي ألمعنا اليها آنفاً تؤيد هذا .

ثالثا – المعجب

لعبد الواحد المراكشي

صاحب المعجب :

اسمه عبد الواحد بن علي ، ينتسب إلى تميم ، ويلقب (محيي الدين) وأصله من مراكش كذلك وجد اسمه في كتابه (المعجب) .

وإن ذلك الكتاب ليعد تاريخ المغرب الكبير إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجري ، وهو أيضاً تاريخ الأديب المغربي المجهول (عبد الواحد المراكشي) لا مرجع لتاريخه غيره .. فمنه نعرف أنه ولد في مراكش سنة ٥٨١ هـ في بدء حكم أبي يوسف المنصور الموحدي، وانه غادر مراكش وهو في التاسعة الى فاس ، حيث قرأ القرآن وجوده، ثم عاد لمراكش ، ولكنه لم يقطع صلته بفاس .. وانه عبر الى الأندلس حين بلغ الثانية والعشرين ، حيث التقى بجماعة من أهل الفضل لهم ذكر وصيت،وحيث اتصل سببه بالأمير أبي اسحاق بن أبي يوسف المنصور الموحدي ، وكان يومئذ حاكماً لأشبيلية فصفا بينهما الودّ ، وتوثقت اواصر المحبة ثم نزح الى قرطبة ، حيث لزم حلقة شيخه واستاذه أبي جعفر الحميري ، ثم عاد الى مراكش في سنة ٧١٠ هـ وقد أتيح له أن يتصل بالسلطان يوسف الثاني ، ثم ما لبث أن ودّع المغرب والأندلس لأسباب غير معلومة فركب البحر الى الشرق ، الى مصر والحجاز والعراق حيث توفي في مصر على أرجح الآراء ولا يعرف تاريخ وفاته على التحديد .

أسباب تأليف المعجب :

ألف كتابه المعجب في مصر[1] استجابة لدعاء أحد وزرائها الذي

(١) وقيل في بغداد .

أصفاه الود ، واستجابة في الوقت نفسه لتلك العاطفة التي كانت تدفىء صدره شوقاً وحنيناً إلى بلاده ، فالكتاب كتاب أدب وتاريخ ، ألفه المراكشي مدعواً إليه ليكون تعريفاً لأهل المشرق بأحوال المغرب ، وقد مات مؤلفه ، وليس لنا من أسباب العلم به إلا اللمحات الضئيلة التي تلمع من ثنايا كتابه ، ومات السيد الكريم الذي أُلف من اجله الكتاب كذلك فلسنا نعرف اسمه ولا رسمه ولا موطنه، ولا صلته بأحداث عصره إلا ما يتراءى لنا من ذلك في ثنايا الكتاب كذلك ، على سبيل الحدس والتخمين لا على وجه القطع واليقين . وقد ألّف المؤلف كتابه، ليذكر به وطنه وهو بعيد عنه ، قد فارقه منذ بضع سنين غير آمل — فيما يبدو — الرجوع اليه ، فجاء صورة من الشوق الى صور من الذكريات تفيض بها نفس جياشة بالحنين ، فهو إذن كتاب أدب وفن ، وهو كتاب تاريخ وسياسة ، وهو إلى هذا وذاك تقويم جغرافي ، اقتصادي، اجتماعي ، لذلك المغرب الكبير في تلك الحقبة الزاهرة من تاريخه .

نموذج تطبيقي :

(١) موقعة الزلاقة

إن يوسف بن تاشفين استعرض جنده على حسن الرقة ، فرأى منهم ما يسره ، فقال للمعتمد على الله : هلمّ ما جئنا له من الجهاد ، وقصد العدو ، وجعل يظْهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ، ويتشوّق الى مراكش ، ويُصغّر قدر الأندلس . ويقول في أكثر أوقاته: (كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل ان نراها ، فلما رأيناها وقعت دون الوصف) وهو في ذلك كله « يُسِرُّ حسْواً في ارتغاء ! » فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة،واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس .

وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات ، وأمدّ ملوكُ الجزيرة

يوسفَ والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح ، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة زهاء عشرين الفاً ، والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم .

وكان الأدفنش(١) — لعنه الله — قد استنفر الصغير والكبير ، ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض الا استنهضه ، وجاء يجر الشوك والشجر ، وانما كان مقصوده الأعظم قطع تشوّف البرابرة عن جزيرة الاندلس ، والتهيب عليهم ، فأما ملوك الأندلس، فلم يكن منهم أحد الا يؤدي اليه الإتاوة ، وهم كانوا أحقر في عينه ، وأقلّ من أن يُحتفل لهم .

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى ، رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم ، من كثرة عدد ، وجودة سلاح وخيل ، وظهور قوة ، فقال للمعتمد : ما كنت أظن هذا الخنزير — لعنه الله — يبلغ هذا الحد !

وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويذكرهم ، فظهر منهم من صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سرّ به يوسف والمسلمون .

وكان ترائيهم يوم الخميس ، وهو الثاني عشر من شهر رمضان ، فاختلفت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف ، ليستعد الفريقان ، فكان من قول الأدفنش — لعنه الله — الجمعة لكم والسبت لليهود ، وهم وزراؤنا وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم ، والأحد لنا ، فاذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف ، وقصد — لعنه الله — مخادعة المسلمين واغتيالهم ، فلم يتم له ما قصد ..

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال ، وبَنَى يوسف بن تاشفين الأمر على ان الملوك لا تغدر، فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة ، فأما المعتمد فانه أخذ بالحزم ، فركب هو وأصحابه شاكي السلاح ، وقال لأمير المسلمين : صَلّ في

(١) هو ألفونس السادس ملك قشتالة .

أصحابك ، فهذا يوم ما تطيب نفسي فيه ، وها انا من ورائكم ، وما أظن هذا الخنزير الا قد أضمر الفتك بالمسلمين ، فأخذ يوسف وأصحابه في الصلاة ، فلما عقدوا الركعة الاولى ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى ، وحمل الإدفنش — لعنه الله — في أصحابه ، يظن انه قد انتهز الفرصة ، واذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس ، فأغنى ذلك اليوم غناء لم يُشْهد لأحد من قبله ، وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووْا على متون الخيل ، واختلط الفريقان،فأظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء ، والثبات ، ما لم يكن يحسبه المعتمد ، وهزم الله العدو ، وأتبعهم المسلمون يقتلونهم في كل وجه ، ونجا الإدفنش — لعنه الله — في تسعة من أصحابه ، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس . أعزّ الله فيه دينه ، وأعلى كلمته ، وقطع طمع الإدفنش — لعنه الله — عن الجزيرة ، بعد ان كان يقدر أنها ملكه،وان رؤوسها خدم له ، وذلك كله بحسن نيّة أمير المسلمين .

وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة، وكان لقاء المسلمين عدوهم كما ذكرنا في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠ ه، ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحاً لهم وبهم .

(ب) مدينة فاس

ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا ، وموضع العالم منه ، اجتمع فيها علم القيروان ، وعلم قرطبة ، اذ كانت قرطبة ، حاضرة الأندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان — كما ذكرنا — بعَبَثِ العرب فيها ، واضطراب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت ابن ابي عامر وابنه رحل من هذه ومن هذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل اكثرهم مدينة فاس ، فهي اليوم على غاية الحضارة ..

وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق واوسع معايش واخصب جهات ، وذلك انها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ، وتتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من اربعين عيناً يتعلق عليها أبوابها ، ويحيط بها سورها ، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا اعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج لشيء يجلب اليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه ، فإنها لا تحتاج الى مدينة في شيء مما تدعو اليه الضرورة ، بل هي توسع البلاد مرافق ، وتملؤها خيراً .

التعليق :

إن المعجب كتاب فريد بين كتب التاريخ في موضوعه وهو عبارة عن ثلاثة أقسام :

القسم الأول منه : في الكلام على الاندلس وخلفائها من الأمويين الى انقراض دولتهم ، وقيام ملوك الطوائف ، ويعد هذا القسم بمثابة المقدمة لموضوع الكتاب الأصلي .

والقسم الثاني : يتحدث فيه المراكشي عن قيام المهدي بن تومرت الى ايام الخليفة ابي يعقوب يوسف الثاني ، وهذا القسم هو موضوع الكتاب الأصيل وعلى هذا فأحسن ما في الكتاب هو الجزء المتعلق بتاريخ الموحدين من ملوكهم وعلمائهم وأدبائهم وشعرائهم مع وصف للحضارة العمرانية في ذلك العصر ، فهناك وصف للبيمارستان المراكشي والحدائق والقصور .

والقسم الثالث : خاتمة جغرافية موجزة في وصف الأندلس ومدنها ، وفي وصف أنهار المغرب ومناخه ، وإلقاء نظرة عامة على الأقاليم المغربية.

ومن ثمّ يعدّ (المعجب) أوفى مرجع من مراجع التاريخ عن دولة الموحدين لا يمكن أن يستغني عنه باحث في تاريخ تلك الحقبة من تاريخ المغرب ، وهو الى ذلك موجز من روايات شتى عن تاريخ المغرب قبل

دولة الموحدين وقد ضاعت مصادره ، فصار بذلك اصلاً من اصول تاريخ المغرب قبل دولة الموحدين ، وهو إلى ذلك وذاك كتاب أديب مغربي لم يكن تدوين التاريخ فنّه الأصيل ، ولكنه طلب اليه — في غربته — أن يصف تاريخ بلاده في كتاب ، فزاوج بين الادب والتاريخ في ذلك الكتاب .

إن كتاب المغرب طبقتان : فمنهم من اتبع طريقة التسجيع على قاعدة الفتح بن خاقان ومن نحا نحوه ، ومنهم من آثر الوضوح والإيفاء بالمعنى دون الاهتمام بالمحسنات البديعية ، ومؤرخنا المراكشي من مجيدي هذه الطبقة الثانية ، فإنه يتباعد عن استعمال السجع ، ويختار الألفاظ الأكثر دلالة على ما يقصد ، ويتجنب الحشو ، ويؤثر المعنى على اللفظ دون أن يسفل او تضعف عبارته ، فأسلوبه هو (الاسلوب العلمي المتأدب) كما رأيت في النموذجين السابقين ، لا يعتمل فيه التكلف ، ولا يميل إلى الزخرفة ، وإنما هي السانحة ، والتعبير الواضح ، وأداء الفكرة التاريخية في وضوح تام .

ويمكن ان نعتبره من نقاد الأدب في ذلك العصر ، وفي كتابه ادلة كثيرة على ذلك فنراه يقول :

« فمن كتب لأمير المسلمين يوسف كاتبه المعتمد على الله ، أبو بكر المعروف بابن القصيرة أحد رجال الفصاحة ، والحائز قصب السبق في البلاغة ، كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ ، وصحيح المعاني من غير التفات للاسجاع التي اخذها متأخرو الكتاب ، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء » فهو يعرف مقاييس النقد كما وضعها عصره ، فلا غرو ان يتجنب العيوب ، ويسمو الى الكمال في التعبير عن آرائه التاريخية .

موضوعات للبحث

١ — قال احد المؤرخين : « إن التاريخ يعيد نفسه » .
اشرح هذا القول ، ووضح علاقته بالتاريخ .

٢ — في « المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي أدب وتاريخ . ناقش هذا الرأي .

٣ — يرى اكثر الباحثين «ان ابن خلدون أشهر من كتبوا في اصول علم التاريخ وفلسفته ، وانه لا يعد مفكراً عميقاً فحسب ، بل يعد من أقدر المنشئين على كتابة المقالة وانه ارتقى بالنثر من التأنق والزخرفة الى الترسل والانطلاق » ناقش .

٤ — سلك المقريزي في كتابه الخطط طريقة البحث العلمي الحديث، اذ نسب كل خبر الى صاحبه ، واسند كل حقيقة الى مصدرها ولو كانت نادرة — ناقش .

للمطالعة

١ — مقدمة ابن خلدون
٢ — الخطط للمقريزي
٣ — عبد الواحد المراكشي : لعبدالله كنون .
٤ — مقدمة المعجب : للأستاذ سعيد العريان (طبعة القاهرة) .
٥ — مقدمة المعجب : للأستاذ محمد الفاسي (طبعة المغرب) .
٦ — الأدب المغربي : لمحمد الصادق عفيفي وابن تاويت .
٧ — تاريخ الاسلام السياسي : للدكتور حسن ابراهيم .
٨ — مقدمة ابن خلدون : للدكتور علي عبد الواحد وافي .

الفصل التاسع

الاسلوب الأدبي والعلمي

الاسلوب الأدبي :

هو الذي يصور المعاني الذهنية ، متأثرة بعواطف الكاتب ،ومن أهم خصائصه الفكرة الجيدة المتأثرة بالتجربة الذاتية والممتزجة بالعاطفة،وغايته نقل الحقائق في أسلوب جميل رائع قصد الإفادة والتأثير معاً ، وأظهر مميزاته الجمال ، ومنشأ جماله ما فيه من خيال بديع ، وتصوير دقيق ، وكلمات توحي وتؤثر أكثر مما توضح أو تقرر .

وقد قسموا الأسلوب الأدبي الى: اسلوب خطابي واسلوب كتابي؛ وقد مرا بك وعرفت خصائص كل منهما[1] . واسلوب شعري وستقف عليه في الدروس القادمة .

الأسلوب العلمي :

هو الذي يسجل حقائق العلوم ، وتعرض به نظرياتها وبحوثها ، ومن أهم خصائصه الدقة ، والوضوح ، وترتيب الافكار ترتيباً منطقياً،وتوخي الحقيقة واستحداث المصطلحات العلمية . وسنعود اليه بشيء من التفصيل في أثناء الإيضاح .

الموازنة بين الاسلوبين

العلمي والأدبي

١ ــ الاسلوب العلمي لغة المنطق ، والغرض منه التعليم وايصال الحقائق الى القارئين والسامعين ، ولهذا كانت غايته التجرد والموضوعية

(١) راجع الفصل الاول .

والوضوح ، أما الأسلوب الأدبي فلغة العاطفة ، وغايته إثارة الانفعال بعرض الصور الجمالية والأخيلة البديعة ، قصد الإفادة والتأثير .

٢ — الأسلوب العلمي يتوخى الحقائق البحتة ، ويصطنع المصطلحات العلمية التي هي مظهر العقل المدقق ، اما الاسلوب الأدبي فيميل الى استخدام الخيال واصطناع البديع ، وحسن اختيار الكلمات الموسيقية التي هي مظهر الانفعال العميق والتجربة الحية .

٣ — الأسلوب العلمي يمتاز بالدقة والتحديد والإحصائيات والترتيب، اما الأسلوب الأدبي فيعنى بالتفخيم والتعميم ، والوقوف عند مواطن الجمال والجلال .

٤ — الأسلوب العلمي هو أهدأ الاساليب واكثرها احتياجاً الى الفكر المستقيم ، والوضوح ، والتقسيم ، أما الاسلوب الادبي فينشد الجزالة والقوة وصدق الفكرة وعمقها وحسن العرض .

نماذج تطبيقيّة

اولا – عبد السلام الديوري

تحطيم الذرة

من المعروف ان فكرة انفجار المفرقعات التي تحتوي على البارود تتلخص في ازدياد حجم المواد التي يشتمل عليها مخلوط البارود ، وذلك بتحويلها الى مواد غازية ، فيكبر حجمها ، وتبعاً لذلك يزداد الضغط على جوانب الآنية التي تحتوي عليها ، فتتهشم تلك الجوانب مُحدثة فرقعة تدمر كل شيء بإذن ربها ، اما في حالة القنبلة الذرية فيختلف الأمر كل الاختلاف وهو ما نود تبسيطه ، بحيث لا نبتعد عن الحقيقة كثيراً .

والذي يهمنا في هذا المقام هو الذرة والذرة وحدها وسرّ فتكها لمن حولها عند انطلاقها من قيدها إذ هي اصل الكون، ومنها تتركب الجزئيات التي تكونه وكثير من الذرات المتشابهة أو المختلفة تستطيع ان تتحد لتكون جزئيات فجزئي الأيدروجين مثلاً يحتوي على ذرتين من الأيدروجين، وجزئي الماء يحتوي على ذرتين من الأيدروجين، وذرة من الأوكسجين .

والتركيب الداخلي للذرة عبارة عن نواة ذات شحنة موجبة ينجذب نحوها الكترون او الكترونات ذات شحنة سالبة .

وبالنواة تتحدد خواص الأجسام ، ولكل عنصر من العناصر المعروفة نواته ، وما دامت هذه لا تتغير فإن العنصر يبقى محافظاً على خواصه الأصلية ، وتشغل النواة حجماً صغيراً جداً بالنسبة لحجم الذرة ، ولا يزال شكلها مجهولاً ، ويتساءل العلماء هل هو مشابه لشكل السيجارة أم للكعكة ، وتتركز اغلب الكتلة في نواتها بحيث أن كتلة جميع الألكترونات التي تحويها الذرة تساوي حوالي $\frac{١}{٤٠٠٠}$ من كتلتها ، والشحنة الكهربائية

للنواة موجبة ، وتساوي في الذّرات المتزنة (ZE) حيث (E) شحنة كهربائية مطلقة و (Z) عدد الألكترونات المنجذبة نحو النواة .

وكان في اعتقاد العلماء ان الذرة لا تقبل التجزئة وانها مصمتة الى سنة ١٨٩٧ حيث ان الذرة تحوي فراغاً داخلياً ، وقابلة لأن تتحطم ، ولكن قابليتها للتحطم تختلف حسب طبيعة العنصر الذي تكونه ، فعنصر الراديوم مثلاً تتحطم ذراته باستمرار من تلقاء نفسها، وتنطلق منها ثلاثة أنواع من الأشعة ، وهذا التحطم هو ما نسميه بالنشاط الإشعاعي ، كذلك عنصر الاورانيوم وهو المستخدم في صنع القنبلة الذرية من المواد ذات النشاط الإشعاعي الطبيعي ، ولكن إشعاعه أقلّ بملايين المرات من نشاط عنصر الراديوم ، ولعل قلة إشعاعه، وثقله بالنسبة الى باقي العناصر من جملة خواصه التي مكنت العلماء من ان يتحكموا في نشاطه ، وان ينظموا تحطيمه وقد استخدموا عملية التفريغ الكهربائي للغازات مع ضغوط كهربائية عالية للحصول على القذائف المطلوبة ، واعظم جهاز استخدم لهذا الغرض هو السيكلوترون وقد بنى العالم لورنس في عام ١٩٢٠ أول سيكلوترون ، ويظن بأن هذا الجهاز العظيم يعالج مادة اليورانيوم قبل وضعها في القنبلة الذرية .

الكتلة والطاقة :

اذا أضفنا ١٦ غراماً من الاكسجين الى غرامين من الإيدروجين فاننا نحصل على الماء ، وبالعكس يمكن الحصول من الماء على ١٦ غراماً من الاوكسجين و ٢ غرام من الإيدروجين بواسطة التحليل، وهذا هو مبدأ: حفظ الكتلة ، وكلما تقدمت علوم الطبيعة كلما اكتشفت انواع جديدة من الطاقة ، وجميع تلك الانواع يمكن تحويل بعضها الى بعض ، وما حدث عند تحويل الكتلة يحدث ما يشابهه عند تحول الطاقة بغض النظر عن بعض المفقود من الطاقة ، وهذا هو مبدأ حفظ الطاقة .

والى أوائل القرن التاسع عشر والمبدآن المذكوران منفصلان عن بعضهما

انفصالاً كلياً ، ولكن في عام ١٩٠٥ م ظهــر العالم الرياضي المشهور إينشتاين بنظرية النسبية فقلب جميع الاوضاع مستنداً في ذلك الى الرياضيات العالية لتحقيق الاتزان بين الكتلة والطاقة ، وخرج بمعادلته الآتية :

: الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء
فاذا اعتبرنا غراماً من المادة فان : طاقته = ١ × (٢ × ١٠)٢
= (١ × ١٠)٢ أرج
= ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٥ كيلوات ساعة

والكيلوات ساعة هو الوحدة المستخدمة في الصناعة ، وهو عبارة عن الشغل الذي تبذله آلة قدرتها واحد كيلوات في زمن قدره ساعة .

والطاقة التي تكونت على حساب المادة في المثال السابق هي (الطاقة الذرية) التي كانت محبوسة داخل الذرة بسبب قوة التجاذب التي بين النواة وإلكتروناتها ، فاذا استطعنا ان نبعد إلكترونات أي ذرة عن مجالها فان طاقتها المحبوسة تنطلق بشدة عظيمة من عقالها ، ونورد على سبيل المثال ذرة الفحم: فان طاقتها المحبوسة تقدر بعدة مليارات من المرات ، وقد حسب العلماء الطاقة الناتجة من تحطيم ذرات غرام من الفحم فوجدوها تكفي لتسيير قطار كبير حول الكرة الأرضية عدة مرات، فأساس القنبلة الذرية تحويل المادة الى طاقة ، والطاقة التي حصل عليها العلماء من تحطيم ذرة اليورانيوم لا تمثل سوى واحد في المائة من كتلة هذه المادة .

فماذا كانت تفعل القنبلة الذرية التي ألقيت على مدينة هيروشيما اليابانية لو ان نسبة تحويل المادة الى طاقة زادت من واحد في المائة الى عشرة في المائة ؟! أظن ان الهلاك كان يتعدى المدينة المذكورة الى المدن المجاورة.

صاحب القطعة :

عبد السلام الديوري ، وهو في العقد الخامس من حياته ، وقد تلقى

ثقافته الأولى بالمغرب ، ثم رحل الى سورية ، وتخرج من جامعة دمشق في العلوم ، وعاد الى المغرب ليسهم بقلمه وعلمه في بناء النهضة المغربية الحديثة ، ومارس كثيراً من الأعمال ما بين مدرس للعلوم ومهندس ، وهو يكتب بغزارة ، وله مقالات علمية كثيرة تنشرها له الصحف المغربية من آن لآخر .

اسلوب القطعة :

تناول ايضاح الحقائق العلمية حول (تحطيم الذرة) فوصفه وصفاً مستوعباً ، بألفاظ غاية في الدقة والوضوح ، لا ظل فيها لتصوير مبالغ فيه او خيال ، ولا اثر فيها لزخرفة او عاطفة ، فهو اسلوب علمي خالص، لأنه اكتفى بتوضيح الحقائق العلمية ، ولم يتجاوزها الى مظاهر الجمال الفني كقوله مثلاً : « والتركيب الداخلي للذرة عبارة عن نواة ذات شحنة موجبة ينجذب نحوها الكترونات ذات شحنة سالبة ، وبالنواة تتحدد خواص الأجسام ، ولكل عنصر من العناصر المعروفة نواته ، وما دامت هذه لا تتغير فإن العنصر يبقى محافظاً على خواصه الأصلية » .

فالأسلوب العلمي يمتاز اذاً بالوضوح والدقة في التعبير ، وترتيب الأفكار ، وكثرة التقسيم ، والاعتماد على التجارب والإحصائيات والمشاهدات ، والغرض منه التعليم وايصال الحقائق الى القارئين والسامعين ؛ لذلك لا يؤثر في عاطفة ، ولا يصور عاطفة ، ولا يجنح الى الخيال ، ويتردد فيه بين الحين والحين ذكر المصطلحات العلمية الفنية مثل (شحنة موجبة — شحنة سالبة — الالكترونات — عصر الاورانيوم — الكتلة والطاقة) .

ثانياً — احمد امين

مراكز الحياة العقلية

في فجر الاسلام

نلاحظ ان الدين والفن والعلم والأدب تَنْبُع دائماً من المدن وتزدهر فيها ، كان ذلك في القديم ، وهو كذلك في الحديث ، فأنتَ الآن ترى الافكار الجديدة وآراء المصلحين انما تنشأ في المدن اولاً ، وكذلك معاهد الادب والعلم والفن من مدارس وجامعات ومكتبات وصحف ومتاحف ، انما تعظم وتكثر في المدن لا في القرى ، ولذلك اسباب : اهمها ان المدن اكثر ناساً ، واوفر عمراناً ، وقد نشأت كثرة الناس والعمران من وفرة المؤن ، اما لسبب مباشر كخصب الارض وجودتها ، وكثرة غلاتها ، او غير مباشر كأن تَتَبادل المدينة بمصنوعاتها مع امة اخرى خصبة الارض كثيرة الغلات او نحو ذلك . وكثرة السكان على هذا النحو تستتبع نوعاً من الغنى يستطيع معه اهله ان يجدوا زمناً يصرفونه في غير كسب القوت ، كما يستتبع نوعاً من الرقيّ السياسي يستطيع الناس معه ان يتبادلوا الآراء والافكار ، وينظروا الى الحياة غيرَ هذا النظر المادي الوضيع ، فينشأ الرأي ، وينشأ العلم ، ويزدهر الادب .

كذلك تختلف المدن في نوع ما تمتاز به من العلوم ، فقد تمتاز مدينة بعلم واخرى بعلم آخر ، وثالثة بفن او ادب ، وهكذا ، فأنت اذا رأيت الحديث مثلاً ونوعاً من التاريخ الإسلامي كان يكثر في الحجاز في ذلك العصر ، وان المذاهب الدينية نبع اكثرها في العراق ، وان النحو نبع في البصرة ، فلا تظن ان ذلك مجرّد اتفاق — بل الواقع ان هناك اسباباً اجتماعية انتجت ذلك ، ولم يكن في الإمكان ان يكون غير ما كان .

واختلافُ المدن في الشهرة العلمية ونوع العلم الذي يمتاز به يرجع الى

اسباب ، أهمها بالنظر الى العصر الذي نبحث فيه تكوُّنُ المدنية الإسلامية على أطلال مدنيات قديمة طبعت البلاد بطابع خاص ، كالذي كان في مدن العراق والشام ، فلما فتحها المسلمون لم تتجرد من طابعها وعقليتها القديمة، ولكن أثر فيها الإسلام أثراً جديداً فكانت العقلية الجديدة نتيجة العاملين معاً .

ومنها ان العلماء الأولين من الصحابة ومن يلحق بهم مع اختلاف شخصياتهم العلمية التي بيننا ، نزلوا في البلاد المختلفة ، وكوّنوا فيها مدارس ومذاهب تبعاً لمزاجهم العقلي ، فتأثرت البلاد التي نزلوا فيها بشخصياتهم ، ونهجوا في العلم مناهجهم .

ومنها ظهور أحداث سياسية وغير سياسية كان لها اثر كبير في امتياز بعض المدن بنوع من العلم ونَمَط من التفكير ، فظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة وهجرته الى المدينة ، جعل لمكة والمدينة صبغة علمية خاصة ، وكثرة الاحداث السياسية في العراق وتلاحق الفتن فيه ، كان له الأثر الكبير في نشوء المذاهب الدينية به .

وعلى الجملة فقد كانت أهم المراكز العقلية في ذلك العصر : مكة والمدينة في الحجاز ، والبصرة والكوفة في العراق ، ودمشق في الشام ، والفسطاط في مصر .

الحجاز :

قُطرٌ فقير خلا من الأنهار، وكُسِيَتْ ارضه غالباً بالصخور والرمال، واشتدت حرارته فلم تسمح للنبات ان ينمو الا في وديان بُعْثِرت هنا وهناك ، يعيش اكثرُ اهله عيشة بَدَوية لم يتصلوا بالعالم الذي حولهم الا بالقدر الذي أبناه من قبل، ولم تتعاقب عليهم مدنيات مختلفة تُورِثهم حضارة وعلماً ، ولم يصل اليهم من العالم المتحضِّر الا أثَارة من اليهودية والنصرانية ، وقليل من الحكمة والفلسفة من طريق غير معبد ،ومع هذا فانهم وان لم يرثُوا مدنية وعلماً عن أمم حكموهم وتعاقبوا عليهم ، فقد اورثهم استقلالهم أنَفَة وعزّة ، واعتداداً بالنفس،وحرية جاوزت الحد،

حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً اجمعين .

جاء الاسلام فكان لمدينتي الحجاز — اعني مكة والمدينة — شأن علمي كبير ، ولكنه العلم الديني المطبوع بالطابع العربي .

فأما (مكة) فلأنها كانت منبع الإسلام ، وبها كانت نشأة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبها كانت الاحداث الاولى من دعوة قريش الى الاسلام ومناهضتهم الدعوة ، وبها كان التشريع المكي ، وهو لا يُفهم فهماً حقاً حتى يفهم ما كان يحيط به من ظروف مكية ، وبعض هذا التشريع الإسلامي انما هو إقرارٌ لما كان يفعل في مكة قبل الاسلام ككثير من مناسك الحج .

وأما (المدينة) فمهاجر الرسول عليه السلام واصحابه ، وبها كان اكثر التشريع الإسلامي، وكانت منبعاً لأكثر الاحداث التاريخية في صدر الإسلام ، وبها حدّث النبي صلى الله عليه وسلم اكثر حديثه ، وهو لا يفهم تمام الفهم الا ان يُفهم ما أحاط به من ظروف المدينة ، وكانت مركز الخلافة في أهم عصر من عصور الإسلام ايام ابي بكر وعمر وعثمان ، وبها كان كثير من أكابر الصحابة قد شاهدوا ما فعل النبي وسمعوا ما قال ، وكانوا شركاء في بعض ما وقع من احداث كغزوات وفتوح ، فهم يحدثون بما سمعوا وشاهدوا .

فلا غرو اذاً ان كانت مكة والمدينة مركزين من اهم مراكز الحياة العلمية في ذلك العصر، ليقصدهما طلاب الحديث، وطلاب الفقه ، وطلاب التاريخ .

صاحب القطعة :

هو أحمد امين الذي اشتهر بكتاباته في الحياة العقلية العربية وولد سنة ١٨٨٦ في القاهرة ، بحي الخليفة وألحقه أبوه — الذي كان مدرساً في الأزهر — بالكُتّاب ثم بمدرسة ام عباس ، وعاد فأدخله الازهر ، وتركه الى مدرسة القضاء الشرعي فتخرّج فيها ، واشتغل مدرساً بها ، ثم قاضياً شرعياً ، وفي اثناء ذلك اخذ في تعلم اللغة الانكليزية ، ولما

اصبحت الجامعة المصرية حكومية انتقل اليها مدرساً للغة العربية ، وظل في كلية الآداب ، حتى اصبح عميداً لها ، ثم اختير مديراً للثقافة بوزارة التربية والتعليم ، فنهض بها ، وأسس الجامعة الشعبية ، وسافر الى اوروبا في بعض المؤتمرات،وكانت حياته العلمية خصبة فترك مؤلفات كثيرة ، واشترك في ترجمة غير كتاب ، وترجم أحياناً منفرداً ، وقد مُنِح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة ، وجائزة الدولة الادبية،وما زال يواصل جهاده في العمل الجامعي حتى توفي سنة ١٩٥٤.

أسلوب القطعة :

تناول موضوعاً علمياً ، له صلة بعلمي التاريخ والاجتماع فهو من الدراسات التاريخية التي تقوم على وصف حياة الإنسان الاجتماعية وآثاره الفكرية والمعنوية ، وكثيراً ما تبدو في هذه الدراسات الإنسانية مظاهر العاطفة التي هي مبعث الأسلوب الأدبي ، وتستطيع ان تتبين المظاهر الأدبية في النص من ان الكاتب لم يقف عند حد تقرير نظرياته عن (مراكز الحياة العقلية في فجر الإسلام) بل حرص على تأييد رأيه والتأثير في القارئين والسامعين ليؤمنوا بفكرته ، مستعيناً بألفاظ أدبية مثل (على اطلال — نمط من التفكير — طريق غير معبد) ، وبالترادف، وصور الخيال كقوله : (كسيت أرضه بالصخور والرمال) .

من هذا ترى ان الكاتب — مع محافظته على دقة العلم وصبغته لأسلوبه بالصبغة العلمية — فقد أضفى عليه طلاوة الأدب ، ولذلك يسمى اسلوباً علمياً أدبياً او (علمياً متأدباً) لجمعه بين الحقائق العلمية وبين الصياغة الأدبية .

موضوعات للبحث

١ — الأساليب العلمية نوعان : علمي بحت ، وعلمي متأدب . تخير نصين من كتب الدراسة ، ثم وضح خصائص كل مدللاً عليها :

من النموذجين .

٢ — اكتب مقالاً عن : مشروع نهر سبو الكهربائي .

٣ — العلم في خدمتك .

٤ — الكاتب في حاجة إلى روافد متنوعة من الثقافة . وضح هذه الروافد وبين اثرها في اسلوبه .

للمطالعة

١ — فجر الإسلام : لأحمد أمين .

٢ — سلسلة مقالات في الذرة : للديوري برسالة المغرب ١٩٤٧ .

٣ — الله في السماء : لأحمد زكي .

٤ — الأدب الجديد : لعمر الدسوقي .

٥ — البلاغة الواضحة : لعلي الجارم .

البابُ الثاني

الشِعْرُ وَفنونُه

الفصل العاشر

الشعر

تعريفه :

الشعر هو الكلام الموزون المقفى ، المصوّر لحركات النفس من شعور ووجدان وعاطفة ، في صور خيالية ، أو قول جميل صادر عن تجربة نفسية عاناها الشاعر ، بأسلوب بليغ مؤثر .

والشعر القديم يلتزم توحيد الوزن والقافية في القصيدة ، وقد صور الخليل بن احمد ما التزمه العرب من اوزان كما اوضحنا لك في الجزء السابق ، في خمس عشرة طريقة سماها بحور الشعر[1] . فإذا وقع من نفس الشاعر بحر من هذه البحور التزمه في جميع أبيات القصيدة ، كما تحتم عليه أن يلتزم القافية التي انتهى بها البيت الاول في جميع أبيات قصيدته .

ولقد تحرر المحدثون من هذا الالتزام في الوزن والقافية ، فهم يزنون ، وهم يقفون ، ولكنهم يجمعون بين بحور مختلفة وقواف متعددة في القصيدة الواحدة ، وقد يصدر الكلام مؤثراً معبراً عن حركات النفس مشتملاً على صور خيالية ، ولكنه لا يسير على نمط من الأوزان والقوافي ، وهذا ما يعبر عنه بالشعر المنثور .

نشأته :

نشأ الشعر اول ما نشأ مرتبطاً بالعمل من ناحية ، والغناء والموسيقى من ناحية اخرى ، فالإنسان الاول اخذ يبحث عن كلام يجاري في حركاته وسكناته نغمات الموسيقي التي عرفها في هبوب الرياح ، وحفيف الأوراق ، وخرير المياه ، والعمال كانوا ينظمون حركات أيديهم بأنغام

---

(١) زاد عليها الأخفش بحراً (هو المتدارك) فأصبحت ١٦ بحراً .

وعبارات شعرية تهوّن عليهم مشقة العمل وهكـذا نشأ الشعر ، إذ هو تعبير الإنسان عن عواطفه وانفعالاته ، وذلك شيء فطري .

ومؤرخو الادب يذكرون ان الشعر العربـي كان في اول امره اغنية يحدى بها البعير ، او ينشدها البدوي وهو يمتح الماء من البئر ، ولعل اصل الحداء او المتح ان اعرابياً كان يحدو بعيره فوقع له سجعتان أخذ يرددهما ، ولا بد ان تكون قد تلت هذه الخطوة خطوة اخرى هي أن الحادي وقع له بعد ذلك كلام في الحداء موزون مقفى ، وعرف ما له من اثر في نفسه وفي نفس البعير فحاوله فكان الشعر العربـي .

ولكن هذا التعبير المتّسم بالجمال في ثوب غنائي موزون هو ظاهرة تطورية تبتدىء السلسلة التي انتهت بنا الى هذا الشعر الكامل في العصر الجاهــلي ، وكذلك لم تكن تلك الآثار الشعرية الناضجة التي عُرفت (بالمعلقات) هي اول اشعــار العرب فبديهي ان هذا الكمال الشعري الذي تطالعنا به المعلقات ليس كمالاً مفاجئاً بل سبق بخطوات شعريــة وئيدة تمتد في اعماق الماضي مئات السنين، ومن هنا تعذر علينا أن نحدد اولية الشعر تحديداً مضبوطاً ، والمظنون ان العرب خطوا من المرسل الى السجع ومن السجع إلى الرجز ، والرجز اول مــا نظمه العرب لحداء الإبل وقد تخيل شوقي حداء العربـي لإبله قديماً ونظم على غراره حداء على لسان مجنون ليلى يقول فيه :

هلا ، هلا ، هيا اطوي الفلا طيا وقَرّبي الحيــا للنازح الصَّب

ومن الأمثلة المأثورة التي تحدى بها الابل اذا اريدت على الإسراع :

أعطيته مـا سألا حكّمتُه لو عدلا
قلبي بـــه في شغل لا مل ذاك الشغلا
قيـــده الحب كما قيـــد راع جملا

ثم تدرجوا من الرجز الى القصيدة ، ويقال ان اول من قصد القصائد المهلهل بن ابـي ربيعة واول من اطالها امرؤ القيس .

وخلاصة القول ان الشعر ظاهرة فطرية نشأ بنشأة الانسان واخذ شكله الكامل في خطوات تطورية طبيعيـــة وبمجهودات بشريـة عديدة وسوف يغير المستقبل من صورته واوضاعه كما يفعل بكل شيء من شؤون هذه الحياة المتطورة .

موضوعات للبحث

١ — يقولون : ان الشعر اول مراحل الادب ، والانسانية محتاجـة اليه في كل عصر ، ناقش هـذه القضية ، ووضح رأيك بالدليل .

٢ — قال شوقي يصف نهراً :

ولقد تمر على الغدير تخاله　　　والنَبْتَ مرآةً زهت بإطار

وقال ابن خفاجة الأندلسي يصف النهر كذلك :

وغدت تحف به الغصون كأنها　　　هُدبٌ يحف بمقلةٍ زرقاء

هذا النموذج يوضح لك اختلاف الشعراء في مفهوم الحقيقة الواحدة كما يدركها من خلال وجدانه — اشرح .

٣ — قال شوقي :

والشعر ان لم يكن ذكرى وعاطفة　　　أو حكمـــة فهو تقطيـــع واوزان

اشرح هذا القول :

للمطالعة

١ — موسيقى الشعر : للدكتور ابراهيم انيس .
٢ — فن الشعر : للدكتور إحسان عباس .
٣ — البلاغة والنقد : للدكتور مهدي علام وآخرين .
٤ — الشعر والشعراء في ليبيا : لمحمد الصادق عفيفي .
٥ — الصديق في البلاغة والنقد : للدكتور عبد الحميد السيد.
٦ — التوجيه الأدبـي : للدكتور طه حسين وآخرين .

الفصل الحادي عشر

الغــزل

الغزل كلمة يطلقونها على الشعر الذي يصف المرأة،او الذي يتحدث عنها ، او يتحدث اليها ، او يتخيل قولاً فيها ، او قصة تتعلق بها ، او يصف ما تثيره في نفس الشاعر من حرقة ونعـيم ، ومن مرادفات الغزل : النسيب – والتشبيب[١] .

وهذا الفن من فنون الشعر الغنائي قديم عند الشعوب ، وهو رفيق الأدب العربي منذ فجره ، فقد انصرف اليه العرب الأقدمون يودعونه كلمة القلب ولكنه بقي معهم نظرة الى قدٍّ ووجه ، وحديثاً عن لهو، ومفاخرة يصدرون بها معلقاتهم ، حتى صار ذلك تقليداً عند الشعراء في العصور اللاحقة،ثم وجدنا بعض الشعراء فيما بعد يثورون على هذا التقليد.

والغزل في صدر الاسلام تبلور في مدرستين : المدرسة البدويـة ، والمدرسة الحضرية .

المدرسة البدوية :

طابعها الوفاء والالم والعفة ، ونشأت في بوادي العرب ، والغزل في البادية وشوشة هامسة يتناقلها السمّار،وانغام يشدو بها الحداة، انه متنفس القلب في بيئة لم تعرف ملاهـي الحضر ، اليه يفيء العاشقون فيبثونـه

(١) ومن الغزل ما يكون موضوعه الحب والعشق الإلهي ويعرف هذا النوع بالشعر الصوفي ، ومنه ما يكون موضوعه الغلمان والصبيان ويعرف هذا النوع بالغزل الشاذ .

لواعج الافئدة ، ونُسب هذا اللون الى بني عذرة ، وهم قوم كـانوا (إذا عشقوا ماتوا) وأشهر ممثلي هذه المدرسة قيس لبنى ، وقيس ليلى ، وكثير عزّة ، وامامهم جميل بثينة .

المدرسة الحضرية :

وطابعها الإخلاص للجمال أنى كان ، والمجون والخلاعة في أسلوب اباحي يميل للقص ، ونشأت في حواضر الحجاز ومدنه حيث تكثر حياة الترف والراحة واللهو ، وحيث الاشراف الذين اغدق عليهم الامويون الاموال ليلهوهم عن شؤون السياسة فنشأ اولادهم في ترف وفراغ ففسدت احوالهم ، واتخذوا لملهاتهم الغزل الصريح .

ويمثل هذه المدرسة ، العرجي والاحوص وامامهم عمر بن ابي ربيعة.

المختارات

أمن آل نعم

لعمر بن أبي ربيعة

أمِنْ آل نُعْمٍ أنْتَ غَادٍ فَمُبكرُ غداةَ غدٍ ،أم رائحٌ فمهجّرُ (١)
لحاجةِ نفسٍ لم تقُل في جوابهـا فتُبْلغَ عُذراً ، والمقالةُ تُعْذِرُ
تهيم إلى نعم ، فـلا الشمْلُ جـامعٌ
ولا الْحَبْلُ مَوْصُول ،ولا القلب مُقْصِر (٢)

* * *

وليلةَ ذي دُورانَ جشّمنِي السّرى وقد يجشمُ الهولَ المحبّ المغرّر (٣)
فَبِتّ رقيباً للرّفاق علـى شَفَـاً أحاذِر منهم من يطوف ،وأنْظُر (٤)
وبِتّ أناجي النّفس ،أين خبَاؤها ؟ وكيف ،لما آتي مِنَ الأمرِ ، مَصْدر (٥)
فدل عليها القلبَ ريّا عرَفْتُهـا لها ،وهَوَى النّفس الذي كاد يَظْهر (٦)
فلما فَقَدْتُ الصوتَ منهم ،وأطْفِئتْ مَصَابِيحُ شُبّتْ بالعشاء وأنؤرُ (٧)

---

(١) الغادي : السائر غدوة . الرائح : السائر في العشي . المهجر : السائر في الهاجرة .
(٢) مقصر : ممتنع .
(٣) ذي دوران : موضع . السرى : السير ليلا . المغرر : الذي يعرض نفسه للهلاك .
(٤) الشفا : حرف الشيء .
(٥) الخباء : الخيمة مصنوعة من وبر او صوف .
(٦) الريا : الريح الطيبة .
(٧) شبت : اضيئت . الانؤر : النيران .

وغاب قُمَيْرٌ كنتُ أهوى غُيوبَــه ورَوّحَ رُعْيانٌ ، ونَـوّمَ سُمـّر (١)
وخُفّـِض عنّـِي الصوتُ أقبلت مِشْيَـة الـ
حُبَـاب ، وَشَخْـصِي ، خَشْيَة الحيّ ،أزْوَر (٢)
فحيّيْتُ إذ فاجأتُـها ، فتــولّـهَتْ وكادتْ بمكنون التّحيـّة تَجْهَر (٣)
وقالتْ ،وعضّت بالبَنَـانِ ،فضحتَنِي ! وأنتَ امرؤ ميسور أمرِكَ أعسَر ! (٤)
أرَيْتَكَ إذْ هُنّا عليك ،أَلَمْ تَخَفْ رقيباً ،وحولي من عَدوّكَ حُضّر ؟ (٥)
فَوَالله ما أدْرِي ، أتَعْجِيل حاجــةٍ
سَرَتْ بك ، أم قد نام مَنْ كُنْتَ تَحْذَر ؟
فقلتُ لها : بل قَادنـِي الشّوقُ والهوى إليكِ ،وما نفسٌ من الناس تَشْعُــر
فقالت وقد لانت وأفرخَ رَوعُهــا : كلاكَ بحفظٍ ربّك المتكبّر (٦)

* * *

فلمّا تقضّى الليـلُ إلاّ أقلّـــه وكادتْ تَـوالِي نَجْمِه تتَغَوّرُ (٧)
أشارتْ بأن الحيّ قد حَانَ منهُـمُ هبُوب ،ولكنْ موعِدٌ لكِ عَزور (٨)

---

(١) السمر : الساهرون ليلا . روح : أي روحوا إبلهم .
(٢) الحباب : الحية . أزور . مائل معوج كالحية .
(٣) التوله : الحيرة من شدة الوجد .
(٤) البنان : أطراف الاصابع .
(٥) الحضر : الحي العظيم . أريتك : أصلها أرأيتك أي اخبرني . هنا : من هان .
(٦) أفرخ روعها : ذهب خوفها . كلاك : حرسك .
(٧) تتغور : تغيب .
(٨) اي موعدك القادم الذي نلتقي فيه يكون في (عزور) وهو موضع بمكة .

فَمَا رَاعَنِي إلاّ منادٍ برِحْلَةٍ ... وَقَدْ لاحَ مفتُوقٌ من الصبح أشْقَرُ
فلمّا رأت مَنْ قَدْ تنبّهَ منهُمُ
وأيقَاظَهُمْ ، قالتْ : أشِرْ ! كيف تأمرُ ؟

* * *

أقُصّ على أُخْتَيّ بَدْءِ حديثِنَا ... — ومالِيَ من أنْ تَعْلَمَا مُتأخّر —
لعلّهما أنْ تطلُبا لك مَخْرجاً ... وأن تَرْحُبا سَرْباً بما كنت أحْصَر (١)
فقالت لأُختيها : أعينا عَلَى فَتىً ... أتَى زائراً والأمْرُ للأمْرِ يُقْدَر
فأقبلَتَا فارتَاعتَا ثم قَالَتَا : ... أقِلّي عليك اللومَ ، فالخَطْبُ أيْسر
فقالت لها الصّغرى ، سأعطيه مِطْرفي ... ودِرْعي ، وهذا البُرْدَ إن كان يحذر (٢)
يقومُ فيمشي بيننا مُتَنكّراً ... فلا سِرّنَا يَفْشُو ولا هُوَ يَظْهر
فكان مَجِني دُونَ مَنْ كُنْتُ أتّقي ... ثلاثُ شُخوصٍ ، كاعبانِ ومُعْصِر (٣)
فلمّا أجَزْنا سَاحَةَ الحيّ قُلْنَ لي : ... أما تتّقي الأعْدَاءَ ، والليلُ مُقْمر ؟
وقلن : أهَذَا دأبُكَ الدّهْرَ سادِراً
أمَا تسْتَحِي ، أو تَرْعَوِي ، أو تُفَكّرُ ؟ (٤)
إذَا جئت فامنح طَرفَ عَيْنَيْك غيرنا
لكي يَحْسبوا أنّ الهوى حَيْثُ تَنْظر

(١) السرب : والسرب بالفتح الصدر ، وبالكسر النفس .
(٢) المطرف : رداء ذو اعلام . البرد : الثوب .
(٣) المجن : الدرع . الكاعب : الفتاة التي نهد صدرها . المعصر : الفتاة شارفت البلوغ .
(٤) سادر : الشخص الذي لا يتعظ .

صاحب القطعة :

هو ابو الخطاب عمر بن ابي ربيعة القرشي المخزومي ، ولد بالمدينة سنة ٢٣ هـ ونشأ بها وتربى في احضان النعيم اذ كان ابوه ثرياً غنياً فما دفعته حاجة العيش الى العمل والكد ، فتفرغ لقول الشعر منذ نعومة اظفاره ، وسلك به مسلكاً خاصاً اذ قصره على وصف النساء في تزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض بأسلوب بديع احبه المغنون والظرفاء ، وشغف به القيان والندماء ، ومقته الزهاد والصلحاء ، حتّى قال احدهم : (ما دخل على العواتق في خدُورهن شيء اضرّ عليهن من شعر ابن ابي ربيعة) ولم يقف شره عند ذلك بل كان يتعرض للحواج فيشبب بالعقائل والاميرات ، ويصفهن طائفات محرمات فزهدت كرائم الاسر في اداء هذه الفريضة خشية منه وقد ضاق به عمر بن عبد العزيز فنفاه الى دهلك، احدى جزر البحر الاحمر تخلصاً من شره ، وقد كانت منفى دولة بني امية حينما يغضبون على احد ولا يريدون قتله وقد تاب واناب وزهد وتنسك فعفا عنه الخليفة وعاد به الى المدينة .

تحليل القطعة :

اختار عمر القصص والحوار ينقل بهما ما كان من اخباره ، وليس عمر اول من طرق باب القصص بالغزل فقد سبقه اليه ماجن الجاهلية امرؤ القيس ، وكلاهما يتجشم الاخطار ويفاجيء المحبوبة ، وقد أتى غزل ابن ابي ربيعة محدود الخيال لان الشاعر نقل وقائع حياته ، ومن خصائص اسلوبه السهولة فلا تعقيد ولا ابهام بل تسلسل مما خف وطاب جرسا ، وقامت الموسيقى تكمّل عمل عمر الفني ، فإذا بقصائده قطع يرن فيها الإيقاع ،ويرقص اللحن . وطبيعي ان تنساب الانغام في شعر عمر فقد كثر اختلافه الى مجالس الطرب واللهو والمغنين .

وأبرز صورة يرسمها عمر للمرأة ونفسيتها وغرورها وجسدها وجرأتها في مقابلة من تحب وسرعة انفعالها وحيلها ، هي تلك التي ضمنها هذه

الرائية الشهيرة (أمن آل نعم) يحدثنا فيها : انه دخل خيمة المحبوبة فتولهت وعضت بالبنان وقالت له : فضحتني ! وانطلقت تعاتبه وتعنفه وتذكره بأعين الرقباء التي لاتني تتسقط اسرارهما . ولكنها امرأة ، فما يلبث فخرُها ان يطغى على خوفها ، انها فخورة مزهوة بهذا الذي يتجشم الهول في سبيل ان يقابلها وانها لتنتظر منه ان يعترف لها بحبه ، وهي في سبيل ان تسمع الاعتراف تسأل عمر :

فوالله ما أدري ! أتعجيل حاجة سرت بك،أم قد نام من كنت تحذر ؟

ويتدفق الاعترف فتقول :

فقلت لها : بل قادني الشوق والهوى اليك ، وما نفس من الناس تشعر

فتطمئن اساريرها ويهدأ بالها ويتحطم خوفها على صخرة حبها :

فقالت : وقد لانت وأفرخ روعها كلاك بحفظ ربك المتكبر

ولكن الصبح يلوح ويحين من الحي هبوب ، وتستفيق غريزة الخوف في المرأة فتنظر الى عمر معاتبة تقول : أشر كيف تأمر ؟ ويقر الرأي على ان تخبر اختيها بالامر ، فالمرأة للمرأة خير ظهير في شدائد الحب، وتقترح الاختان ان يتنكر عمر بزي النساء فيمضي معهن على هذه الحال حتى اذا ما قارب ان ينصرف عنفنه قائلات : اما تستحي او ترعوي او تفكر ؟ ولكنهن يردفن :

اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يحسبوا ان الهوى حيث تنظر

انهن نساء يتظاهرن بالامتعاض ويتعززن وهن الراغبات ، ولكنهن يسألنه الخداع والمداورة ، اي ان يعود ثانية ويعلمنه ما فاته من دروس الهوى والعشق ، وذلك بأن ينظر الى فتاة اخرى كي يبعد عنهن الشبهة.

موضوعات للبحث

١ — كيف تعال نهضة الغزل في العصر الاموي ؟ وكيف تفرع هذا الفن عندئذ ، وما أهمّ الخصائص التي يتميز بها كل من فروعه؟

٢ — اظهر ما في غناء عمر من حلاوة جعلته يتبوأ زعامة الغزل في العصر

الاموي ، ووضح بالشواهد قيمة القصص والحوار في القصيدة ، وحدّد جوانب النفسية النسائية كما ظهرت لك من خلال الحديث .

٣ — قال احمد الشايب :

ليس الغزل حديثاً عن المرأة بقدر ما هو حديث الرجل عن نفسه وشعوره نحوها . ما رأيك في هذا القول ؟ .

٤ — قال الدكتور طه حسين :

لعل الشعر الذي تركه شعراء شمالي نجد والحجاز هو خير ما يستحق البقاء من الشعر العربي — ناقش .

للمطالعة

١ — الغزل	:	للدكتور سامي الدهان .
٢ — الغزل عند العرب	:	للدكتور حسان ابي رحاب .
٣ — تاريخ الآداب العربية	:	لكارلو نالينو .
٤ — الادب العربي وتاريخه	:	لمحمود مصطفى .
٥ — الادب العربي وتاريخه	:	لمحمد هاشم عطية .
٦ — في الادب المقارن	:	للدكتور عبد الرزاق حميدة .
٧ — شاعر الغزل	:	لعباس محمود العقاد .
٨ — عمر بن ابي ربيعة	:	للدكتور جبرائيل جبور .
٩ — الرائد في الادب العربي	:	لجنة من الاساتذة .

الفصل الثاني عشر

الفَخْرُ وَالحَمَاسَة

الفخر من أدلّ فنون الادب على فطرة الانسان ، صدى تطلّع النفس الى ذاتها ، « وإذ ما قُدِّر للمرء ان ينتصر على العقبات التي تعترض سبيله ، ووفّق في تحقيق مثله ومطامعه ، فان ذلك يؤدي لديه شعوراً بالزهو والغبطة ، واحياناً بالعظمة والبطولة ، وخاصة اذا كان بدائياً ، مما يولد لديه تجربة شعرية معبِّرة عن عنجهية النفس وادعائها : وعتوّها» وتعداد المناقب وتحسين السيئات .

« هذا عن واقع الفخر عامة ، واذا ما تحرّينا عن واقعه في الشعر الجاهلي فانه يتحقق لنا أن طبيعة ذلك العصر ، كانت توافق طبيعة الشعر الفخري أو بالاحرى كانت تلزم الشاعر بها . لقد كانت حياة الجاهليين حياة حروب ، وغزوات لا هوادة فيها في سبيل العيش ، فهم ابداً بين كرٍّ وفرٍّ ، وفي توقع دائم للغارات . وذلك جميعاً ، ادى الى ازدهار الفروسية ، فالانسان لا يعظمُ في بني قومه ، الا اذا كان قوي الشكيمة ، قادراً في الحروب يصد عن نفسه ، وعن قومه غـارات الاعداء ، لهذا كان من الطبيعي ان تكثر قصائد الفخر في الشعر الجاهلي، لان الفخر ليس في الواقع ، سوى وسيلة من وسائل الدعاية التي تمجد الفضائل » هذا ما كان في الجاهلية ، وصدر الاسلام والعصر الاموي، ولكنه في العصر العباسي اختلف في كثير من مناحيه .

أنواع الفخر :

فخر ذاتي . وهو التعبير عن الذات البشرية مجسمة في القبيلة والاجداد

وفخر حزبي : وهو لسان الحزب ومرآته ينطق بحقوقه وينشر آراءه ، وقد انبثق بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وذلك لقيام الاحزاب من امويين ، وعلويين ، وزبيريين ، وخوارج وغيرهم .

وفخر ديني : وهو المنافح عن الدين ، وكان منبعه ظهور الاسلام .

وفخر حربي : وهو شعر الحماسة ، وقد فطر العربي على الشجاعة والقتال والعزّة والانفة فهو يثور لاتفه الامور ، ويندفع متحمساً لنصرة اخيه ، ظالماً او مظلوماً .

ومن أشهر شعراء الفخر في الادب العربي : الشنفرى ، والسموأل ، وعنترة وعمرو بن كلثوم ، والفرزدق ، والمتنبي ، والشريف الرضي .

المختارات

اولا ـ السموأل

الكرام قليل

إذا المرْءُ لم يَدْنَسْ مِنَ اللّؤمِ عِرضُهُ   فكُلُّ رِداءٍ يرتَديه جَميلُ (١)
وإنْ هُوَ لم يَحْمِلْ على النّفْسِ ضَيْمَها   فلَيْسَ إلى حُسْنِ الثّناءِ سَبيلُ (٢)

* * *

تُعَيِّرُنا أنا قليلٌ عديدُنا   فقُلْتُ لها : إنّ الكِرَامَ قَليلُ !
وَمَا قلّ مَنْ كانتْ بقاياهُ مِثْلَنَا :   شَبَابٌ تَسامى لِلْعُلاَ وكُهُول (٣)
وَمَا ضَرّنَا أنّا قليلٌ ، وَجَارُنَا   عَزيزٌ ، وجارُ الأكْثَرِينَ ذَلِيلُ
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلّه مَنْ نُجِيرُه   مَنِيعٌ يَرُدّ الطّرْفَ وهو كليل (٤)
رَسَا أصْلُه تحتَ الثّرَى ، وَسَمَا به   إلى النّجْم فَرْعٌ لايُنالُ طَويلُ

---

(١) اللؤم : كل صفة مذمومة ، عرضه : شرفه ، والمعنى اذا تعود المرء اللؤم صار كل قبيح عنده جميلا .

(٢) يحمل : يرد . الضيم : الظلم ، اي يحاسب نفسه على ما اقترفه من ظلم.

(٣) الكهول : جمع كهل ، وهو الرجل في سن الاربعين الى الستين . ما قل : أي لا يعد قليلا من كانت بقاياه مثلنا .

(٤) نجيره : نحميه ، الطرف : البصر ، كليل : متعب . والجبل هو حصن السموأل (الابلق الفرد) .

هُو الأبْلَقُ الفَرْدُ الذي شَاعَ ذِكْرُهُ يَعِزّ على مَنْ رَامَهُ ويَطُولُ (١)
وإنّا لَقَوْمٌ لا نرَى القَتْلَ سُبَّةً إذا ما رَأَتْهُ عَامِرٌ وسَلُول (٢)
يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالنَا لنَا وتَكْرَهُهُ آجالهُمْ فتَطولُ
وَمَا ماتَ مِنّا سَيّدٌ حَتْفَ أنْفِهِ وَلاطُلَّ يوماً حَيْثُ كانَ قَتِيل (٣)
تَسِيل على حَدّ الظّبَاتِ نُفُوسُنا وَلَيْسَتْ على غَيْرِ الظّبَاتِ تَسِيل (٤)
صَفَوْنا فلم نَكْدُر ، وأخْلَصَ سِرّنَا إناثٌ أطَابتْ حَمْلَنَا وَفُحول (٥)
عَلَوْنا إلى خَيْرِ الظّهُورِ وحَطّنا لِوقْتٍ إلى خَيْرِ البُطُون نُزُولُ
فَنَحْنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصَابِنا كَهامٌ ولا فِينا يُعَدّ بَخِيل (٦)
ونُنْكِرُ إنْ شِئْنا على النّاسِ قَوْلَهُمْ ولا يُنْكِرُونَ القَوْلَ حِينَ نَقُولُ
إذا سيّدٌ مِنّا خَلاَ قَام سَيِّدٌ قَؤُولٌ لِمَا قَالَ الكِرَامُ فَعُولُ
وما أخْمِدَتْ نار لنا دونَ طَارِقٍ ! وَلاَ ذَمّنا في النّازِلِينَ نَزِيلُ (٧)

---

(١) الابلق الفرد . هو حصن السموأل بناه ابوه ، وقيل بناه سليمان عليه السلام بأرض تيماء (ما بين الحجاز والشام) فقصدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد ، فقالت : (تمرد مارد وعز الابلق) وسمي الابلق لاختلاف ألوان أحجاره ، ولما كان شديد المناعة سمي (الفرد) وكانت العرب تنزل به وتقيم هناك اسواقاً .

(٢) عامر وسلول : اسما قبيلتين عربيتين .

(٣) مات حتف انفه : مات ميتة طبيعية ، طل دمه : أي لم يثأر له .

(٤) الظباة : جمع ظبة ، أي حد السيف .

(٥) سرنا : اصلنا الطيب .

(٦) ماء المزن : المطر . النصاب : الاصل . الكهام : الكليل الحد .

(٧) الطارق : القادم ليلا .

وأيّامُنا مَشْهُورةٌ في عَدوّنـا — لَهَا غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ وَحُجُول(١)

وَأسْيافُنا في كلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ — بِهامِنْ قِرَاعِ الدّارِعِينَ فُلُول(٢)

مُعَوّدَةٌ ألاّ تُسَلّ نِصالُها — فَتُغْمَدَ ،حتّى يُسْتَباحَ قَبِيلُ(٣)

سَلِي إنْ جَهَلْتِ الناسَ عَنّاوعنهُمُ — فليسَ سَواءٌ عالِمٌ وَجَهُولُ !

فَإنّ بَنِي الرّيّانِ قطْبٌ لِقَوْمِهِم — تَدُورُرَحاهُمْ حولهموتَجُولُ(٤)

صاحب القطعة :

هو السموأل بن غريض بن عادياء اليهودي ، من شعراء الجاهلية الاوائل وأحد أشرافهم النبلاء الامجاد ، عاش في منتصف القرن السادس ، وقد عاصر امرأ القيس ، وحينما قتل بنو أسد أبا امريء القيس وهمّ امرؤ القيس بالذهاب الى قيصر الروم يسأله النصرة على قتلة أبيه من بني أسد التجأ الى السموأل فأودعه دروعه وأسلحته وابنته فيما يقال ، وكان من خبر امريء القيس انه مات في الطريق وهو عائد من القسطنطينية ، ولما علم الحارث بن ابي شمر ملك الغساسنة ، بموت امريء القيس ذهب الى السموأل في جيش طالباً اسلحة امريء القيس وقبض الحارث على ابن السموأل الذي كان خارج القصر آنذاك في الصيد والقنص ، قائلا له : إني قد أسرت ابنك فادفع إليّ الدروع وإلا ضربت عنقه ، فأبى السموأل ان يخفر ذمّته ويسلم الامانة لغير صاحبها وآثر قتل ولده على ان يكون العكس ويسيء الى الخلق العربي خلق الوفاء والصدق .

---

(١) الايام : المواقع . الحجول : البياض في ارجل الفرس .

(٢) الفلول : جمع فل ، وهو الكسر في حد السيف .

(٣) القبيل : الجماعة من آباء متعددين .

(٤) الريان : قبيلة السموأل . القطب : هي حديدة تقوم في وسط الجزء الاسفل من جزئي الرحى وتمسك الجزء الاعلى .

فقرب الحارث الابن وضرب عنقه على مرأى من أبيـه ورجاله ، وفي ذلك يقول السموأل :

وفيت بأدرع الكندي اني إذا ما ذُم أقـوام وفيت
بنى لي عادياً حصناً حصيناً ومـاء كلما شئت استقيت

تحليل القطعة :

قال السموأل هذه القصيدة لامرأة خطبها فردته ، ثم خطبها آخر من بني عامر أو سلول فأجابته ، ففاخرها الشاعر ، واستهل حديثه بالحكمة ، ولم يبدأ بالنسيب جرياً على عادة شعراء العرب ، ولكنه لم يلبث ان عاد بعد البيت الثاني الى مخاطبة المرأة ، فكان بذلك رابطاً بينه وبين تلك السنة التقليدية .

ثم عرض لفكرتين أساسيتين : الفكرة الاولى ، أن الجمال الحقيقي الذي يحمد صاحبه عليه لا يكون الا في حالة السيطرة على النفس ، وضبط ميولها ، واحتمال المصائب والشدائد .

الفكرة الثانية : قيمة الناس بمزاياهم لا بكثرة عددهم ، وتحت تلك الفكرة التي يتجسم فيها حال قوم السموأل عدد الشاعر خصال قومه ، وبرهن عليها : سمو الى العلا ، عزة جار ، مناعة حصن ، شجاعة وإقدام ، تفوق ، كرم ، سطوة وأنفة ، والقصيدة بهذا تمثل شخصية قائلها أقوى تمثيل .

وقد صور الشاعر ذلك في نغمة حماسية ، وعبارات فخرية ، توافق المعاني التي قصد اليها ، وهي تظهر في تشديد بعض الحروف كالدال والراء والنون ، وفي التأكيد « إنا لقوم » وفي تكرار بعض الالفاظ والمقابلة بينها « كما في الابيات : ٥ ، ٧ ، ١٢ .
وهذه المعاني خلاصة الخلق العربي النبيل ، وعزة النفس .

ثانيا - الشريف الرضي

ملكت بحلمي

مَلَكْتُ بِحِلْمِي فُرصةً ما استَرقّهَا
مِنَ الدّهْرِ مَفْتُولُ الذّرَاعَينِ أغلبُ(١)

فإنْ تكُ سِنّي مَا تَطَاوَلَ بَاعُهَا
فَلي من وَرَاءِ المَجدِ قلبٌ مُذَرّبُ(٢)

فَحَسْبِيَ أنّي فِي الأعادِي مُبَغَّض
وأنّي إلى غُرّ المَعَالِي مُحَبّبُ (٣)

وَلِلْحِلْمِ أوْقَاتٌ وَلِلْجهْلِ مِثلُها
وَلَكِنّ أيامي إلى الحِلْم أقْرَبُ (٤)

يَصُولُ عليّ الجَاهِلُونَ وأعْتَلِي
ويُعْجِم فِيّ القَائِلُونَ وأعربُ(٥)

يرَوْنَ احْتِمَالي غُصّةً ويزيدُهم
لَوَاعِجَ ضِغْنٍ أنّني لَسْتُ أغضَبُ(٦)

وَقُورٌ فَلا الألحَانُ تَأسِرُ عَزْمَتِي
وَلاَ تَمكُرُ الصّهْبَاءُ بِي حِين أشْرَبُ(٧)

---

(١) استرقها : نالها ، الاغلب : القوي الذي يغلب خصمه .

(٢) المذرب : المحدد الماضي . والمدرب : المعود الجريء .

(٣) المبغض : المكروه . غر المعالي : اعلاها .

(٤) الجهل : الجفاء والغلظة .

(٥) يصول : يعتدي . الجاهلون : الحمقى . يعجم : لا يبين ولا يفصح . أعرب : ابين وافصح .

(٦) الغصة : ما يغص به الانسان من طعام او غيظ . اللواعج : الحرقة والعداوة .

(٧) وقور : رزين ، الصهباء : الخمر .

ولا أعْرِفُ الفَحْشَاءِ إلاّ بِوَصْفِهَا
ولا أنطقُ العَوْراءَ والقلبُ مُغْضَبُ (١)

تحلُم عن كرّ القَوَارِصِ شيمَتِي كأنّ مُعِيدَ الذّمّ بالمَدْحِ مُطنب (٢)

لِسَاني حصَاةٌ يَقْرعُ الجهلَ بالحِجا إذا نَالَ مِنّي العَاضِهُ المُتَوَثّبُ (٣)

ولستُ براضٍ أنْ تَمَسّ عزَائِمي
فُضَالاتُ ما يُعْطِي الزّمانُ ويَسْلبُ (٤)

غرَائِبُ آدَابٍ حبَاني بِحِفْظِهَا
زمَانِي وَصَرْفُ الدّهْرِ نِعْمَ المُؤدّبُ (٥)

صاحب القطعة :

هو أبو الحسن احمد بن أبي الحسين من الاشراف ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب ، وأسندت اليه نقابة الاشراف العلويين بعد أبيه ، ونشأ في بغداد في عصر نضجت فيه العلوم ، فقرأ كتب الاوائل من علم وأدب . وكان معتدلا في شؤون دينه ودنياه ، (وللحلم اوقات وللجهل مثلها) .

ويُعد أشعر بني هاشم ، وكان يغلب على شعره الفخر ، والتحدث

---

(١) العوراء : الكلمة البذيئة

(٢) تحلم : تلتزم الحلم . القوارص : الشتائم النابية ، شيمتي : سجيتي وطبيعتي .

(٣) الحصاة : العقل . يقرع الجهل : الحمق . العاضه : الذي يكذب على المرء في وجهه .

(٤) الفضالات : البقايا ، والمراد بها اللذات الدنيوية .

(٥) حباني : اعطاني . صرف الدهر : نوائبه وحوادثه .

بكرم الخلق والتغني بعلو نسبه ، وكان لشعره جمال وعليه مسحة الجلال وتلمح فيه سمو البيئة ،وعلو الروح ، وحلاوة الاسلوب ورصانة العبارة ، فهو صورة صادقة لنفسه .

وألف كتباً منها (نهج البلاغة) الذي جمع فيه خطب ورسائل الامام علي ، وله ديوان شعر مطبوع وتوفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ .

تحليل القطعة :

صوّر الشاعر في هذه القطعة نفساً عزيزة أبية ، متمسكة بالمعاني والفضيلة ، ومكارم الاخلاق ومتهكمة على الناس والحياة .
كما صور النبل والشرف على طريقته ويفخر بأنه في الذروة من كليهما ، ويبرز من بين سمات النبل صفة الحلم التي اتخذها شعاراً له في الحياة ، وقد تناول الحلم مفرقاً في اكثر من بيت :
(ملكت بحلمي — ولكن اوقاتي الى الحلم اقرب — ويزيدهم لواعج ضغن)

ولو جاء بعباراته متعاقبة لكان هذا أجمل لاتحاد الفكرة الواحدة وتسلسلها ، كما شاعت في أبياته الحكم والعظات التي جناها من تجاربه .

وانك لتلمح في القطعة وضوح المعاني ، ورقتها وجزالة اللفظ وقوته، فهو يصطنع من فحل الاساليب ما يلائم مقصده ، والشريف وجد في عصر الاتجاه الى المحسنات اللفظية فتأثر بهذا الجو ، كما ترى في :

(مبغض : محبب — الحلم : الجهل — يعجم : اعرب) .

وقد كانت قصيدة هذا الشاعر من النماذج التي احتذاها البارودي في العصر الحديث ، فقد ذكر البارودي انه عارض هذه (البائية) ونسج على منوالها في بائيته :

سواي بتحنان الاغاريد يطرب وغيري باللذات يلهو ويلعب

موضوعات للبحث

١ — فخر السموأل بقومه ، وفخر المتنبي بشعره ، وفخر الشريف الرضي بنسبه ، فأيهما كان أبلغ ، وأيهما فاق الآخر في فخره ؟

٢ — ما نصيب فخر السموأل من الحقيقة ، وهل يختلف اسلوبه في الفخر عن اسلوب الشريف الرضي ؟
حاول تحديد ذلك بالاستناد الى الشواهد .

٣— قال الشريف الرضى :

يصول عليّ الجاهلون وأعتلي ... ويعجم فيّ القائلون وأعرب
يرون احتمالي غصة ويزيدهم ... لواعج ضغن انني لست اغضب
وقور فلا الألحان تأسر عزمتي ... ولا تمكر الصهباء بي حين أشرب

(ا) بم يفخر الشاعر في هذه الأبيات ، وما مدى تأثره في فخره بالآداب الاسلامية ؟
(ب) ما رأيك في مجتمع يلتزم أفراده مسلك هذا الشاعر في علاقته بالناس؟
(ح) انقد هذه الأبيات وبين تأثرها بملامح العصر الأدبي الذي قيلت فيه .

للمطالعة

١ — ديوان السموأل
٢ — ديوان الشريف الرضي
٣ — فن الفخر : لإيليا حاوي .
٤ — الفخر والحماسة : حنا فاخوري .
٥ — شعر الحرب : للدكتور علي الجندي .
٦ — شعر الحرب في أدب العرب : للدكتور زكي المحاسني .
٧ — الفتوة عند العرب : لعمر الدسوقي

الفصل الثالث عشر

الشعر الوطني

إن ألحان الشعراء القوميين في باب الوطنية الى جانب انها عماد للأدب وتاريخه فهي تكوّن قطعة من التاريخ العربي العام للحركات الوطنية في جميع انحاء العالم العربي ، ولا غرو فالشعر فرع من دوحة الادب ، والادب الوطني له الأثر الذي لا ينكر في تكوين (المواطن الصالح) « والشعر بما يطبع في النفوس من التحليق في سمـــاء العواطف النبيلة والتطلع الى المثل العليا ، يمهد للنهضات . . ويبعثها ويغذيها إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة ، ويستحثها على النفور من الذل ، وإباء الضيم ، ويحبب اليها الثورة على الاستعمار » وان كثيراً من روائع هذا الشعر لجديرة بأن يحفظها الشباب عن ظهر قلب لتذكي في نفوسهم روح الوطنية والاخلاص والاقدام والتضحية .

واذا كان مما تعمد اليه الامم ان تغذي نفوس ابنائهـــا بالاناشيد الوطنية ، فأجدر بنا ان نسمو بمنزلة هذا الشعر الوطني ، ونجعله في متناول المواطنين جميعاً ، رجالا ونساء ، شيباً وشباناً ، بل نحن معشر العرب جميعاً في حاجة الى ان نستذكر تلك الجوانب الوطنية في شعر شعراء العروبة ، تلك القصائد التي تملأ النفوس وطنية وإيمـــاناً ، كما انها تدفعنا دائماً الى السير قدماً نحو المعالي ، ونحو المثل العليا ، متحدين متضافرين . وان الوطنية الوطيدة الأساس هي التي تجمع بين مجد الماضي ، وجهاد الحاضر ، وأمل المستقبل .

والشعر الوطني هو الذي يعالج شئون الأوطان ، وآمـــال البلاد ؛ وآلامها ، وقد أسهم الشعراء في البعث الوطني ، وفي الاحـــداث

السياسية ، وفي الحملة على الاستعمار والتنديد بفظائع المستعمرين ، وتغنوا بالحرية والاستقلال ، ودعوا الى الحكم الدستوري ، وحثوا قومهم على الجهاد والكفاح ، وأشادوا بالأبطال المجاهدين والشهداء ، وحضوا العرب على الوحدة .

والقصائد التي معنا هي مزيج من الشعر الوطني ، والشعر السياسي ذي الطابع الانساني وهي تحمس كل عربي كي يصون استقلال وطنه، ويحافظ على حريته ، ويدفع عنه كل آفة توهنه وتذله ، وهي تحض على اشاعة العدل والخير والمساواة بين المواطنين ، وتدعو ابناء الوطن ان يعملوا على ان يعيشوا عيشة حرة كريمة متمسكين بحقوقهم ومبادئهم .

وفي عصرنا الحديث غزر الشعر الوطني غزارة لا مثيل لها في تاريخنا العربي ، بسبب الوعي القومي ، وتعرض بلادنا للاحتلال من قبل الأجانب ، وقد اشتهر بالشعر الوطني شعراء كثيرون . كشوقي ، وحافظ ، والرصافي ، والزهاوي ، والقروي ، وعلال الفاسي ، والشابي ، ومفدي زكريا ، والعيسى ، والتيجاني ، ورفيق المهدوي وغيرهم .

المختارات

اولا - يا شرق

لعلي محمود طه

— ١ —

بَني العُروبَةِ دَارَ الدَّهرُ واختَلفَتْ عَليكُمُو غِيَرٌ شتَّى وَأرْزَاءُ (١)
مَضى بضائقَتَيْها الأمسُ وانفَسَحتْ أمَامَ أعيُنِكُم لِلْمَجْدِ أجْواء (٢)
اليَوْمَ شِيدُوا كَمَا شَادَت أبُوَّتُكُمْ شَرقاً دَعائمهُ كالطَّوْدِ شَمّاءُ (٣)
لَكُمْ بِحَاضِرِكُمْ مِنْ دَهْرِكم نُهَزٌ فيها لِغَابِرِكُمْ بَعْثٌ وإحْيَاء (٤)
شدّوا عَلَى العُرْوَةِ الوُثْقَى سَوَاعِدَكُمْ
لا يَصْدَعَنْكُم بِالْخُلْفِ مَشّاء (٥)
لَمْ تَنأ بغدادُ عن مِصرٍ، ولا بَعُدَت لُبْنانُ والمَسْجِدُ الأقصى وشهباء (٦)
أيّ التّخومِ تَنَاءت بينَ أرْبُعِها لَهَا مِنَ الرّوحِ تَقْريب وإدْناء (٧)

---

(١) غير الدهر : احداثه ومصائبه .
(٢) الضائقة : الشدة والعسر .
(٣) الطود : الجبل . شماء : عالية مرتفعة .
(٤) نهز : جمع نهزة ، اي الفرصة .
(٥) العروة الوثقى : أي التضامن والاتحاد . يصدع : يفرق .
(٦) الشهباء : حلب وهي احدى المدن السورية .
(٧) التخوم : الحدود الفاصلة بين املاك الدول .

أرْضٌ عَلَيْهَا جَرَى تَارِيخُنَا وَجَرَى دَمٌ به كَتَبَ التَّارِيخَ آبَاءُ

— ٢ —

إيه بَنِي الشَّرْقِ ! فَالأبْصارُ شاخصةٌ لِمَا تُعِدون ، والآذانُ إصْغَاء(١)

يَسْتَطْلِعُ الشّرقُ مَا يجري به غَدُهُ يَا شَرْقُ إنَّ غداً هدْمٌ وإنْشَاءُ

فَقُدْ شِرَاعَكَ لا تُسْلِمْ أزِمّتَهُ لِغَيْرِ كَفّكَ إنّ الرّيحَ هَوْجَاء (٢)

يَا شَرْقُ حَقّكَ إنْ لَمْ تُرسِ صَخرتَه يدَاكَ أنْتَ، فَقَدْ أخْلَتْهُ أهْوَاءُ

وَالْكَوْنُ مَلْحَمَةٌ كُبْرَى جَوَانِبُهَا

دَمٌ وَنَارٌ ، وإعْصَارٌ ، وَظَلْمَاء (٣)

مِنْ ذَاتِ أجْنِحَةٍ يُخْشَى مَسَابِحُها غُول، وَنَسْرٌ وَتِنّينٌ وَعَنْقَاء(٤)

تَعلو وتَنْقَضُّ وشْكَ اللّمحِ صَاعقة يَكَادُ مِنْهَا يُصِيبُ النّجمَ إغْمَاء(٥)

وَزَاحِفَاتٍ مِنَ الفُولاذِ قَدْ هُصِرتْ مِنْ ثِقْلِهِنّ لِصَدْرِ الأرضِ أحناء

إنْ صَعّدتْ فالجِبَالُ الشّمّ هَاوِيَةٌ

أوْ عَرْبَدَتْ فَالصّخُورُ الصمّ أشْلاء(٦)

---

(١) إيه : اسم فعل للاستزادة من حديث او فعل .

(٢) هوجاء : الهوجاء من الريح التي لا تستوي في هبوبها وتقلع البيوت .

(٣) الملحمة : الوقعة العظيمة في الفتنة .

(٤) العنقاء : طائر مجهول الجسم معروف الاسم . التنين : الحية العظيمة .

(٥) وشك اللمح : سرعة النظر .

(٦) أشلاء : جمع شلو : الاعضاء المتفرقة .

لَمْ يَخلُ مِنْ شَرِّهَا ماءٌ ويابِسَةٌ   أو تَنْجُ مِنْ غَدْرِها غابٌ وَصَحراء

يَاشَرْقُ يومُك لاَ تُخْطِئْ سَوَانِحه

فَلَيْسَ تُغْفَرُ بَعْدَ اليوم أخْطَاءُ(١)

صاحب القطعة :

هو علي محمود طه المهندس ، ولد في اوائل هذا القرن وتخرج في مدرسة الفنون التطبيقية مهندساً وتنقل في وظائف الحكومة حتى عُين وكيلا لدار الكتب المصرية ، وتعشق الأدب وقرض الشعر فبرع فيه ، واتجه به نحو وجهات التجديد التي عاصرته ، والذاتية سمة من سمات شعره فهو شاعر ذاتي ، وتبلغ به الذاتية حدّ الحسية ، ويتضح ذلك في كثير من قصائده كأغنية (الجندول) ويعتبر المهندس من مشهوري شعراء مصر المحدثين ، ويمتاز شعره بحسن الديباجة ، ومتانة الرّصف، وعمق الخيال والعناية بالجرس الموسيقي وتوفي سنة ١٩٤٩ م وله دواوين شعر مختلفة .

تحليل القطعة :

بين الشاعر ان الدهر دار دورته ومضى بنوائبه ، واليوم آن أن يعيد الشرق نوره ومجده كسابق عهده ، وان الحياة ما هي الا انتهاز الفرص. ثم حض على الوحدة وحذر من الفرقة ، وانه وان شطت الديار بين البلاد العربية ، وبعد المزار إلا ان الروح والتاريخ المشترك والدماء، تجمعنا وتربطنا .

ثم ذكر ان الابصار متطلعة للرسالة السامية التي سيقوم بها الشرق العربي ، وان الغد هو غد انشاء وبناء وتعمير ، والجدير بابناء العروبة ان يقودوا دفة السفينة بأنفسهم ، وألا يتركوها بين الأيدي الأجنبية ،

---

(١) السوانح : ما يجول في الخاطر من فرص مواتية .

وانه لن يحمي تراثنا واوطاننا وذمارنا إلا صدورنا ، لان الحيـاة زحام وتنافس ، والعالم يصطرع ويتلاحم ، تغمره النيران والدماء والاعاصير ، وأسلحته فتاكة قاتلة ، وان اليوم يوم الشرق .

وتبدو في القصيدة عناية المهندس ، فهو فنان ومهنـــدس في آن واحد، عرف كيف يختار المفردات ، ويختار التراكيب القويـة الرائعة ، وحرص على الموسيقى ، والترابط بين المعاني ، وقد استمد اكثر معانيه في هذه القصيدة من تاريخ الشرق ومن الوحدة العربية المنشودة .

ثانياً – موكب النور

لسليمان العيسى

يَلْقَاكِ بالدَّمْع ، دَمْعِ الثَّورةِ ، النَّغَمُ
يَا أُمةً في الزَّنودِ السُّمرِ تَبْتَسِمُ (١) !
هتَفْتُ بالشعرِ ، فانْهَالَتْ على شَفَتِي
خُطَا الضَّحَايا ، وماتَ الشِّعْرُ والكَلِمُ
ورُحْتُ ألْمحها في الدَّرْب ، قَافِلَةً
عَطْشَى ، تَصَارَعَ فيها الفَجْرُ والظُّلَمُ (٢)
تَشُدُّ بالكَبِدِ الجَوْعَانِ خُطوَتَهَا وبِالعَقِيدَةِ، لاشكوى ، ولا سأمُ
مدَّ الطَّريقِ إلى الأشْلاءِ نَظْرتَه إلى الدِّماء ، فكانَ البَعْثُ والألَمُ (٣)

* * *

يَامَوْكِبَ النَّور ، غَاظَ الليلَ مَطلعُنَا وأتْلعَتْ رأسَهامِنْ قَبرِهاالرِّمَمُ (٤)
النَّاعِقُون وراءَ الرَّكْبِ ، هل لهُمُ أنْ يَفسَحوا الدَّرْبَ للأحياءِهل لهُمُ ؟
نحنُ الَّذين كَسَرْنا القيدَعن فَمِهِم حتّى تَحَرَّكَ من بعدِ الهمودِ فَمُ
النَّاسِجُون بِدَمْعِ الشَّعْبِ بُرْدَهُم والنّاحِتُون بعُرْى الكُوخِ قصرهُم (٥)

---

(١) الزند : موصل الذراع في الكتف.
(٢) الدرب : الطريق او باب السكة الواسع .
(٣) الاشلاء : جمع شلو ، وهو العضو من اعضاء الجسم .
(٤) أتلع : تطاول بعنقه .
(٥) البرد : الثوب .

والنّـاصِبُون حـدود الله مَصْيَدَةً
وَيَهمِسُ الفقرُ في يأسٍ : أما تَخِمُوا ؟(١)
وَلَوْ تَنَبّه مَسْلُوبٌ لِسَارِقِه
مِنَ الأيَامَى، ومِنْ أيتامِنَا ، رُجِمُوا! (٢)

* * *

وَيهْمِسُ الساعدُ المعروق في وطَني — حتّامَ تلثُم رِجْلَ الذّابِحِ الغَنَمُ ؟
حتّامَ تَبْقَى قِبابُ الطّين مَقْبرةً — وأسْرَتِي أسرتي في جَوْفِها رَدَمُ ؟
إلى مَتَى يَتَغَذّى الدّاء مُرْتَعِشاً — طِفْلي، ومِنْ قَبْضَتِيَ الرّزق والنّعَم ؟
والأرضُ أرْضِي التي نَضّرْتُها بِدَمي — أليْسَ لِي في زَوَايَا جَفْنِها حُلُم ؟
نَحْنُ الحُفَاةُ لنا في الشّمْسِ حِصّتُنا
في النّور، في التّرب، في العرش الذي اقتَسَموا
لَنَا رَغائبُ لو شُقّت مقابِرُهـا — تعطّرَ السّفحُ بالإبداع والقِمَمُ (٣)
نحن الحفاةُ أضأنا الأرضَ مَسْرجةً — على الجمالِ، وصُغْنَا الدهر، لو علموا! (٤)
يا حاملي النّير مِنْ أفلاذِ أمّتنا
في العيش والموت حلواً إنّنا لكُمُ ! (٥)

---

(١) تخم : ثقل عليه الاكل .
(٢) الايامى : النسوة اللاتي يفقدن ازواجهن .
(٣) السفح : هو اصل الجبل واسفله .
(٤) المسرجة : القائمة التي تجعل عليها السرج .
(٥) النير : الخشبة المعترضة في عنقي الثورين ، والمراد الظلم والمشقة .

الثائرون بكفٍّ مُهْجةٌ نُذِرتْ ضحية وبكف زجرت قَسَمُ (١)
الصّامدون وغيرَ الحبِّ ما حَمَلُوا والناقمون وغير الظّلم ما نَقَمُوا(٢)
وتملأ البغْيَ والأصْنَامَ صَيْحَتُنَا رُعباً فَنُقْذَفُ بهتاناً ، ونُتّهمُ (٣)
ويَهْدر الزّوْرق النشوان منطلقاً ويلعقُ الموجُ جَنْبَيْه ، ويلتطمُ (٤)
يا حاملي النير . آلامٌ رسالتُنا وشهقةٌ ، وجراحٌ ليس تُكتَمُ (٥)
لَنَا وللغَاصِبِ السّفّاح ملحَمَة
خصمُ الفريسة فيها الباز والرّخَمُ (٦)

صاحب القطعة :

هو سليمان العيسى شاعر معاصر من شعراء (سورية) ولد عام ١٩٢٢ بلواء أنطاكية ، وأتم تحصيله بدار المعلمين العالية في بغداد ، وقد نظم كثيراً من الشعر مسجلاً فيه ثورة الأحرار في الوطن الكبير ، وفي وطنه الصغير ، كما سجّل نضال الشعب العربي في سبيل حريته والذود عن قوميته .

والشاعرية والتجديد هما طابع حياة سليمان العيسى ، وإنه ليقف اليوم إلى جانب افراد قلائل في بلاد العروبة ، ولكنه يمتاز عنهم بأنه قوميّ النزعة. الفقر الجوع المرض الاشتراكية الكفاح، كل هذه الأمور نجدها محور

(١) المهجة : الروح او دم القلب .
(٢) الصامدون : الثابتون كالصخرة الراسية .
(٣) البهتان : الكذب والافتراء .
(٤) النشوان : السكران .
(٥) الشهقة : الصيحة .
(٦) السفاح : كثير سفك الدماء . ملحمة : معركة نلتقي فيها . الباز : ضرب من الصقور ، والرخم ، طائر من الجوارح الكبيرة الجثة الوحشية الطباع . الواحدة ، رخمة .

شعره ، ومستلهم روائعه ، كهذه القصيدة التي بين ايدينا ، وهي تزيد على الخمسين بيتاً ،وللعيسى عدة دواوين شعرية اشهرها : رمال عطشى ، مع الفجر ، أعاصير ، قصائد عربية ، الدم والنجوم الخضر .

تحليل القطعة :

يقول الشاعر انه كلما استلهم شيطانه تسابقت المعاني الى ذهنه ولكنها تحمل في طياتها أنين الضحايا ، وما أكثرهم فيموت الكلام على شفتيه ، ثم انثنى ينقب عن القوافل الكادحة العاملة المؤمنة الصاعدة ، ولكن ذلك يثير فيه كوامن الالم .

وان مواكب النور ، وقافلة الحق سائـــرة ، ولكن يأبى المعوّقون والمُرْجِفُون الا ان يقفوا في طريقها، فهل لهؤلاء الرجعيين او الاموات الاحياء ان يفسحوا الطريق للقافلة ؟!!

ثم اخذ في تصوير المعوّقين وهي صورة ما أبشعها !! فهذه الطائفة تثري وتأكل وتلبس وتتمتع على حساب الفقراء من ابنـاء الشعب ، ثم يستفهم استفهام منكر لبقاء الداء مستشرياً وحرمان العاملين الكادحـــين حقوقهم ، ولكن سيأتي اليوم الذي يسترّد فيه الشعب حقه ، وذلك يوم يصطدم بالغاصِبِ المستبدّ .

موضوعات للبحث

١ — قال شوقي :

وطني لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني اليه في الخلد نفسي

اشرح هذا القول .

٢ — قال علي محمود طه :

إيه ! بني الشرق،فالابصار شاخصة   لما تعـــدون ، والآذان إصغــــاء

يستطلع الشرق ما يجري بــه غده   يا شرق إن غـــداً هـــدم وإنشاء

فقد شراعك لا تسلم أزمّته لغير كفك إن الريح هوجاء
يا شرق ! حقك إن لم تحم حوزته صدور قومك لم تنقذه آراء

وقال آخر :

أيها الشرقي شمر لا تنم وانفض العجز فان العجز قاما
وامتط العزمَ جواداً للعلا واجعل الحكمة للعزم زماما
لا تضق ذرعاً بما قال العدا رب ذي لُب عن الحق تعامى
سابق الغربي واسبق ، واعتصم بالمروءات وبالبأس اعتصاما

وازن بين هذين النصين من حيث الفكرة والاسلوب،مبيناً الخصائص الوطنية فيهما .

٣ — اختر فكرتين متميزتين من أفكار قصيدة سليمان العيسى ، وبين منهج الشاعر في تصويرهما ، ومدى ما في شعره من صدق العاطفة .

للمطالعة

١ — الشعر والشعراء في ليبيا : لمحمد الصادق عفيفي .
٢ — شعراء الوطنية : لعبد الرحمن الرافعي .
٣ — رمال عطشى : لسليمان العيسى .
٤ — الاتجاهات الادبية : لأنيس المقدسي .
٥ — الاتجاهات الوطنية : للدكتور محمد حسين .
٦ — الأدب الجديد : لعمر الدسوقي .

الفصل الرابع عشر

المدح

المدح هو فن من فنون الشعر الغنائي ، يعبر عن عواطف الإعجاب والشكران ، واظهار التقدير والاحترام ، بسرد مآثر الممدوح ، وعرض أمجاده ، فيتمم الشاعر في هذا الصنيع عمل المؤرخ ، فينير من الممدوح جنبات سكت عنها التاريخ .

وقد سلك المدح دائماً وجهتين : وجهة العاطفة الخالصة النابعة من الوجدان المخلص ، والناجمة عن الحب الصادق ، وفيها الإقرار بالفضل. وهذا النوع يتسامى في الغنائية لتنزهة عن السؤال ، وترفعه عن الزلفى ، وفيـــه ينبعث الخيال على جذور التاريخ ، وخير من يمثل هذا الضرب زهير بن أبي سلمى ، الذي كان لا يمدح الرجل الا بما هو فيـــه ، ولو ان الشعراء ترسّموا خطى زهير وواظبوا على الصدق لكان غرض المدح من اجلّ الأغراض الشعرية ، لأن الشاعر حين يمدح امرءاً بفضائل فإنما يضرب قدوة للناس تسمو بهم .

ووجهة التكسب : لغاية يأمل الشاعر تحقيقها ، ويتردّى هـذا اللون في مهاوي التذلل ، والتكلف ، وأول من تكسب بشعره ، وسنّ هذه السّنة لمن بعده هو النابغة الذبياني .

ولقد التزم الشعراء النسيب في مطالع مدائحهم ، وربما جعلوا صدورها ، وصفاً للخمرة ، أو للطبيعة ، وقد ساعد على ازدهار المدح في العصر الجاهلي والعصور اللاحقة ما كان من احزاب كان الشعراء صحافييها ، ومن فتوحات قام بها ملوك وقوّاد دعت الى الإشادة بـــذكرهم ، الى خلع تخلع ، واموال توزع مما جعل للشعراء مورداً يردونه . الى تنافس بين الأمراء والحكام على اجتذاب رجال الفكر ، واحتضان الشعراء ليفاخروا

بهم ، حتّى رأينا بعض الشعراء تقترن أسماؤهم بأسماء الخلفاء والأمراء .

وان هذا الفن الذي كان من شأنه ان يكون معرضاً للفضائل الخلقية ومرآة للمثل العليا ، قد انقلب على يد الشعراء الى مهنة يكسبون بها المال ، فتزلفوا الى الحكام بأقوال تسرهم ،ولكنها خالية من الصدق والفن.

واستمر ذلك حال المدح حتّى كان عصر النهضة الحديثة ، فانصرف الشعراء عن المدح الذي مجّه الذوق الحديث ، واتجهوا الى الإشادة بعظماء الأمة وأبطالها الذين يستحقون التكريم .

المنتخبات

أولا – ممدوحان

للمتنبي

لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَا
وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي العِدا (١)

هُوَ البَحْرُ غُصْ فِيهِ إذا كان ساكناً عَلَى الدُّرِّ ، واحْذَرْهُ إذا كان مُزْبِدا (٢)
تَظَلُّ مُلُوكُ الارْضِ خَاشِعَةً لَهُ تُفَارِقُهُ هَلْكَى وتَلْقَاهُ سُجَّدا
وَتُحْيِي لَهُ المَالَ الصَّوَارِمُ وَالْقَنا وَيَقْتُلُ ما يُحْيِي التَّبَسُّمُ وَالجدا (٣)
لذلِكَ سَمَّى ابْنُ الدُّمُسْتُقِ يَوْمَهُ مَمَاتاً ، وَسَمَّاهُ الدُّمُسْتُقُ مَوْلِدا (٤)
هَنِيئاً لَكَ الْعِيدُ الذي أنتَ عِيدُهُ وعِيدٌ لِمَنْ سَمَّى وَضَحَّى وَعَيَّدا (٥)
وَلاَ زَالَتِ الأعْيَادُ لُبْسَكَ بَعْدَهُ تُسَلِّمُ مَخْرُوقاً وتُعْطَى مُجَدَّدا (٦)
فَذَا اليَوْمُ فِي الأيامِ مِثْلُكَ فِي الوَرَى كما كُنْتَ فِيهِمْ أوْحَداً ، كانَ أوْحَدا

---

(١) كل امرىء يعمل بعادته ، وعادة هذا الممدوح الغزو والطعن .
(٢) انه نفاع ضرار ، مثله في ذلك مثل البحر .
(٣) الصوارم : السيوف . القنا الرماح : الجدا : العطاء .
(٤) الدمستق : قائد من قواد الروم .
(٥) هنيئاً : حال من العيد ، واصله ثبت العيد لك هنيئاً .
(٦) لا زلت تلبس الاعياد المتكررة على الدهر .

هُوَ الجَدّ ، حَتّى تَفْضُلَ العينُ أختَها   وحتّى يكونَ اليَومُ لِليَوْمِ سَيّدا (١)

فيَاعَجَبَاً مِنْ دَائِلٍ ، أنْتَ سَيْفُه   أمَا يَتَوَقّى شَفْرَتَيْ ما تَقَلّدَا (٢)

ومَنْ يَجْعَلِ الضّرغَامَ بَازاً لِصيده   تَصَيّده الضّرْغَامُ فِيمَا تَصَيّدا (٣)

رأيتُكَ مَحْضَ الحلم ، في محضِ قُدرةٍ   وَلَوْشِئْتَ كَانَ الحلم منكَ المُهنّدا (٤)

وَما قَتَلَ الأحرَارَ كَالعَفْوِ عنهُمُ   وَمَنْ لكَ بالحُرّ الذي يحفظُ اليَدا (٥)

إذَا أنْتَ أكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ

وإنْ أنْتَ أكْرَمْتَ اللئِيمَ ، تَمَرّدَا

وَوَضْعُ النّدى ، في مَوْضِعِ السّيْفِ ، بالعُلا

مُضِرٌ ، كَوَضْعِ السّيْفِ في مَوضِعِ الندى (٦)

وَلكِنْ تَفُوقُ الناسَ رَأياً وَحِكْمةً   كما فقتَهُمْ حالاً وَنَفْساً وَمحْتدا (٧)

يَدِقّ عَلَى الأفكارِ مَا أنْتَ فَاعِلٌ   فَيُتْرَكُ مَا يخفَى ، وَيُؤخَذُ ما بدا (٨)

أزِلْ حَسَدَ الحُسّادِ عَنّي بِكَبْتِهِم   فأنتَ الّذي صَيّرْتَهُمْ لِي حُسّدا (٩)

---

(١) الجد : الحظ .
(٢) الدائل : صاحب الدولة اي الخليفة .
(٣) الضرغام : الاسد . الباز : ضرب من الصقور .
(٤) المحض : الخالص . المهند : السيف .
(٥) اليد : النعمة .
(٦) الندى : الجود .
(٧) المحتد : الاصل .
(٨) بدا : ظهر .
(٩) الكبت : الإذلال .

إذا شَذَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأيكَ فِيهمِ
ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الهَامَ مُغْمَدا(١)
وَمَا أنَا إلاّ سَمْهَرِيّ حَمَلْتَــــهُ فَزَيّنَ مَعْرُوضاً، ورَاعَ مُسَدّدا(٢)
وَمَا الدّهْرُ إلاّ مِنْ رُوَاةِ قصائدي
إذا قُلْتُ شِعْراً، أصبَحَ الدّهْرُ مُنْشِدا(٣)
فَسَار بِهِ مَنْ لاَ يَسيرُ، مُشَمّراً وَغَنّى بِهِ مَنْ لاَ يُغَنّي، مُغَرّدا(٤)
أجِزْني إذا أُنْشِدْتَ شِعْراً، فإنّما بِشِعْرِي أتَاكَ المَادحُونَ مُرَدّدا(٥)
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوتِي، فأنّني
أنَا الطّائرُ المحْكِيّ، والآخَرُ الصّدى(٦)

صاحب القطعة :

هو ابو الطيب أحمد بن الحسين ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ ه ولم يكد يبلغ العاشرة حتى ترك ابوه الكوفة الى بادية السماوة، فأتاح له ذلك ان ينهل من ينابيع اللغة الحقة وتيقظت مواهبه فأخذ ينظم الشعر، ثم رجع به ابوه الى الكوفة فاستقرّ في نفسه ان يتكسّب بالشعر، فأخذ يتنقل بين ولاة الشام وبغداد، ولكنه لم يجد ما كان يؤمّله — وهو تلميذ

(١) الهام : الرؤوس .
(٢) السمهري : الرمح . معروضاً : اي محمولا بالعرض .
(٣) يروى بدل قصائدي قلائدي، فكأنه جعل شعره في حسنه كالقلائد يتقلد بها .
(٤) المراد ان شعره سار في الآفاق .
(٥) اذا انشدك شاعر شعراً فاجعل جائزته لي، لان الذي انشدت انما هو شعري اتاك به المادحون .
(٦) الصدى : الصوت الذي يجيبك .

القرامطة الثائرين — فصمم ان يمضي الى بادية السماوة ثانية ويدعو لنفسه بين البدو ، ولقي منهم آذاناً مُصْغية ، ولكنه باء أخـيراً بالفشل ولم يكسب من هذه الثورة غير لقبه (المتنبي) الذي اشتهر بـه ، ثم عاد لتطوافه ورأى ان يلحق بسيف الدولة امير حلب وكان ذلك سنة ٣٣٧هـ، وفي رحاب هذا الامير وجدَ الحُلم الذي كان يحلم به فأنزله سيف الدولة من نفسه منزلة رفيعة وكان يشاركه في حروبه فتغنى بانتصاراته وعاش في ظلال هذا الامير قرابـة تسع سنوات ولكن الحسد اوغر عليه صدر الامير ؛ فلم يجد بُدّاً من الفـرار لمصر واللجوء الى كافور الإخشيدي علّه يجد في كنفه ما فقده عند امير حلب ، ولكن خاب ظنه ، فعاد ليفر من كافور الى بني بويه ، وفي طريقه خرج عليه جماعـة فكانت نهايته سنة ٣٥٤ هـ ، وخلف لنا ديواناً ضخماً .

تحليل القطعة :

عاد سيف الدولة مرةً من معركة انتصر فيها على البيزنطيين بعد أسر ابن الدُمستق كبير قواد الروم ، وحلّ عيد الأضحى فأقبل المتنبي يهنئه وأنشده هذه القصيدة في ميدان حلب وهما على فرسيهما عام ٣٤٢ هـ .

والمتنبي إذا مدح من يؤمن بهـم ويفضلهـم لمسنا في مدحه جوانب البطولة والارتفاع بممدوحه إلى أجواء من المثل العليا فهو يطري ممدوحه كما يطري نفسه ، وصفات العظمة والشجاعة والخلق الكامل التي يخلعها على الممدوح نجد لها صدى كامناً في ذاتـه ، فهو يصف سيف الدولة بأنه محارب مقدام يجيد الطعن وانه سيّد منفردٌ بين الناس في صفاته ، وانه سيف صارم بتار تقلده الخليفة ليحارب به اعداءه ، وان من شيمه الحلم والأناة والعفو عند المقدرة والكرم ،وانه يفوق الناس رأياً وحكمة ، ونفوذ بصيرة وتجربة وخبرة ومنزلة ، وطيب أرومة ، وكرم عنصر .

هذا هو المتنبي في مديحه مع من أحبهم ،صادق اللهجة قوي الشخصية

يعطي ما في نفسه ويسكب ذلك في معان جياشة تتلاءم مــع ألفاظها ، وتتسق مع موسيقاها . ولكن لم تغب شخصيته فهو يحس بوجوده ، ولا يتخلى عن طموحه وآماله ، فيوجز مطالبه ثم يعود ليفصلها قائلاً : أزل حسد الحساد عني ، لأنك المسؤول عن تهجمهم وجرأتهم عليّ بتفضيلك وتقديمك لي عليهم ، وأنا – كما تعـلم منزلتي في الشعر – إذا انشدك شاعر شعـراً ، فهو شعري اتاك به هؤلاء الشعراء : وانا سيف تتخذه حلية تتزين بها وتصد به الاعداء ، ولا تلتفت لغير شعري ، فما هو إلا اصداء له .

ثانياً - لواؤك منصور

لأبي العباس الجراوي

لِوَاؤكَ مَنْصُورٌ وَسَعْدكَ غالبٌ   وحِزْبُكَ لِلأعْدَاءِ عنكَ مُحارِبُ (١)

لقدَ ثكلت أم المناوى وغررت   مبادىء مِنْ أحْوالِهِ وَعَواقب (٢)

سَمَا لاِسْتِرَاقِ السّمْعِ من وَهَداته   ودون سَمَاءِ المُلْكِ شُهبٌ ثَوَاقِبُ (٣)

تلاقى عليه البرّ والبَحْرُ ترتمي   سفين إلى اسْتيصاله وكتائبُ

غَرِيقٌ بِغَرْقَى مثله متمسك   وَمَوْجُ المَنَايَامِنهُمُ مُتَراكِبُ (٤)

هَوَتْ بهم الأطْمَاعُ في هوّةِ الرّدَى   وغرّتهُمُ جَهْلاً بروقٌ خَوالِبُ (٥)

أطَاعُوا غَوِيّا لم تقيده شِرْعَة   ولم تره وجه الصواب التجاربُ

دَعَاهُمْ إلى آجالهم فَتَهافتُوا   كمَا جَمّعَ الأعْوَادَ للنّارِ حَاطِبُ

تَصَامَمَ عَنْ وَعْظِ الزّمانِ بِقَلْبِهِ
وَأعْرَضَ عَنْ وَجْهِ الهُدَى وهوَ لاحِبُ (٦)

تخيّلَ أنّ النّاصِرِيّةَ دَاره   يُطاعِنُ عَنْ طَاعَاتِها وَيُضَارِبُ

---

(١) لواؤك : العلم وهو دون الراية ، قيل سمي لواء : لانه يلوى .
(٢) الثكل : الفقد .
(٣) شهب : الشهاب كل مضيء متولد من القار ، وما يرى كأنه كوكب انقض .
(٤) المنايا : جمع منية ، وهي الموت .
(٥) الردى : الهلاك .
(٦) لاحب : الطريق الواضح .

هُوَ الأمْرُ أمْرُ اللهِ لَيْسَ يَفُوتُـه مُنَافٍ وَلاَ يَنْأى عَلَيْهِ مُنَاصِبُ
وَمَا هَارِبٌ منـه وَلَوْ بلـغ السّـهَا بناجٍ ، وَهَلْ يَنْجُو مِنَ اللهِ هَارِبُ ؟(١)
بناصرها المنصور تاهت خـلافـة تناسبه في حسـنه ويناسـب
إمامٌ لَهُ فَضْلٌ من الْخَلْقِ بَاهرٌ وَمَرْتَبَةٌ تَنْحَطّ عَنْهَا المَرَاتِـبُ

صاحب القطعة :

هو أبو العباس احمد بن عبد السلام الجراوي الزناتي شاعر الخلافة ، وصاحب المكانة الأدبية الرفيعة في عهد الموحدين ، ولد في العقد الثالث من القرن السادس المتوفى سنة ٦٠٩ ﻫ.

اتصل الشاعر بالخليفة عبد المؤمن الموحدي ، فأعجب به الخليفـة الأديب ، وقال له وهو بمعيته وهو في جبل طارق : « يا أبا العباس: انا نباهي بك اهل الاندلس » هكذا قال عبد المؤمن للجراوي ، وقـد كان على ابوابه من شعراء الأندلس آنذاك مئات منهم قد أموه بقصائد امداحهم ، وهذه الكلمة من عبد المؤمن لها مغزاهـا العظيم ، وتذكرنا بتلك الكلمة التي قالها المعز لدين الله الفـاطمي في شاعره ابن هانيء : « كنا نريد ان نباهي به شعراء المشرق » .

مناسبة القطعة :

ان المنصور الموحدي كان قـد عقد لابن عمه ابـي زيد عبد الرحمن ابن أبـي حفص عمر على محاربة بني غانيـة الذين لم يخضعوا للموحدين وبقوا على الولاء للمرابطين بالجزر الشرقية المسماة اليوم بجزر (الباليار) وهي : ميورقة ومنوروقة وياسبة . واحتلوا بجايـة بالقطر الجزائري ، فنجح ابو زيد في اخراجهم عنها والاستيلاء عليها سنة ٥٨١ ﻫ .

---

(١) السها : كوكب خفي من بنات نعش الصغرى .

تحليل القطعة :

لعل مما ساعد الجراوي على التجويد في المدح انه قضى نحو خمسين سنة في ركاب الموحدين يمدح ويسجل وقائع حروبهم وفتوحاتهم ، وأنه كان وثيق الصلة بعبد المؤمن والمنصور والناصر ، وهم اصحاب بصر بالشعر ، فاستمد من مناقبهم معاني مدحه وانصرف الى سبكها في إحكام وتجويد لينال رضاهم ، حتى نجد عبد المؤمن يقول له : « يا أبا العباس إنا نباهي بك أهل الاندلس » .

قال الجراوي : إن هذا اللواء الذي عقدته أيها الخليفة لحرب بني غانية سوف يكلل بالتوفيق ، وإن حزبك لمنتصر على الاعداء ، وإن هذا الثائر قد تطاول إلى مقام الملك ، ولكن أصابه الإعياء وتقطعت نفسه حسرات ، وانثالت عليه الجنود من كل صوب وفج فشتت شمله، واني له ان يثبت امام جيوشك العظيمة . وان هذا الثائر — وهو يحيى ابن غانية — ومناصره — وهو قراقوش الغزي مولى صلاح الدين الايوبي وكان افتتح برقة — قد اوردتهما الاطماع في هوة سحيقة لا مخرج لهما منها.

وإن يحيى بن غانية قد انخدع هو واتباعه في قراقوش وظنوا انه سيناصرهم ، فاندفعوا في ثورتهم وتهافتوا علينا كما يتهافت الفراش على النيران فكان مصيرهم الهلاك .

وإن الخلافة الإسلامية لتتيه عجباً برائدها المنصور الذي تناسبه ويناسبها، فلم تك تصلح إلا له ، ولم يك يصلح إلا لها .

ولم يكن مدح الجراوي في هذه القصيدة مدحاً خالصاً ، بل كان شعراً سياسياً يدعو فيه للموحدين ويخذل خصومهم ، وفي القصيدة نتبين براعة الشاعر في التصوير وهذا التهكم اللاذع بالثائرين ، وتمتاز القصيدة أيضاً شأن معظم شعر الجراوي بجزالة الالفاظ وفخامة الصياغة .

ثالثاً – نهج البردة

لشوقي

مُحمدٌ صَفْوةُ البـاري ورحمتُهُ وبُغْيَةُ اللهِ من خَلْقٍ ومن نَسَمِ (١)

وصاحبُ الحوضِ يومَ الرسْلُ سائلةٌ
متَى الورودُ وجبريلُ الأمينُ ظَمِـي ؟ (٢)

سَناؤه وسناهُ الشمسُ طَـالعـةً فالجِرْمُ في فَلَكٍ والضَوْء في عَلَمِ (٣)

قَدْ أخطأ النّجْمَ ما نالتْ أُبُوّتُـهُ من سُؤدَدٍ باذِخٍ في مَظْهَرٍ سَنِمِ (٤)

نُمُوا إليه فزَادُوا في الوَرَى شَرَفـاً ورُبَّ أصْلٍ لِفَرْعٍ في الفَخارِ نُمي (٥)

حوَاه في سُبُحَاتِ الطُهْرِ قَبْلَهُمُ نُورانِ قَاما مَقَامَ الصّلبِ والرّحِمِ (٦)

لمّا رآه بحَيرَا قَال : نَعْرِفُـهُ بِمَا حَفِظْنَا مِنَ الأسْماء والسّيمِ (٧)

سَائِلْ حِراءً ورُوحَ القُدْسِ هل عَلِمَا مصُونَ سِرٍّ عنِ الإدْرَاكِ مُنْكَتِمِ (٨)

---

(١) النسم : جمع نسمة ، وهي النفس او هي الانسان .
(٢) الملائكة لا تظمأ ، ولعل مراده بالظمأ هنا لازمه ، وهو الطلب اي للناس بمعنى ان حاله تقتضي ذلك اشفاقاً على حالهم لما يرهقهم من شدة الظمأ وحرج الموقف .
(٣) سناؤه : رفعته . سناه : نوره . العلم : العالم .
(٤) السؤدد : السيادة . الباذخ : العالي . السنم : المرتفع . أبوته : اي ذوو ابوته .
(٥) نموا : نسبوا .
(٦) السبحات : مواضع السجود ، وسبحات وجه الله : انواره .
(٧) السيم : العلامات . بحيرا : راهب نصراني .
(٨) حراء : جبل بمكة فيه غار كان النبي يتعبد فيه قبل الرسالة . روح القدس : جبريل .

كَمْ جَيْئَةٍ وذهَابٍ شُرِّفَتْ بِهِمَا بَطحَاءمكّةَ في الإصْبَاحِ والغَسَمِ (١)

وَوَحْشَةٍ لابن عبْدِ الله بينهمَا

أشْهَى من الأنْسِ بالأحْبَابِ والحَشَمِ (٢)

يُسَامِرُ الوَحْيَ فِيها قَبْلَ مَهْبِطِهِ وَمَنْ يُبَشَّرْ بِسِيمى الخَيرِ يَتّسِمِ (٣)

لمّا دَعَا الصّحْبُ يُسْتَسْقَونَ من ظمإٍ

فَاضَتْ يَدَاه مِنَ التّسْنِيمِ بالسّنَمِ (٤)

وَظَلّلَتْهُ فصارَتْ تَسْتَظِلُ بِهِ غَمَامَةٌ جَذَبَتْها خِيرَةُ الدّيمِ (٥)

ونُودِيَ اقْرَأْ تَعَالَى الله قَائِلُهَا لمْ تَتّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلتْ لَهُ بِفم

هُنَاكَ أذّنَ للرّحْمنِ فَامْتَلأتْ أسْمَاعُ مكّةَ منْ قُدْسِيّةِ النّغَمِ (٦)

جَاءَ النّبِيّونَ بالآياتِ فَانْصَرَمَتْ وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرَ مُنْصَرِمِ (٧)

آياتُه كُلّمَا طَالَ المَدَى جُددٌ يَزِينُهُنّ جَلالُ العتْقِ والقِدَمِ (٨)

سرَى بِكَ اللهُ لَيْلاً إذْ مَلائكُهُ

والرّسْلُ فِي المسْجِدِ الأقْصَى على قَدَمِ (٩)

---

(١) البطحاء : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى . الغسم : الإمساء وظلمة الليل .
(٢) الوحشة : الخلوة ، الحشم : الخدم .
(٣) مهبط : بمعنى هبوط .
(٤) التسنيم : ماء بالجنة .
(٥) الديم : جمع ديمة ، وهي المطر الدائم .
(٦) أذن للرحمن : دعاء الى الله .
(٧) انصرمت : انقطعت .
(٨) جدد : جمع جديد .
(٩) المسجد الاقصى : بيت المقدس .

لَمّا خَطَرْتَ به التَفّوا بسيّدِهِمْ ... كالشُهبِ بالبدرِ، أو كالجند بالعلم (١)
جُبْتَ السّماواتِ أوْ ما فوقهنّ بهم ... على مُنوّرَةٍ دُرّيّةِ اللّجُمِ (٢)
مشيئَةُ الخالق البَارِي وصَنْعَتُهُ ... وقُدْرَةَ اللهِ فَوْقَ الشّكّ والتّهَمِ
وقيلَ كُلّ نبيّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ ... ويا محمدُ هذا العرشُ فاستلمِ
خَطَطْتَ للدّينِ والدنيا عُلُومَهُمَا ... ياقارِىءَ اللّوحِ بَلْ يَالاَمِسَ القلمِ (٣)
أحطْتَ بينهُما بالسرّ وانكشَفَتْ ... لكَ الخزَائنُ من علْمٍ ومن حِكَمِ

صاحب القطعة :

هو أحمد شوقي ولد بالقاهرة سنة ١٨٦٨ وتوفي بهـا سنة ١٩٣٢ ، وكان والده من خاصة الخديو سعيد ، وجدته لامه إحدى وصائف الخديو إسماعيل . وتعلم بمدارس مصر الابتدائية والثانوية . وقضى في الحقوق سنتين يدرس القانون ، ثم اوفده الخديو عـلى نفقته إلى فرنسا ليدرس القانون والادب،فقضى هناك أربعة أعوام ونصف عام أتمّ فيها دراسته ، وعاد الى مصر في معية الخديو توفيق ثم عباس ، وكان شاعره وصفيه. ولما قامت الحرب العالميـة الاولى نفي الى الانـدلس ، ولم يعد الى مصر إلا بعد انتهائها .

وقد فطره الله ميالاً الى الشعر ، ولعل من أسرار ذلك انحداره من اصول أربعة : العرب والترك واليونان والجركس ، فورث الشاعريـة عن العرب واليونان . وهما أمتا شعر وشعور ، ثم إنه غذّى هذا الاستعداد بالثقافة المنوعـة ، وحفظ الاشعار العربية والفرنسية . وكان في أول

---

(١) الشهب : جمع شهاب ، وهو كل مضيء متولد من النار ، وما يرى كالكوكب المنقض .
(٢) يريد بقوله : منورة درية اللجم : البراق .
(٣) خطة علوم الدين والدنيا كناية عن تعليمها الناس وبثها فيهم .

حياته يصرف عنايته إلى المعاني . ولا يحفل كثيراً بالمباني ، وكان حافظ على عكسه . فكان لكل منهما انصار ، ولكن لما عاد من منفاه جزلت عبارته وفخمت صياغته ، وراع اسلوبه ، ففاق حافظاً على اللفظ والمعنى. وسئل حافظ عــلى ذلك فقال : « كان شوقي قليل البضاعة في الشعر العربـي واسع الاطلاع على الشعر الإفرنجي . فلما كان منفــاه بالاندلس عكف على قراءة دواوين فحول الشعراء ، وكشف كنوزهـا ، وعلق عيونها ، فأصبح جامعاً للميزتين حائزاً للفضيلتين » .

لا عجب بعد ذلك ، أن انعقدت لشوقي إمــارة الشعر العربـي في العصر الحديث . وبايعه بهـا شعراء العرب وأدباؤهم في حفل عظيم أقيم بمصر سنة ١٩٢٧ ، وكان من المبايعين منافسه الاول حافظ إبراهيم القائل:

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً   وهذه وفود الشرق قد بايعت معي

تحليل القطعة :

إن هذه القصيدة قاربت المائتي بيت ، وقد استهلها شوقي بالنسيب، ثم اخذ يسرد فيها حياة الرسول عليه السلام ، ويعدّد جوانب عظمته، وينطلق في تبيان الصور الجميلة الممزوجة بروح الحق والإيمان ، وتفيض شاعرية شوقي بالعاطفة الدينية فترى فيه شاعر الإسلام والمسلمين . ونرى في غير إبهام ان ثمة قوة غلبت طبع الشاعر هي قوة الإيمان .

فهو يقول : إن الله قد اصطفى محمداً لأداء رسالته ، وإن نــوره ليملأ العالم ، وإن أهله وقومه قد زادوا شرفاً على شرفهم بنسبتهم إليه، وإن نوره عليه السلام ظل طوال الدهور ينتقل من ظهر طاهر الى ظهر طاهر حتى استقر في جوف آمنة . وحينما رآة الراهب النصراني (بحيرا) عرفه بما لديه من الدلائل الإنجيلية .

وإن غار حراء قد شهد جولات للرسول وهو يتعبد الله فيه على دين إبراهيم عايه السلام : وذلك قبل مبعثه . وللرسول معجزات كثيرة منها:

نبع الماء من بين اصابعه ، وتظليل الغمام له ، ولكن معجزته الخالدة على الايام هي القرآن الكريم ، وستظل باقية في حين ان معجزات غيره من الرسل قد انتهت بانتهاء رسالتهم . ومن معجزات الرسول الإسراء والمعراج ، ومشيئة الله إذا ارادت امراً كان ، ومن ثمّ فهو لا يرقى اليه الشك ، .وبين يدي ربه تلقى تعاليم رسالته الكريمة الهادية للبشرية في الدنيا والآخرة

والقصيدة في موضوع واحد ، ولكن شوقي بدأها بالنسيب جرياً على عادة قدماء الشعراء ، وتتجلى في القصيدة نزعة شوقي التاريخية، كما تتجلى فيها عاطفته الدينية ، وإشادته بالدعوة الإسلامية ، وهو مولع بالحكمة يسوقها في مناسباتها ، ويستمدها من الفكرة التي يتحدث عنها . أما اسلوب القصيدة فانه يتسم بالجزالة والقوة والإيجاز .

موضوعات للبحث

١ — انقد قصيدة المتنبي ، واستعن بالاسئلة الآتية : ما مناسبة القصيدة ؟ ما قيمتها الشعورية والتعبيرية ؟ ما شخصية الشاعر المنعكسة من خلالها ؟ ما أثرها في نفسك ؟.

٢ — استرقّت هبات الامراء رقاب معظم اقطاب الشعر العربي .

اشرح هذا القول،وبيّن اثر هبات الممدوحين في شعر المتنبي وشوقي.

٣ — انقد قصيدة شوقي ، وطبقها على التاريخ ، مظهراً ما فيها من عاطفة وخيال ، مبيناً رأيك في اسلوبها .

للمطالعة

١ — ديوان المتنبي : شرح البرقوقي .

٢ — المتنبي : للدكتور زكي المحاسني .

٣ — المتنبي : شفيق جبري .

٤ — الرؤوس : لمارون عبود .
٥ — المدح : للدكتور سامي الدهان .
٦ — مع المتنبي : للدكتور طه حسين .
٧ — الدراسات في الادب العربي : لإنعام الجندي .
٨ — الشوقيات : لأحمد شوقي .
٩ — في الأدب الحديث : لعمر الدسوقي .
١٠ — في اصول الادب : للزيات .
١١ — وطنية شوقي : للدكتور احمد الحوفي .
١٢ — شوقي : للدكتور شوقي ضيف .

الفصل الخامس عشر

الهجاء

هو الصفحة السلبية المعبرة عن القبائح، وهو صنو المدح منذ الجاهلية، وكثيراً ما اقترن الهجاء بالمدح في تاريخ الادب العربي وبخاصة في المجال السياسي او القبلي .

ومن الهجاء ما هو فردي يستعر ناره بين شاعرين او اكثر كهذه المعركة التي شبت بين جرير والفرزدق ، ومنه ما هو تكسبي كهجاء الاعشى والحطيئة ، ومنه ما هو جماعي يعصف بقبيلة او حزب او أمة؛ فقد حتمت العداوات على الشاعر ان يكون لسان قبيلته كأكثر الهجاء في العصر الجاهلي ، وبمقتل الخليفة عثمان بن عفان نشطت حركات حزبية وسياسية من عقالها وكان من شعرائها الكميت والاخطل ودعبل الخزاعي، ولما كثر الشعراء الاعاجم في الدولة العباسية واخذوا ينزعون الى جنسهم ظهر الهجاء الشعوبي ، وكان من رجاله بشار وابو نواس .

والهجاء من حيث الروح والطريقة : منه ما عماده الطعن والتجريح والقذف ، ومن زعمائه الاعشى والحُطيئة وجرير والفرزدق والمتنبي ، ومنه ما عماده السخرية والمسخ والتشويه اللاذع وزعيمه ابن الرومي ، وافضل الهجاء ما تصدى فيه الشاعر لتصحيح خطيئة مرذولة كالذلّ وقبول الرشوة او لتقبيح شخص يوقع ضرراً بالجماعة .

نماذج تطبيقيّة

ابن الرومي

١ ــ وجه عمرو :

وَجْهُكَ يا عَمْرُو فِيه طُولُ وَفِي وُجُوهِ الكِلابِ طُول
مَقَابِحُ الكلبِ فِيك طُرّاً يَزُولُ عَنْهَا وَلاَ تَزُولُ (١)
وَفِيه أشْيَاءُ صَالِحَاتٌ حَمَاكَهَا اللهُ والرَّسُولُ (٢)
فَالْكَلْبُ وافٍ وفيكَ غَدْرٌ فَفِيكَ عَنْ قَدْرِه سُفُولُ (٣)
وقَدْ يُحَامِي عَنِ المَوَاشِي وَمَا تُحَامِي وَلاَ تَصُولُ (٤)
وَأنْتَ مِنْ أهْلِ بَيْتِ سُوءٍ قِصَّتُهُمْ قِصَّةٌ تَطُولُ
وَجُوهُهُمْ لِلْوَرَى عِظَاتٌ لكنَّ أقْفاءَهُمْ طُبُولُ (٥)
مَا إنْ سَأَلْنَاكَ مَا سَأَلْنَا إلاّ كَمَا تَسْأَلُ الطُّلُولُ (٦)
صَمَّتْ وعَيَّتْ فَلاَ خِطَابٌ وَلاَ كِتابٌ وَلاَ رَسُولُ (٧)

---

(١) المقابح : ضد المحاسن : طرا : جميعاً .
(٢) حماكها : منعك منها .
(٣) الغدر : ضد الوفاء . السفول : ضد العلو .
(٤) المواشي : الانعام من إبل وبقر وغنم . يصول : يسطو ويثب .
(٥) الورى : الخلق . القفا : مؤخر العنق .
(٦) الطلول : آثار المنازل الدارسة .
(٧) عيت : عجزت عن الكلام .

مسْتَفْعُلــنْ فَاعلــنْ فَعُـــولُ مُستفعلــن فــاعلــن فعـــول
بيتٌ كمعْنَاكَ لَيْسَ فِيـــه مَعْنىً ، سِوَى أنّه فُضُولُ (١)
نَسْتَغْفِرِ الله قَــدْ فَعَلْنَــا مَـا يَفْعَلُ المَائِقُ الجَهُول (٢)

٢ — الجيف الطافية :

لَوْ تَرَاه ثَانياً مِنْ عِطْفِــهِ مَاثِلاً في السَّرْحِ مِنْ فَرْطِ الصَّلَفْ (٣)
شَامِخــاً بِالأنْفِ مِنْ نَخْوَتِـهِ فَهْوَ لَوْ يُسْتَرْعَفُ الخَلّ رَعَفْ (٤)
لَرأتْ عَيْنَاكَ مِنْــه عَجَبــاً مُنْسِياً كلّ عَجِيبٍ مُطّرَفْ (٥)
نحْنُ أحْياءٌ عَلَى الأرضِ وقَــدْ خَسَفَ الدّهْرُ بِنَا ثُمّ خَسَفَ (٦)
أصبحَ السّافِلُ مِنّــا عَالِيــاً وَهَوَى أهْلُ الْمعَالِي وَالشّرَفْ
رَبِّ أنْصِفْنِي مِنَ الدّهر فَما لِيَ إلاّ بِكَ ، مِنْــه مُنْتَصَف
يَسْفُلُ النّــاسُ وَيَعْلُو مَعشرٌ قَارَفُوا الإقْرافَ مِنْ كلّ طَرَفْ (٧)

---

(١) الفضول : الامور الزائدة عن الحاجة ، كفضلات البدن وهي ما تخرج من منافذه .
(٢) المائق : الاحمق .
(٣) ثنى عطفه : لوى عنقه كبراً وغطرسة . ماثلا : قام منتصباً . السرح : فناء الدار . الصلف : الاعجاب والتكبر .
(٤) شمخ بأنفه : رفعه اعتزازاً . النخوة : الحماسة والفخر . رعف : خرج الدم من انفه .
(٥) المطرف : الغريب النادر ، المشترى حديثاً .
(٦) خسف الدهر بنا : اسقطنا الى الحضيض .
(٧) قارفوا : اقترفوا الذنوب وباشروها .

وَلَعمْرِي لَوْ تَأمّلْنَاهُمْ مَا علَوْا لَكِنْ طَفَوْا مِثْلَ الجِيفْ (١)

٣ -- البغل الطحان :

أبُو سُلَيْمانَ لا تُرْضَى طريقَتُهُ لاَ فِي غناءٍ ، وَلاَ تعليم صبيَان
لَه إذَا جَاوبَ الطّنبورَ مُحْتَفِلاً
صَوْتٌ بمصرَ ، وضربٌ في خُراسَانِ (٢)
عُواءُ كَلْبٍ علَى أوْتار مِنْدَفَةٍ في قُبْحِ قِرْدٍ ،وفي اسْتكبار هَامَان(٣)
وَتَحْسَبُ العينُ فكَيّه،إذاَ اخْتَلَفَا عند التّنغّمِ ،فَكّيْ بَغْلِ طَحّان!

صاحب القطع :

هو ابو الحسن علي بن العباس بن جريج ، مولى عبدالله بن عيسى ، ينحدر من اصل رومي ، واما امه فكانت فارسية ، وقد اشار في شعره غير مرة الى هذين الاصلين .

وُلِدَ ببغداد سنة ٢٢١ هـ ، ونشأ بها في حقبة من حياة الدولة العباسية حافلة بالاحداث والثورات ، وكان معاصراً لشاعرين كبيرين ، هما البحتري وعبدالله بن المعتز .

وكان ابن الرومي غريب الاطوار ذا مزاج عصبي حاد يغلب عليه التشاؤم والتطير ، وقصّ له معاصروه غرائب كثيرة في هذا الجانب ، وعرف مخالفوه فيه هذا النقص فكانوا لا يرحمونه ، وزاد في تعاسته وبؤسه انه كان نهماً بملذات الحياة ومتاعها ، كيفما عرضت ، وإشباع

---

(١) الجيفة : الجثة الميتة المنتنة .
(٢) الطنبور : آلة موسيقية .
(٣) المندفة : الخشبة التي يندف عليها القطن .

رغباته في الاكل ، ومجالسة القيان ، وشرب الخمر ، وتعاونت مع ذلك صروف الحدثان ، فان ابناءه الثلاثة الذين رزقهم ماتوا تحت سمعه وبصره ، وماتت امهم ، ومن قبل ذلك ماتت امه وابوه واخوه الاكبر الذي عاله بعد ابيه ، وليس ذلك فحسب ، فقد اصطحت عليه العلل ، والامراض فتساقط شعره واسرع الشيب إلى رأسه ، فشعر بالمرارة الحادة اللاذعة فانقلب ساخطاً على كل شيء وتوفي ابن الرومي سنة ٢٨٣ ه ويقال إنه مات مسموماً .

ولابن الرومي شعر كثير يؤلف ديواناً ضخماً في اكثر من اربعة مجلدات ولم يطبع هذا الديوان بعد ، ولكن مخطوطاته موجودة والمطبوع منه جزء واحد ، وليس هناك غرض من اغراض الشعر الغنائي إلا قال فيه ابن الرومي .

تحليل القطعة الاولى :

ابن الرومي من اصحاب الشهرة الذائعة في دنيا الهجاء ، ولكن هجاءه يختلف عن هجاء القذف والطعن ، كما عرفه دعبل الخزاعي والحطيئة ، ومن على شاكلتهما ، إنه هجاء التشويه والمسخ والإضحاك خصوصاً ؛ وهذا الهجاء ما نسميه (بالهجاء الساخر) او (الهجاء الكاريكاتوري) او (الهجاء المسخي) وبه يمسخ الشاعر الحي والجماد ويكسبه من الاشكال كل بشع مشوه مضحك .

ويلاحظ ان الهجاء صار فردياً (شخصياً) لتفكك الروابط بين افراد القبيلة ايام ان كانت العصبية على اشدها ، وكان هجاء القبيلة يحط من شأن جميع افرادها ، كما يلاحظ ان الهجاء صار اشدّ إقذاعاً مما كان عليه في العصور السابقة .

وقد سلك ابن الرومي في هذه القطعة منهج الموازنة بين من يهجوه والكلب ، الذي هو رمز الحقارة والخسة عند شعراء العرب ، فبين أوجه الشبه التي بين عمرو والكلب ، وهي طول الوجه والجبن والمذلة ، وقبح الخلقة والهوان ، وربما كان من المستطاع ان يؤدَّب الكلب فيخلص من

مقابحه في حين أن المهجو لا يستطيع منها خلاصاً.

ثم عاد فعدد ما يمتاز به الكلب على ذلك المهجو ، ففي الكلب صفات محمودة ترفعه عن هـــذا الإنسان ، فالوفاء الذي يقابله غدر المهجو ، ودفاع الكلب عن الحيوانات التي يحرسها ، أما هو فلا يدافع عن أحد، والمهجو متأصل في السوء قد ورث ذلك عن آبائه الذين لهم في الحقارة تاريخ طويل ، ولهم قصة في الدناءة يطول شرحها ، ففي دمامة وجوههم عظة للناس يرونها فيؤمنون بقدرة الله على مسخ وجوه أهل السوء ، وفي أقفائهم العريضة متسع للصفع ، وما أنت حين نسألك إلا طلل بال أصم عاجز لا تستطيع خطاباً ولا كتاباً ...

غفرانك يا رب لقد اضطرتني نقائص عمرو إلى ان اقف منه موقف الحمقى والسفهاء .

تحليل القطعة الثانية :

ولو رأيت ذلك المتكبر الذي صعّر خدّه عجباً وافتخاراً ، وشمخ بأنفه اعتزازاً وغطرسة ، حتى تبدو طاقات أنفه في صورة بغيضة يخيل إليك فيها انك لو استقطرت هذه الأنف خلاًّ لقطرت ونزفت ، وأن هذه الصورة التي تراها عينك تكاد تُنسيك كل عجيب وغريب .

هذ هو فعل الزمان مع ابن الرومي ولم يكن يؤذيه شيء كما تؤذيه كيمياء الحظ التي ترفع وتضع في غير نظام ، وما يزال يحتال عـــلى تصوير هذا المعنى ، وأن الرفيع يهبط والسافل يعلو ، حتى يتضخم لك موضع العيب ، ثم يستعيذ بربه على هذا الدهر الخؤون القلب ليأخـــذ بحقه ، ويقسم لنا بحياته في صورة تستبين فيها مزية الشاعر الفنـــان أن هؤلاء الذين ارتفعوا في الواقع ما ارتفعوا حقيقة ، ولكنهم علوا مثـــل الجيف النتنة التي تطفو على سطح الماء .

ومن هنا نرى انه فضح المجتمع الذي كان يعيش فيه،وارانا صورة تاريخية تكادُ تكون احد المراجع الامينة لتصوير عصر الشاعر ، هــذا العصر الذي لا يسوي بين الناس ، ولا يعاملهم بالعدل .

تحليل القطعة الثالثة :

وقف ابن الرومي امــام ابـي سليمان الطنبوري وقفة مسخه فيها ، وشوه خلقه وطريقته ، حتى جعل ابتسامة السخرية والطرافة ترتسم على الشفاه ، فهو إذا ما غنى فأنت لا تسمع غناء ولكنك تسمع عواء كلب على اوتار مندفة،وهو يجمع الى عوائه وحشرجته دمامة في الخلقة وقبحاً في الهيئة ، فكأنه القرد شكلاً ، وإذا انفرجت شفتاه وفتح فمه ليؤدي لحناً ظننت فكيه فكي بغل يالعلع بنهيقه ، وهو فوق هذا لا تحمد طريقته لا في غناء ولا في تعليم .

موضوعات للبحث

١ — اشرح الابيات الآتية شرحاً ادبياً محاولاً ان تستخرج منها خصائص الوصف الهجائي الساخر عند ابن الرومي . قال في صاحب اللحية الطويلة :

ان تطل لحية عليك وتعرض   فالمخالي معروفة للحمــير
علق الله في عــذاريك مخلاة   ولكنها بغــير شعــير

وقال في البخيل :

يقتّر عيسى عــلى نفسه   وليس بباق ولا خالد
ولو يستطيع لتقتــيره   تنفّس من منخر واحد

٢ — ابن الرومي من اصحاب الشهرة الذائعة في دنيا الهجاء ، ولكن هجاءه يختلف عن هجاء القذف والطعن — ناقش .

٣ — خيال ابن الرومي بحر بعيد الغور،بعيد الشاطىء،وقلّ من يجاريه في هذا المضمار الفسيح الارجاء — ناقش .

٤ — تناول قطعة من قطعه السابقة، وحللها، مبيناً قيمتها التصويرية وما فيها من خيال مجسم ، وهل تتراءى لك شخصيـــة ابن الرومي الهجاءة من خلالها ؟ وضح ، مؤيداً رأيك بالشاهد .

للمطالعة

١ — ابن الرومي : لعباس محمود العقاد .

٢ — ابن الرومي : لعبد الغني حسن .

٣ — الهجاء والهجاءون : للدكتور محمد حسين .

٤ — تاريخ النقائض : لاحمد الشايب .

٥ — الفن ومذاهبه في الشعر : للدكتور شوقي ضيف .

٦ — ابن الرومي : إيليا حاوي .

الفصل السادس عشر

الرّثاء

الرثاء هو بكاء الميت والتفجّع عليه ، وإظهار اللوعة لفراقه.والحزن لموته وتعداد خلاله وشمائله الكريمة ، والإشادة بمناقبه وخصاله وشجاعته ونجدته وكرمه ووفائه . وغاية الرثاء أن ينفس المنكوب عن نفسه ، إذا كان الرّاثي نفسه قد أصيب في عزيز لديه ، او ان يخفف الأسى ويعزي بالميت ، ويشيد بمآثر عظيم أدركته المنية إذا كانت النكبة لا تتصل به اتصالاً مباشراً ، وقد ينطلق الشاعر من حدود هذه الدائرة الضيّقة ويسير الى أفق إنساني فيتخذ من الموت أسباب العبرة ويردد صولة الموت وسلطان الفناء وما بعد هذه الحياة من حياة اخرى ، ويجمّل ذلك بالحكمة والفلسفة ، وقد شاركت فيه النساء وبرزن فيه لرقة قلوبهن وغزارة دموعهن كجليلة والخنساء ، وعاتكة بنت زيد ، وكانوا أحياناً يستهلون قصائد الرثاء بالنسيب كما فعل دُريد وابن ذؤيب .

رثاء الأماكن :

رثاء الأمكنة بما فيها المدن ورثاء الدول في الأدب العربي يكاد يضارع رثاء الأشخاص إذا ما قيس به ، وأول دولة بكاها الشعراء في المشرق دولة بني أمية التي سقطت سنة ١٣٢ هـ وقد بكيت بغداد مرتين ، مرة يوم أحرقها ابن طاهر قائد المأمون في أثناء حصاره لأخيه الأمين ، ومرة اخرى يوم حرقها هولاكو ، ورمى بخلافة العباسيين وبالتاريخ الباهر في دجلة ، وهذا البحتري يرثي إيوان كسرى، وابن الرومي يرثي البصرة حين دخلها الزّط ، وأباحوها لأنفسهم وعاثوا فيها فساداً، وعمارة اليمني

يرثي الدولة الفاطمية بقصيدة طويلة قالها وهو بسجن صلاح الدين الايوبي ، ونمضي إلى عصر الحروب الصليبية فنجد الشعراء يبكون مدن الشام التي كانت تسقط في ايدي الصليبيين ، ولم يبكوا مدينة كما بكوا بيت المقدس حين سقطت بأيدي الفرنجة سنة ٤٩٢ ﻫ ولما أفل ملك الطولونيين في مصر وكذلك المماليك وجدنا من يصيح لزوال دولتهم كابن إياس .

هذا ما كان بالمشرق . اما في المغرب فما اكثر ما جأر شعراء المغرب والاندلس وذرفوا الدموع حارة سخينة كلما سقطت مدينة من مدنهم في ايدي الاعداء كما كانت لهم افراح حينما يستردونها من ايدي المغتصبين ، ومن اشهر القصائد التي قيلت في رثاء الدول قصيدة ابن الرندي تلك التي فيها يبكي إشبيلية حين استولى عليها فردينان الثالث سنة ٥٤٥ ﻫ وقد بكى معها مدناً اخرى سقطت قبلها بقليل ، وهي قرطبة حاضرة بني امية ، وجيان ، وشاطبة ، ومرسية ، وبلنسية وحمص .

نماذج تطبيقيّة

اولا – رثاء اشبيلية

لأبـي البقاء الرندي

لِكلّ شَيْءٍ إذَا ما تَمّ نُقْصَانُ ... فَلاَ يُغَرّ بِطِيب العَيْش إنْسَانُ
هي الأمُورُ كمَا شَاهَدْتَهَا دُولٌ ... مَنْ سَرّهُ زَمَنٌ سَاءته أزْمانُ (١)
وَهذهِ الدّارُ لا تُبْقِي على أحَدٍ ... وَلاَ يَدُومُ عَلَى حَالٍ لهَا شَانُ
أينَ المُلُوكُ ذَوُو التّيجانِ مِن يمَنٍ ... وَأيْنَ مِنْهُم أكَالِيلٌ وَتِيجان (٢)
أتَى عَلَى الكلِّ أمرٌ لاَ مَرَدّ لَهُ ... حتى قَضَوْا فكأنّ القَوْمَ ما كانوا (٣)
وَصَارَ ما كانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ ... كمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطّيْفِ وَسْنَان (٤)
دَارَ الزّمانُ عَلَى « دارا » وَقَاتله ... وأمّ كِسْرَى فمَا آواه إيوَانُ (٥)
فجائعُ الدّهْر أنواعٌ مُنوّعَةٌ ... وللزمان مَسَرّاتٌ وأحْزانُ

---

(١) دول : متداولة .
(٢) الاكاليل : ما وضع على الرأس .
(٣) قضوا : هلكوا وماتوا .
(٤) الوسنان : الذي اشتد عليه النوم .
(٥) دارا : اسم ملك . وأم : قصد، وفي رواية: وأما.

وَللْحوَادِثِ سُلوَانٌ يُسَهّلُهـا وَما لِمَا حَلّ بالإسْلاَم سُلوان(١)

دَهَى الْجزيرَةَ أمرٌ لاَ عزَاء لَه هوَى لَهُ أحُدٌ وَانْهَدّ ثهْلاَن(٢)

فَاسْأل بَلَنْسِيَةً ما شأن مُرْسية وأينَ شَاطبةٌ أمْ أينَ جَيّانُ

وَأينَ قرْطُبَةٌ دارُ العُلوم فكَمْ مِنْ عالِمٍ قَدْ سَمَا فِيها لَهُ شَان

وَأيْنَ حِمْصٌ وما تَحْوِيهِ مِن نُزَه وَنَهْرُها العذْبُ فَيّاضٌ وَمَلآن(٣)

قَوَاعِدٌ كُنّ أرْكانَ البِلاَدِ ، فَمَا عَسَى البقاءُ إذَا لَمْ تَبْقَ أرْكَانُ

تَبْكِي الْحَنِيفِيّةُ الْبَيْضاءُ من أسَفٍ

كمَا بَكى لِفِراقِ الإلْفِ هَيْمانُ (٤)

عَلَى ديار مِن الإسْلاَمِ خَالِيَةٍ قَدْ أقْفَرَتْ وَلَهابالْكُفْرِ عُمرَان

حَيْث المَساجِد قَدْ صارَتْ كَنَائِسَ مَا

فِيهِنّ إلاّ نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ

حَتّى المَحَارِيب تبْكي وَهْيَ جامدة حتى المَنَابِر ترثي وَهي عِيدَانُ

يا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الخَيْلِ ضَامِرةً كأنّها في مَجال السّبْقِ عِقْبَان(٥)

وَحَامِلِينَ سُيوفَ الهِنْدِ مُرْهفة كأنّها في ظَلاَمِ النّقْعِ نِيرَانُ (٦)

وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ البَحرِ في دَعَةٍ لَهُمْ بأوْطانِهِمْ عِزّ وسُلْطان (٧)

---

(١) سلوان : صبر ونسيان .

(٢) احد وثهلان : جبلان بالحجاز . دهى : اصاب .

(٣) حمص : قيل هي اشبيلية .

(٤) الحنيفية البيضاء : الدين الاسلامي .

(٥) عتاق : جمع عتيق ، والفرس العتيق الجيد . عقبان : جمع عقاب ، وهو طائر جارح .

(٦) النقع : الغبار .

(٧) الدعة : رفاهة العيش .

أعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أهْلِ أندلسٍ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ القَوْمِ رُكبان
ماذَا التّقاطُعُ في الإسْلاَمِ بَيْنَكُمُ وَأنْتُمْ يا عِبَادَ اللهِ إخْوَانُ
يا مَنْ لذِلّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمُ أحَالَ حَالَهُمُ جُورٌ وَطُغْيَانُ
بالأمْسِ كانُوا مُلوكاً في مَنَازِلِهِمْ واليومَ هُمْ في بِلاَدِ الكُفْرِ عُبْدان
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارى لاَ دَلِيلَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ مِن ثِيابِ الذّلّ ألْوَانُ
وَلَوْ رَأيتَ بكَاهم عِنْدَ بَيْعِهِم لَهَالَكَ الأمرُ واسْتَهْوَتك أحزَان
يَا رُبّ أمٍّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تفَرّقُ أرْوَاحٌ وأبْدَانُ
وَطِفْلَةٍ مِثْلِ حُسْنِ الشّمْسِ إذْ طَلَعَتْ
كَأنما هي ياقوتٌ ومَرْجَانُ
يَقُودُهَا العِلْجُ للمكروهِ مُكْرَهَةً والعينُ بَاكيةٌ والقَلبُ حَيْرَان(١)
لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ
إنْ كان في القلب إسْلامٌ وإيمَانُ

صاحب القطعة :

أبو البقاء صالح بن شريف الرندي نسبة إلى رندة احدى حواضر الاندلس ، وهو من شعراء القرن السابع الهجري، وخاتمة ادباء الأندلس، وليس بين أيدينا معلومات واضحة عن حياته ، ويظهر أنه عاصر هذه الحقبة من تاريخ الاندلس التي أخذت فيها المدن الأندلسية تسقط كأوراق الخريف تحت ايدي الفرنجة ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه دفعه الى تسجيل تلك الأحداث في هذه القصيدة وتوفي سنة ٦٩٨ هـ .

(١) العلج : الواحد من اعداء المسلمين .

تحليل القطعة :

لكل شيء إذا ما تم نقصان ، هذا معنى متداول وهو أنه إذا ما تم الشيء بدأ في النقص ، وهو مأخوذ من قوله سبحانه : (حتى اذا اخذت الأرض زُخرُفها وازّينت وظنّ أهلُها انهم قادرون عليها أتاها أمرُنَا ليلاً او نهاراً فجعلناهــا حَصيداً كأن لم تغنَ بالأمس) فعلى الإنسان الا يأمن لصفو الزمان ومسرة الايام ، فمن سرّته ساعة ابكته ساعات،وهذه الدنيا لا تفي لإنسان ولا تبقى على حال واحدة، ومصائب الزمان انواع ولكل مصيبة ما يسلي أصحابها ويسرى عنهم ، الا هــذه المصيبة التي حلت بالإسلام في الاندلس فلا سلو عنها .

وقد اضطربت الجزيرة العربية مهد الإسلام لهذه الكارثة التي حلّت بالأندلس،ثم بدأ يعدد المدن التي سقطت في ايدي الاسبانيين والتي كانت ركناً ركيناً للحضارة العربية الإسلامية،وللحنيفية البيضاء فرجعت مساجدها كنائس ، لا ترى فيها الا صُلباناً ونواقيس تبكي محاريبها وترثي منابرها.

ثم اخذ يخاطب امراء المسلمين في شمال افريقيا مستنجداً بهم فيقول: ألم يأتكم نبأ ما اصاب جيرانكم في الارض واخوتكم في الدين والنسب، لقد سارت الاحاديث بمصيبتهم ، فكيف لم تهبوا لمعونتهم ولا أرى سبباً لهذا التقاطع ايتها الامم الاسلامية ودينكم دين اخاء وتعاون .

ثم ينادي مستغيثاً: يا من يستطيع إنقاذ اقوام كانوا اعزّاء وملوكاً، فصاروا اليوم عبيداً يذوقون آلام الطغيان والجوع ، يسوق بناتهم الحسان الكفار مُكرهات هذه المناظر التي تدمي القلب وتذيبه ان كان في القلب إسلام وايمان .

وتمتاز هذه القصيدة باللوعة الصادقة والحزن العميق وزادتها العاطفة الدينية روعة والتياعا ، الى ذكر الشعوب السالفة التي اهانها الدهر الى تعظيم الخطب ، والى صنعة في التطريز والتدبيج حيث اكثر الشاعر من استعمال المجاز في نسبة البكاء الى المحاريب ، والرثاء الى المنابر وغــير ذلك من الاشياء التي لا تتهيأ الا لشاعر موهوب .

ثانيا – رثاء مصلوب

لابن الانباري

عُلُوٌّ في الحَياةِ وفي المَمَـــاتِ لحقٌّ أنْتَ إحْدَى المُعْجِزَاتِ
كأنَّ الناسَ حَوْلَكَ حين قـاموا وفودُ نَدَاك أيام الصِّلاَتِ(١)
كأنكَ قـائمٌ فيهم خطيبـاً وكلّهُمُ قيـامٌ للصّـلاَةِ
مَدَدْتَ يديك نحوهُمُ احتِفَاء كمدِّهِمَا إليهم بالهِبَـاتِ (٢)
ولما ضاق بَطْنُ الأرض عن أنْ يَضُمَّ عُلاَكَ من بعد الوفـاةِ
أصاروا الجوَّ قبرك ، واستعاضـوا عن الأكفان ثَوْبَ السّافياتِ (٣)
لعُظْمِكَ في النفوس تَبيتُ تُرْعَى بِحُرّاسٍ وحُفّـاظِ ثِقـاتِ
وتُوقَدُ حَوْلك النيرانُ لَيْـلاً كذلك كُنتَ أيـامَ الحَيَـاةِ
ركبتَ مَطِيّة من قبلُ زَيْـدٌ عَلاَهـا في السِّنِينَ الماضياتِ
وَلَـمْ أرَ قبل جِذْعِكَ قطّ جِذْعاً تَـمكّنَ من عنـاق المكْرمـات
أسأت إلى النـوائب فاسْتَثَـارت فأنتَ قتيـل ثـأر النـائباتِ (٤)
وكنت تُجِيرُ من صَرْفِ الليـالي فعاد مُطَالباً لك بالتِّراتِ (٥)

---

(١) الندى : الكرم .
(٢) الاحتفاء : المبالغة في الإكرام .
(٣) السافيات : جمع سافية ، وهي الريح تحمل غباراً .
(٤) النوائب : المصائب .
(٥) الترات : جمع ترة ، وهي الثأر .

وصيّرَ دَهْرُكَ الإحسانَ فِيهِ ... إلينا مِنْ عَظِيمِ السَّيئاتِ
وكنت لمعشر سَعْداً ، فلما ... مَضَيْتَ تَفَرَّقُوا بالمنحساتِ
غَليلٌ باطنٌ لكَ في فؤادي ... يخفّف بالدّموع الجاريات(١)
وَلَوْ أنّي قَدَرْتُ على قيامٍ ... بِفَرْضِكَ والحقوقِ الواجباتِ
ملأتُ الأرضَ من نَظْمِ القوافي ... ونُحْتُ بها خلاف النّائحاتِ
ولكنّي أصَبِّرُ عنك نَفْسِي ... مَخَافَةَ أن أُعدّ من الْجُنَاةِ
ومالَكَ تربة فأقول تُسْقَى ... لأنّك نُصْبُ هَطْلِ الهاطلاتِ
عَلَيْكَ تَحِيَّةُ الرَّحْمنِ تَتْرَى ... برَحْمَاتٍ غَوَادٍ رَائحاتِ (٢)

صاحب القطعة :

هو أبو الحسن محمد بن عمر بن يعقوب بن القاسم الأنباري أحد الشعراء المجيدين ، ولد ببغداد سنة ٣٢٨ هـ ، وكان فريداً في عصره في الأدب واللغة ورواية الشعر والحديث ، وكان ديّناً ورعاً ، صوفياً واعظاً ، يقوم بالإملاء في مساجد بغداد ، وله مؤلفات أربت على العشرين .

وقد اشتهر بمرثيته تلك التي رثى بها أبا طاهر بن بقية وزير عضد الدولة لما قتل وصلب سنة ٣٦٧ هـ وهي من أعظم المراثي ولم يسمع بمثلها في مصلوب ، حتّى إن عضد الدولة الذي أمر بصلبه تمنى لو كان هو المصلوب وقيلت فيه .

تحليل القطعة :

نالت هذه القصيدة شهرة في الأدب العربي لا لشيء إلا أنها حسنت ما أجمع الناس على قبحه ، والاشمئزاز منه وهو الصلب ، فيقول :

---

(١) الغليل : العطش الشديد .
(٢) تترى : تتابع .

إنك دائماً تشغل المنزلة العالية ، لا في الحياة فقط ، ولكن بعد المات أيضـاً ، وتلك معجزة من المعجزات ،ثم يشبه مد ذراعي المصلوب على الخشبة والناس حوله بمد ذراعيه بالعطاء ، وان السائلين قد جاءوا ليأخذوا نوالك وانت في وسطهم كأنك خطيب تخطب فيهم ، وعندما ضاق بطن الارض عن ضم علاك جعلوك فوق جذع شجرة ، وعوضوك بدل الاكفان الرياح ثوباً . ولعلوك ورفعتك في نفوس الناس جعلوا عليك الحراس والجند ليحفظوك ، ومن حولك النيران المشتعلة ، وإن أعجب فعجب لهذا الجزع الذي عانقك عناق المكرمات ، وقد كنت منقذاً لنا من صروف الدهر ونوائبه ، وإن مرارة حزنك لـكائنة داخل فؤادي، ومشتعلة بين جوانحي ، وما يخففها سوى الدموع الجاريات ، ولو كنت قادراً على القيام بالواجب نحوك، لملأت هذه الأرض قصائد متغنياً بخصالك وشمائلك ، لكني أصبِّر نفسي خوفاً من ان أحسب من الجناة ، رحمك الله رحمة متتابعة لا تنقطع .

وتمتاز هذه القصيدة بعاطفة مشبوبة ، وخيال خصب ، استطاع أن يجلب فيه صوراً مبتكرة تبرهن عن حبه لهذا الشخص،وقد انتفع الشاعر في قصيدته ببعض المعاني التي اقتبسها من الشعراء الآخرين فقوله :

كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك ايام الصلات

أخذه من قول ابن المعتز :

وصَلُّوا عليه خاشعين كأنهم وفودٌ وقوفٌ للسلام عليـه

وقوله :

وكنت تجير من صرف الليالي فعاد مطالبـاً لك بالـترات

أخذه من قول ابن المعتز :

كنتم تجيرون مَنْ يُعَادِي منـه فعـاداكم لـذاكـا

ثالثا – رثاء مقدونية

لأحمد شوقي

يَا أختَ أنْدَلُس علَيكِ سَلامُ ... هَوَتِ الْخِلافَةُ عَنْكِ والإسْلام

نَزَلَ الهِلاَل عَنِ السّماءِ فَلَيْتَها ... طُوِيَتْ ، وَعَمّ العالمينَ ظلامُ

جُرْحان تَمْضِي الأمّتَان عليهما ... هذا يَسيلُ ، وذاك لا يَلْتَامُ (١)

بِكُما أُصِيبَ المُسْلِمُونَ وفيكما ... دُفِنَ البراعُ وغُيّبَ الصّمصام (٢)

لم تُطْوَ مأتمُها ، وهَذا مأتمٌ ... لبِسوا السوادَ علَيْكِ فيه وقَاموا (٣)

مَابَيْنَ مَصرَعِها ومصرعكِ انقَضَتْ ... فيما نُحِبّ وَنَكْرهُ الأيّامُ

خَلَتِ القرونُ كلَيلةٍ وتصرّمَتْ ... دُولُ الفتوحِ كأنّهَا أحْلاَمُ

والدهرُ لا يَألُو المالكَ مُنْذِراً ... فإذا غَفَلْنَ فمَا عليه مَلاَمُ

* * *

مقدونيا ، والمسلمون عشيرةٌ ... كيف الخُؤولةُ فيكِ والأعمامُ؟ (٤)

أتريْنَهم هَانُوا ، وكان بِعزّهِمْ ... وعُلوّهِمْ يتخايلُ الإسْلاَمُ؟ (٥)

---

(١) هما : العرب ايام نكبة الاندلس ، والترك ايام نكبة أدرنة .

(٢) البراع : القلم . الصمصام : السيف .

(٣) لم يطو مأتمها : اي مأتم الاندلس.

(٤) مقدونية : اسم الاقليم الذي تقع فيه أدرنة . العشيرة : قبيلة الرجل .

(٥) يتخايل : يتبختر .

إذْ أنْتِ نابُ الليثِ ، كلّ كتيبةٍ ... طَلَعت عَلَيكِ فَريسةٌ وطعام(١)
مَا زَالت الأيّامُ حتّى بُدّلَتْ ... وتغيّر السّاقي ، وحَالَ الجَام(٢)

* * *

صَبْراً أدِرْنةُ كلّ مُلْكٍ زَائلٌ ... يوماً ويبقى المالكُ العَلامُ
خفت الأذان فما عليك موحد ... تمشي إليه الأُسْد والآرامُ(٣)
وعَفَتْ قبُورُ الفَاتِحينَ وفُضّ عن ... حُفَرِالْخَلائِف جندلٌ وَرِجَام(٤)
في ذمة التاريخ خمسة اشهر ... طالت عليك فكل يوم عامُ
السّيفُ عارٍ ، والوَبَاءُ مُسَلّطٌ ... والسيلُ خَوْفٌ والثلوجُ ركامُ
والجوعُ فتّاكٌ ، وفيك صحابةٌ ... لو لم يَجُوعوا في الجهادِ لَصَاموا
ضَنّوا بِعِرْضِكِ أنْ يُباعَ وَيُشْترى ... عِرْضُ الحرائرِ لَيْسَ فيه سُوَام(٥)
ضَاقَ الحصارُ كأنما حلقاتُه .. ... فَلَكٌ، ومَقْذُوفَاتُها أجْرَامُ(٦)

---

(١) اذا انت ناب الليث : اي مثل الليث في انه مخوف لا يمكن الوصول اليه . الكتيبة : القطعة من الجيش .
(٢) الجام : إناء من فضة تسقى فيه الخمر .
(٣) الآرام : النساء . والرئم : هو الظبي .
(٤) فض جندل ورجام : اي كر متفرقاً ، والجندل الحجارة ، والرجام : ما يبنى عليه البئر وتعرض فوقه الخشبة للدلو .
(٥) السوام : ان تعرض السلعة ويذكر ثمنها .
(٦) الاجرام : هي الاجسام التي في الفلك .

وَرَمَى العِدَا، ورميْتِهِمْ بجَهَنّم ... مما يصبّ اللهُ لا الأقْوَامُ
وكذا يُبَاعُ المُلكُ حين يُرَامُ ... بعتِ العدوّ بكلِّ شبرٍ مُهْجَةً (١)
شم الحصونِ ومثلُهُنّ عِظامُ (٢) ... ما زال بينكِ في الحصارِ وبينَه
جُثَثاً فلا غبنٌ ولا استِذْمَامُ (٣) ... حتى حواكِ مقابراً وَحَوَيْتِه

صاحب القطعة :

(هو احمد شوقي وقد سبقت ترجمته في الفصل : الرابع عشر)

تحليل القطعة :

ان القصة يعاد فصولها ، لأن اوروبا الشرقية تجمع امرها امام الخلافة التركية تريد ان تخرجها من ديارها ، وتردها الى آسيا على اعقابها ، وتكون حروب ودماء ، وتغلب تركيا على امرها من حين الى حين ، وتضيع بعض بلدانها ومنها (ادرنة) وقد كانت من أمهات المدن العثمانية ، في (مقدونية) وبها مقابر كثيرين من سلاطين آل عثمان ، جاءت الانباء بغلبة البلغار عليها سنة ١٩١٢ بعد أن ابلت حاميتها في الدفاع عنها بلاءً حسناً ، وقد سماها (الاندلس الجديدة) اشارة الى ان الكارثة فيها تجديد ، فهي تجديد لكارثة المسلمين في الاندلس العربية ، فهما جرحان : جرح قديم لم يلتئم بعد ، وهو خروج الاندلس من ايديهم ، وجرح لا يزال ينزف بالدماء ، وهو خروج ادرنة من ايدي المسلمين.

ولقد اصيب المسلمون بهاتين الكارثتين حتى غدت ايام الفتوحات العربية العظيمة وكأنها احلام .

---

(١) المهجة : الروح او دم القلب .
(٢) شم الحصون : الحصون العالية .
(٣) الاستذمام : فعل ما يقتضي الذم .

ثم يسائل الشاعر مقدونية عن مصير أهلها الذين كان الاسلام يتيه بهم فخراً فيها حينما كانت ممتنعة على العدو كامتناع ناب الليث على من يريده ، وحينما كانت تفنى دونها جيوش الأعداء .

ثم يدعو أدرنة إلى الصبر ، وان ما حل بها ليس بغريب ، فذلك مصير الدنيا جميعها ، ولن يبقى في الكون إلا الله ملك الملوك .

ثم أخذ يعدد مآثر الإسلام التي كانت بها والتي أمست وقد انتهكت حرماتها ، وأبيدت وغدت أطلالاً دارسة ، وأخيراً يبين موقفها المجيد في الدفاع ، فقد بقيت حصونها ثابتة تقف حائلاً بينها وبين الاعداء ، كما كانت أكوام عظام القتلى تقف حائلاً بينها وبينهم ، فلم يأخذوها إلا بعد أن صارت مقابر لرجالهم ، وصاروا جثثاً هامدة .

وبهذا لم يقع بينك وبينهم ما فيه غبن ، ولا ما يقتضي الذم . هذا وقد أخذ شوقي في قصيدته تلك بخطه من اسلوب الخطاب سؤالاً وتقريراً، وندبة وتحسراً ، والقصيدة تبين تطويع الشعر العربي الحديث للتاريخ في مختلف صوره،وقد كان لشوقي من بين الشعراء المحدثين النصيب الأكبر من هذا التاريخ . واستعان شوقي في أداء عبارته بذخيرة من ألوان البيان العربي أبرزت معانيه إبرازاً جميلاً .

موضوعات للبحث

١ — بين يديك ثلاث قصائد في الرثاء .

وضح العاطفة البارزة في كل منها داعماً رأيك بالشاهد .

٢ — تتبع فن الرثاء في الأعصر الأندلسية ، مبيناً أهم خصائصه ، ثم وضح ما آل اليه هذا الفن في نهاية زوال ملك العرب من الأندلس.

٣ — تعدّ المرثية الثانية من أعظم المراثي ، ولم يسمع بمثلها في

مصلوب ، اختر بعض الأبيات وانقدها ، موضحاً بعض المعاني المبتكرة مستنبطاً منها اتجاه الرثاء في ذلك العصر .

٤ — قالت الخنساء :

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكلّ غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزّي النفس عنه بالتأسّي
فلا والله لا أنساك حتّى أفارق مهجتي ويُشق رَمْسي

(ا) ما اللون الغالب على هذا الرثاء ؟ .

(ب) اذكر رأيك في تصوير البيت الاول لشعور الخنساء .

(ج) يقولون : النساء أشجى الناس على هالك — اشرح هذه العبارة .

للمطالعة

١ — الرثاء : للدكتور شوقي ضيف .
٢ — الصديق في النقد والبلاغة : للدكتور عبد الحميد طلب .
٣ — يتيمة الدهر للثعالبي .
٤ — الأدب الأندلسي : لأحمد بلافريج .

الفصل السابع عشر

الوَصْفُ

الوصف من اوسع الابواب الادبية نطاقاً ، واكثرها شمولاً حتى لنستطيع القول : بأن كل كتابة وصف ، والشاعر العربي فنان مبدع سار في ركب العباقرة الفنانين فرسم ما رأى وصوّر ما شاهد، ووصف ما أحس ، فترك في المتحف الادبي صفحات خالدة على مر العصور، تضارع متاحف الرسامين والنحاتين والموسيقيين والمصورين في ابداع الخطوط وقوة التقليد والمحاكاة ، ونقل الصور والحركة،ورسم الحديث، واللون والظل ، سواء اكان في رسم الطبيعة بحيها وجامدها ، ام في تصوير الإنسان بشكله وعواطفه، أم في وصف الاخلاق والطباع والعادات ام في تمثيل العمران بصروحه وحدائقه وآثاره . ومن هذا نرى ان انواع الوصف كثيرة ، لكنها مع سعة مجالها تعود الى نوعين: الوصف الحسي، وهو الذي يحتفل بما تقع عليه الحواس من لون وشكل وحركة،والوصف المعنوي وهو الذي يقصد فيه الى تصوير حركات النفس ، وما يختلج فيها من حركات وعواطف ، وقد يتمازج النوعان .

وليس الوصف غرضاً غنائياً مستقلاً كل الاستقلال ، بل هو في كل فن من فنون الادب ، فالشاعر الحكمي يصف حين يتحدث عن الحياة والموت ، والشاعر الملحمي يصف حين يسرد أو يسوق المشاهد، والشاعر التمثيلي يصف حين يحلل نفسيات أبطاله وتصرفاتهم ، والكاتب حين يكتب رسالة أو قصة او مقالة...فللوصف في كل فن وغرض مجال.

الوصف في الجاهلية :

وقد اشتهر بالوصف منذ العصر الجاهلي حتّى اليوم شعراء من أبرزهم: أمرؤ القيس والنابغة الذبياني ، ومن خصائص الوصف البدوي: الصدق، وعدم التصنع ، والدقة ، فيتناول الشاعر الموصوف ، فلا يترك منـــه جزءاً إلا ويفصل فيه الشرح .

الوصف في العصر العباسي :

وقد اشتهر أبو تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي ، وأبرز ما يسم الوصف العباسي لجوؤه إلى الصناعة والزخرف ، ولئن وفق كثـــير من أربابه في تشابيههم وتشخيصاتهم ، فرسموا اللوحات البارعة ، فإن بعضهم حاد عن طريق الطبع والصدق إلى الفن الزخرفي الخالص .

الوصف في الأندلس والمغرب :

ونمر بعدد كبير من حملة لواء الوصف في الاندلس والمغرب، وفيهم ابن زيدون وابن حبوس والشريف السبتي لنصل إلى شاعر الطبيعة الكبير ابن خفاجة ، ولم تكن الطبيعة في شعره مجرد ظل وغصن وماء وزهر، بل كانت عروساً تنبض حياة وأسهمت الموشحات الأندلسيـة في تنشيط الحركة الوصفية ، اذ كان احد أغراضها الرئيسية .

الوصف في العصر الحديث :

تكاملت في الوصف الحديث شخصيته،فإذا هو الى وصف الرومانتيكيين أقرب منه إلى وصف القدماء والمولدين من العرب ، فأصبحت الطبيعة في أعينهم بحراً يمـوج ، وحياة تتلاطم ، وحركة تترجرج ، وقلبـــاً يتكىء عليه قلب الشاعر . ولشوقي ومطران وحافظ وإيليا أبو ماضي والشابـي وسواهم آيات في ذلك .

نماذج تطبيقيّة

اولا – فتح عموريه

لأبي تمام

السّيْف أصْدَقُ إنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدّهِ الْحَدّ بَيْنَ الْجِدّ وَاللّعبِ(١)
بيضُ الصّفَائِحِ ، لا سُودُ الصّحَائف في
مُتُونِهِنّ جَلاءُ الشّكِ والرِّيَبِ (٢)
وَالْعِلْمُ في شُهُبِ الأرْماحِ لامِعَةً
بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ ، لا فِي السّبْعةِ الشّهب(٣)
أينَ الرِّوَايةُ ، بل أينَ النّجُومُ وَمَا
صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ(٤)

---

(١) الإنباء : الإخبار • الكتب : يريد بها كتب المنجمين • في حده الحد•الحد الاول للسيف ، والحد الثاني الذي يفصل بين الشيئين •

(٢) الصفائح : جمع صفيحة ، وهي السيف العريض • متونهن : جوانبهن • الريب : الشكوك•

(٣) شهب الارماح : أسنتها اللامعة • الخميس : الجيش • السبعة الشهب : الكواكب السيارة السبعة ، وهى القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل•

(٤) صاغوه : اختلقوه • الزخرف : المراد الكلام المزور •

تَخَرّصاً وَأحَادِيثاً مُلَفّقةً لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إذاعُدّتْ وَلاَغَرَبِ (١)
عجائباً : زَعَموا الأيّامَ مُجْفِلَةً عَنهُنّ في صَفَرِ الأصْفارِ أوْرَجبِ (٢)
وَخَوّفُوا الناسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمةٍ
إذَا بَدَا الكَوْكَبُ الغَربيّ ذُو الذّنَبِ (٣)
يقْضُونَ بِالأمرِ عَنْها وَهي غَافِلةٌ مَادَارَ في فَلَكٍ مِنْها وَفي قُطُبِ (٤)
فَتْحُ الفُتوحِ تَعَالى أنْ يُحيطَ بِهِ نَظْمٌ مِنَ الشّعْرِ أونَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ (٥)
فَتْحٌ تفتّحُ أبْوابُ السّمَاءِ لَهُ وتَبْرُزُ الأرضُ في أثْوَابِها القشُبِ (٦)
يَا يَومَ وَقْعَةِ عَمّورية انْصَرفَتْ عَنْكَ المُنَى حُفّلاً مَعسُولةَ الحَلَبِ (٧)
أبقَيْتَ جَدَّ بَني الإسْلامِ في صَعَدٍ والمشركين ودار الشّرْك في صَبَبِ (٨)
لَقَدْ تركْتَ أميرَ المؤمِنِينَ بِها للنّار يوماً ذَليلَ الصخْرِ والخَشَبِ (٩)
غَادَرْتَ فيها بَهِيمَ اللّيلِ وَهوَ ضُحىً يَشُلّهُ وَسْطَهاصُبْحٌ مِنَ اللّهَبِ (١٠)

---

(١) التخرص : الكذب . النبع : شجر صلب تصنع منه الرماح . وكنى بـه عن قوة القول . الغرب : شجر ليست له قوة ، وكنّى به عن ضعف القول .
(٢) مجفلة عنهن : اي منكشفة .
(٣) دهياء : كارثة عظيمة .
(٤) الفلك : مدار النجوم . القطب : كل ما ثبت فدار عليه شيء .
(٥) تعالى : عظم وارتفاع .
(٦) القشب : جمع قشيب وهو الجديد .
(٧) حفل جمع حافل ، اي مليئة . الحلب : اللبن المحلوب .
(٨) الجد : الحظ . الصعد : العلو . الصبب : الانحدار .
(٩) اي ان تلك المدينة احترقت فذل صخرها وخشبها للنار .
(١٠) بهيم الليل : الليل المظلم . يشله : يطرده .

حتّى كأن جلابيبَ الدّجى رَغبَتْ
عنْ لَوْنها أوْ كأن الشمسَ لم تَغبِ(١)

ضوْءٌ مِنَ النّارِ والظّلْماءُ عاكفةٌ وظلمةٌ مِنْ دُخَانٍ في ضحىً شَحِبِ(٢)

فالشمسُ طالعةٌ مِنْ ذَا وقد أفلَتْ والشمس واجبةٌ منْ ذا ولم تَجِبِ(٣)

لمْ تَطْلُعِ الشّمس منهم يوم ذاكَ على بَانٍ بأهلٍ ولَمْ تَغْرُبْ علَى عزَبِ(٤)

ماربْعُ ميّة مَعْمُوراً يُطِيفُ بـه غَيلانُ أبهى رُبىً مِنْ رَبْعها الخَرِبِ(٥)

ولا الخدودُ وإنْ أدمِينَ مِنْ خَجَلٍ أشهَى إلى ناظرٍ من خدّها التّرِبِ(٦)

سَمَاجَةٌ غَنيَتْ مِنّا العُيون بِهَا عن كل حسْنٍ بدا أو مَظْهرٍ عجب(٧)

صاحب القطعة :

أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، ولد في جاسم قرية بالقرب من دمشق في بلاد الشام سنة ١٩٢ هـ ثم رحل الى مصر صبياً ، فتعلم اللغة والأدب على الأئمة في جامع عمرو بن العاص ، وعالج الشعر حتى برع فيه ، ثم انتقل الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، واتصل بالمعتصم بن الرشيد وغيره ومدحهم فأبدع وأوفى على الغاية على كل شعراء عصره ، ولعظم مكانته عند رجال الدولة رغبوا به عن التكسب بالشعر وولوه

(١) الدجى : الظلام . رغبت عنه : كرهته وخلعته .
(٢) شحب لونه : تغير من جوع او مرض او نحوها .
(٣) أفل : غاب . واجبة : غائبة .
(٤) بنى بأهله : دخل عليهم . العزب : من لا زوج له .
(٥) غيلان : هو الشاعر ذو الرمة ، وتحدث في شعره كثيراً عن مية وربعها . ربى : جمع ربوة ، وهي ما ارتفع من الارض .
(٦) أدمين : توردن . والترب : كثير التراب .
(٧) السماجة : القبح . غنى به غيره : اكتفى .

بريد الموصل ، ويعتبر رأس الطبقة الثالثة من الشعراء المحدثين (يعني طبقتي بشار ، وأبي نواس) بطريقته التي آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان اول من اكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالادلة العقلية ، والإكثار من استخدام الفنون البيانية كالاستعارة والجناس وما اليهما ، فأصبح شعره من ذلك النوع الذي يكد القاريء والسامع في استخراج المخبوء من معانيه ، ولأبي تمام بضعة مؤلفات منها : (ديوان شعره) ، و (ديوان الحماسة) وهو مختارات من الشعر العربي يدل على فضل ابي تمام وسعة اطلاعه ، وقوة عقله ، وحسن اختياره ، وعلى منوالها نسج تلميذه البحتري في القديم ، والبارودي في الحديث .

مناسبة القطعة :

قيلت هذه القصيدة في مدح أمير المؤمنين المعتصم بالله ثامن الخلفاء العباسيين بمناسبة فتح عمورية ، وهي مدينة حصينة من بلاد آسيا الصغرى قريبة من أنقرة ، وكانت يومئذ تحت حكم الروم الذين أغاروا على بعض الثغور الاسلامية فضى المعتصم لحربهم ، وحاصر عمورية واقتحمها المسلمون ، وقد حكي ان المنجمين قد حذروا المعتصم للسير اليها ، وقالوا إنا نجد في الكتب أنها لا تفتح إلا وقت نضج العنب والتين فلم يأبه المعتصم لقولهم ، وسار اليها بجيشه ، وبخاصة عندما علم أن الروم قد سبوا امرأة مسلمة فيها ، فنادت « وامعتصماه » فبلغ ذلك المعتصم ، فأمر بغزو عمورية إجابة لذلك الصوت ، وانتقاماً للشرف العربي .

تحليل القطعة :

خالف ابو تمام في مطالع القصيدة مألوف عادته ، فبدأها بتمجيد السيوف وتسفيه المنجمين ، وترك النسب جانباً ، ولعل نشوة الفرح بهذا الانتصار الرائع ملكت عليه لبه وأنسته نسيبه ، وهذا تجديد لابي تمام ، وان كان لم يلتزمه في قصائد اخرى .

ثم انثنى الى تمجيد المعتصم ، فقد بدأه معلناً عجز الشعر والنثر عن أن يحيطا بوصفه او وصف آثاره في نفوس المسلمين بالمشرق والمغرب ،

فهو أعظم الفتوح قدراً ، وهو فتح الفتوح تنفتح له ابواب السماء إجلالا ، لتصغي الى وصفه وقدره ، وتلبس له الارض ثيابها الجديدة المزخرفة . ولأنه حقق آمالا حافلة لذيذة جعلت حظ المسلمين رفيعاً وهوت بحظ المشركين وبلادهم .

واخيراً وصف الشاعر المعركة التي دارت في عمورية فقال : أصليت أيها الأمير تلك المدينة ناراً حامية ذل لها صخرها وخشبها ، وأنارت ليلها البهيم حتى صار كالضحى ، فلهب نيرانها كالصبح يطرد ظلام ليلها ، وكأن جلباب الليل الاسود رغب عن سواده ، او كأن الشمس لم تغرب عن المدينة ، فالنار تبعث ضياءها وسط الظلماء العاكفة على المدينة ، والدخان المنبعث من الأرجاء يكون ظلمة في وسط الضياء فيصبح كأنه ضحى شحب لونه ، فكأن الشمس طالعة لضوء النيران ، وكأنها غائبة لهذه الظلمة المنبعثة من الدخان .

ولقد بدأ هذا الربع الخالي (يريد عمورية بعد الحريق) جميلا في أعيننا بل صار أبهى منظراً من ربع مية معموراً بها في نظر شاعرها ذي الرمة ، واصبح خد عمورية المعفر بالتراب أشهى الى ناظرنا من الخدود المضرجة بدماء الخجل ، وصارت سماجتها ابهى في أعيننا من كل شيء حسن او منظر عجيب .

والقصيدة تعرض ثلاث ظواهر مهمة في حياة الادب العربي في العصر العباسي الاولى في فنه : وهي ذلك التعميق في التصوير ، والجري مع المعاني إلى ابعد آفاقها وإبرازها في صورة من النظم يحتاج الذهن معها الى بذل مجهود قبل ان يدركها ؛ ويحيط بمراميها ، وهذا النظم يعتمد على ما أسماه النقاد المتقدمون : فن البديع .

والثانية والثالثة في موضوعه : وهي تصوير ذلك الكفاح الذي اخذ يشتد بين المسلمين والروم ، وتصوير هذا المرض الاجتماعي الذي كان يسيطر على عقول أهل بغداد وهو الأخذ بقول المنجمين واستشاراتهم في شتى أمورهم .

ثانيا – الشمعة

للأرجاني

— ١ —

نَمّتْ بِأسْرارِ لَيْلٍ كَادَ يُخْفيهـا   وَأطْلَعَتْ قَلْبَها للنّاسِ مِنْ فِيها (١)
قَلْبٌ لَهَا لَمْ يَرُعْنَا وَهْوَ مُكْتَمِنٌ   إلاّ تَرَاقِيه نَاراً مِنْ تَرَاقِيهَا (٢)
غَريقَةٌ فِي دُمُوعٍ وَهْيَ تُحْرِقُها   أنْفَاسُها بِدَوَامٍ مِنْ تَلَظِّيها (٣)
تَنَفّسَتْ نَفَسَ الْمَهْجُورَةِ ادّكَرَتْ
عَهْدَ الخَليطِ ، فَبَاتَ الوَجْدُ يُبْكِيها (٤)

— ٢ —

لَهَا غَرَائِب تبدُو مِنْ مَحَاسِنِها   إذَا تَفَكَّرْتَ يَوْماً فِي مَعَانِيهَـا
فَالْوَجْنَةُ الوَرْدُ إلاّ في تَنَاوُلِهَا   والقَامَةُ الغُصْنُ إلاّ فِي تَثَنّيهَـا
قَدْ أثْمَرَتْ وَرْدَةً حَمْراء طَالِعَةً   تَجْني على الكَفّ إنْ أهْوَيْتَ تجنيها
وَرْدٌ تُشَاكُ الأيْدِي إذَا قُطِفَتْ   وَمَا عَلَى غصْنِها شَوْكٌ يُوَقّيهـا

---

(١) نم بالسر : باح به .
(٢) التراقي الاولى بمعنى : التصاعد . والتراقي الثانية : جمع ترقوة وهي عظام اعلى الصدر ويروي الشطر الثاني ايضاً « إلا ترى فيه ناراً من تراقيها » .
(٣) التلظي : اشتداد اللهب .
(٤) الخليط : الجليس والحبيب . الوجد : شدة الحب .

صُفْرٌ غَلاَئِلُهَا ، حُمْرٌ عَمَائمها سُودٌ ذَوَائِبُهَا ، بيضٌ ليَالِيهَا (١)
كصَعْدَة فِي حَشَى الظَّلْمَاءِطَاعِنة تسْقي أسَافِلَها رِيّاً أعَالِيهَا (٢)

— ٣ —

صَفْرَاء هِنديّةٌ فِي اللونِ إن نُعِتَتْ والقَدِّ واللّين إنْ أتْمَمْتَ تَشْبِيها
فالهِنْدُ تَقْتُلُ بِالنِّيرَانِ أنْفُسَها وَعِنْدَها أنّهَا بِالْقَتْلِ تُحْيِيهَا
مَا إنْ تزَالُ تَبِيتُ اللّيلَ ظَامِئَةً وَمَا بِها غُلّةٌ فِي الصَّدْرِ تُظْمِيها (٣)
تُحيِيْ اللّيالي نُوراً وهْيَ تَقْتُلُهَا بِئْسَ الجَزَاءُ ، لعَمْرُ اللهِ تجْزِيها
مَفْتُوحَةَ العَينِ تُفْنِي لَيْلهاسهَراً نَعَمْ ، وإفْنَاؤها إيّاهُ يُفْنِيهَا
ورُبّما نَالَ مِنْ أطْرَافِهَا مَرَضٌ لمْ يُشْفَ منْه بغيْر القطْع مُشْفِيهَا

صاحب القطعة :

هو أحمد بن محمد بن الحسين الأرّجاني ، نسبة الى مدينة أرجان ببلاد الفرس ؛ هو فارسي الاصل تضلع في علوم العربية وآدابها ، وخلف آثاراً عظيمة ، واشتغل بالتدريس في صدر حياته بالمدرسة النظامية بأصبهان ، ثم تولى القضاء في بلاد خوزستان ، وجال في بعض البلاد العربية على عهد الخليفة المستظهر ومدحه ، وتوفي بتستر سنة ١١١٨ ه ، وله ديوان شعر مطبوع ، ولكن اكثر شعره اتت عليه يد الضياع ،

(١) الغلالة : ما يلي الجسد من اللباس . الذؤابة : ومعناها ضفائر الشعر المرسلة .
(٢) الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك — اى مستوية — لا تحتاج الى تثقيف .
(٣) الغلة : شدة العطش .

وهو مطبوع ، ووصاف ماهر يمتاز شعره بجمال الخيال وحسن الاسلوب ، وهذه القصيدة التي بين ايدينا قالها يمدح فيها عماد الدين طاهر قاضي قضاة فارس ، وقد افتتحها بوصف الشمعة مخالفاً ما درج عليه الشعراء من البدء بالنسيب او وصف الرحلة ، ثم تخلص الشاعر الى مدح القاضي .

تحليل القطعة :

كان الشاعر فريداً فيمن وصفوا الشمعة الى جانب لطف عبارته ، وعذوبة خياله ودقته ، فهو يقول إن الشمعة أنارت بضوئها ما اخفاه الليل بظلامه ، وإن ضوءها ليشبه امرأة هجرها حبيبها فتذكرت عهده فتنهدت وتنفست عن ألم يبكيها .

وان للشمعة محاسن عديدة فأنت ترى فيها الوجنة الحمراء والقـامة الهيفاء ، والوردة الفيحـاء ، والرمح المستوي الغـائص نصله في حشى الظلماء وكأن هذا الشمع الذائب هو دم الظلماء المطعونة ، ثم عاد ليشبهها بحسناء هندية ذات قدّ جميل ، ولون أصفر ، وللهنود عـادة وهي إحراق اجسادهم بعد موتهم يظنون بذلك أنهم ينقذون أنفسهم ويمنحونها الحياة وكذلك الشمعة فهي تضيء وتشرق باحتراقها ، وهي وان كانت تنير الا ان ذلك يفنيها ويذهب بها ، وهذا جزاء سنمار ، وهي تفني الليل وتقطعه ولكن افناء حالها يعود عليها بالضرر والهلاك .

ثالثا – معركة الارك

لأبي العباس الجراوي

هُوَ الفتحُ أعيا وَصْفُه النّظم والنّثرا وَعَمّتْ جميع المسلمين به البُشرى
وَأنجْدَ في الدّنيا وَغارَ حَدِيثُه فراقتْ بهِ حُسْناً، وطَابَتْ به نشرا (١)
تميّزَ بالأحْجَالِ والغُرَرِ الّتي أقلّ سَناها يبْهر الشّمس والبَدرا (٢)
وسَهّلَتِ المَرْقى إليه صَوارِمٌ كَثيرٌ بها القتْلى قليل بها الأسْرَى (٣)
وأثمره الصبر الذي لَمْ تزلْ بِه حماةُ الهدَى والدّين تستنْزل النصرا

* * *

لقد أوْرد الإذْفِنْشُ شيعَته الردى
وَسَاقهُم جهْلاً إلى البَطْشةِ الكُبرى (٤)
حَكَى فِعْلَ إبْليس بأصحَابه الأُلى تَبرأ مِنْهُمْ حِينَ أوْرَدَهُمْ بَدْرَا
أطارته شدات تولّى أمامها شَريداً وأنستَه التعَاظم والكبرا
وَأسْلَم ما أثلته جُدُوده نجوم قلاع تزحم الأنجم الزهرا (٥)

---

(١) أنجد : ارتفع .
(٢) الاحجال : الخلاخيل . الغرة : بياض في جبهة الفرس ، وكل ما بدا لك من ضوء او صبح .
(٣) الصوارم : السيوف .
(٤) الاذفنش : لقب كان يلقب به ملوك الفرنجة والمراد به هنا الفونس التاسع .
(٥) أثلته : التأثل ، الشرف والمجد والاصل .

مِنَ النّيرَاتِ الزّهرِ ضَوْءاً ورفعـةً   وإن لمْ يسموها سِماكا ولا نَسْرَا
تَعَوّذَ بالركْضِ الحثيثِ مِنَ الرّدى   فلَوْ سابَقَ الأرْوَاحَ غادَرَهاحَسْرا (١)
وَقَدْ أورَدَتْه الموتَ طَعْنَةُ ثائرٍ   وإنْ لمْ يُفَارِقْ مِن شَقَاوتِه العُمرا
ومَا صَبْر مَنْ أفْنَى الزّمان حماته   وجرّعه مِنْ فقد أنصاره صَبْرا

* * *

حكَتْ أختَ صَخرٍ فِي الرزايا نِساؤهم
كَمَا قَدْحكى أبْطَالُهم فِيالرّدَى صخراً (٢)
ألوفٌ غَدَتْ مَأهُولة بهم الفَلا   وأمْسَتْ خلاءً دُورُهُمْ منهم قَفْرا
وَدَارَتْ رَحى الهَيْجَاعليهم فَأصْبَحوا   هَشيماً طحيناً فيمهبِّ الصّبا قدرا (٣)
يَطير بأشْلاَءٍ لَهُم كلّ قَشْعَم   فَمَا شِئْتَمِنْ نَسْرٍغَدَابَطنهقَفرا (٤)

* * *

فكيفَ رأى المُغْترّ عُقْبَى اغْتِراره   وَكَيّفَ رَأى الغدّار في غيه الغَدْرا
تَضَحْضَحَ فِي وقتٍ مِن الدّهر بحـره
وَقَدْ ضَاقَتِ الآفاق مِنْ فَيْضه دهرا (٥)

---

(١) حسرا : تعب .
(٢) اخت صخر : هي الخنساء .
(٣) الصبا : ريح مهبها جهة الشرق .
(٤) قشعم : الضخم المسن من النسور .
(٥) تضحضح السراب : ترقرق ، او هو الماء اليسير .

صاحب القطعة :

(هو أبو العباس الجراوي وقد سبقت ترجمته في الفصل الرابع عشر)

مناسبة القطعة :

هذه أبيات من قصيدة جاوزت الثلاثين بيتاً قالها الشاعر في معركة (الأرك) الشهيرة ، وذلك أن ابا يوسف يعقوب المنصور الموحـــدي كانت بينه وبين الإذفونش ملك قشتالة (الفونس التاسع) مهادنة لمدة خمس سنوات ، وقبل أن ينتهي هذا الأمد أخذ الاسبان يعيثون فساداً في الاراضي التابعة للموحدين . بل تقدمت جيوشهم الى ابواب الجزيرة الخضراء ، فلما بلغ ذلك أبا يوسف رأى فيه غدراً للعهود وتحرشاً لا يستطاع الصبر عليه ، فنادى بالنفير العام ، وجهز جيشاً عظيماً عبر به البحر ، واتصل ذلك بالإذفونش فجمع هو من جهته جموعه ، ونادى في كافة انحاء النصرانية بالقدوم عليه لمقابلة تلك الجحافل الجرارة التي جاء بها المنصور ، والتقى الجمعان قرب حصن الارك ، بين قرطبة وقلعة رباح ، من سنة ٥٩١ هـ (١٠ يونيه ١١٩٥ م) والتحم الجيش العربي المغربي في معركة حاسمة في تاريخ الاسلام كان النصر في نهايتها لجانب أبي يوسف يعقوب ، ومن ثم لقب بالمنصور .

تحليل القطعة :

قال الجراوي : ان هذا الفتح العظيم قد بهر الأدباء حتى انهم قصروا عن ان يوفوه حقه ، وقد سهل جني النصر هذه السيوف البواتر ، وصبر الابطال على الشدائد .

وإن الفونس التاسع قد غرر بأتباعـــه وجنوده ، فأوردهم موارد التهلكة ، وهو بهذا الصنيع يحكي فعل ابليس عندما خدع كفار قريش في غزوة بدر الكبرى إذ زين لهم أعمالهم « وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال إني بريء منكم » وهكذا عندما أحس الفونس بالهزيمة ولى الأدبار وقال لأتباعه اني بريء منكم ، ولكن احد الثائرين عاجله بطعنة ، ولكنها لم تقض عليه .

ثم وصف الحرب بأنها تطحن الناس ، وتذرهم أشلاء متناثرة تلتقطها النسور والقشاعم ، وتلك صورة قديمة مستمدة من حياة العرب ، وقد سبقه اليها زهير بن ابي سلمى في قوله :

فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم

وقد سبك الجراوي هذه المعاني في اسلوب جميل الرونق ، جزل الالفاظ ، يتلاءم مع وصف المعركة ، حتى انه ليذكرنا بهذا النفس العالي الذي نجده في بعض أشعار النابغة والمتنبي ؛ وفي القصيدة تتجلى ثقافة الشاعر وسعة اطلاعه ، فقد حكى لنا رثاء الخنساء لاخيها صخر ، وحكى لنا اثر الحرب في الناس : كما صوره زهير من قبله ، هذا الى جانب ما عمرت به الابيات من الاستعارة والتشبيه ، والحلى البديعة .

موضوعات للبحث

١ — سجل ابو تمام في قصيدته صورة من صور المعارك الحربية التي كانت كثيراً ما تحدث على الحدود الشمالية بين العرب والروم ، فدل بذلك على ان الشعر الصادق مرآة للحياة في عصره — ناقش .

٢ — لقد كان أبو تمام مصيباً في سخريته من التنجيم ، فالتنجيم وما شاكله من الخبل الذي لا يليق بعاقل ان يميل اليه ، واذا قال الشاعر الجاهلي :
لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع
فما اجدرنا في عصر الحضارة ألا نعتقد في هذه الخرافات — ناقش.

٣ — علام يقوم التصوير في وصف الشمعة للأرجاني ، ادعم كلامك بالشاهد وما رأيك باسلوب الارجاني في وصفه ، وما الفكرة الاساسية التي عرض لها الشاعر في المقطع الثالث ؟

٤ — بالغ ابو تمام في اتخاذ الصناعة على اختلاف ألوانها ، وبالغ الارجاني في التشخيص . اختر نماذج من القطعتين ، حللها وبين قيمتها ووضح ما فيها من تشخيص وصناعة .

المطالعة

١ — الوصــف : للدكتور سامي الدهان .

٣ — ديوان الأرجاني

٣ — ديوان ابي تمام

٤ — شعر الطبيعة في الادب العربي : للدكتور سيد نوفل .

٥ — وصف الطبيعة : لعمر الدسوقي .

٦ — من حديث الشعر والنثر : لطه حسين .

٧ — الفن ومذاهبه : لشوقي ضيف .

الفصل الثامن عشر

الزهـــد

هو ان يتخلى الانسان عن شواغل الدنيا المـــادية ، ويعكف على الروح يتعهدها محكماً قيود الجسد سواء بالصلاة او بالصوم او بالتأمل الفكري او بالرياضة الروحية او بها جميعاً .

وقد لا يقنع الزاهد من الصلاح بخلاص روحه فحسب ، فيحاول أن يدل الناس على طريقة علهم يهتدون وتكون دعوته الزهدية مواعظ ، أو قصائد . وقد حفلت آداب الامم – ومنها الادب العربي – بفن الزهد.

وإذا بحثنا عن منشأ فن الزهد وجدنا ان الاسلام يحض في كثير من نصوصه على الإقبال على الله ، وعدم الاهتمام بزخارف الدنيا ، ووجدنا أن المجتمع الاسلامي في القرن الثاني الهجري قد جدّت عليه افانين من اللهو والغناء والغزل والشراب ، وكثُر الإقبال على اللذات ، فاقتضت سنة الاجتماع ان يكون هناك رد فعل لهذه الاحوال . وأن يقوم بجانب أدب اللهو أدب آخر يدعو الى الجد والنسك ويذكر بالموت ويكثر من النصيحة ، اضف الى هذا ما نقل إلى الفكر الاسلامي من أدب الزهد والنسك والحكمة عند الهنود والفرس واليونان .

نماذج تطبيقيّة

أبو العتاهية

١ ــ الدنيا وغرورها :

قَطَّعْتُ مِنْكِ حَبَائِلَ الآمَالِ وَحَطَطتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطِيِّ رِحَالي(١)
وَيَئِسْتُ أَنْ أَبْقَى لِشَيْءٍ نِلْتُ مِمّا فِيكِ يَادُنْيَا وَأَنْ يَبْقَى لي
فَوَجَدتُ بَرْدَ الْيَأسِ بَيْنَ جَوانِحِي وَأَرَحْتُ مِنْ حَلٍّ وَمِنْ تَرْحَالِ (٢)
مَالِي أَرَاكَ لحُرٍّ وَجْهِكَ مُخْلِقاً أَخْلَقت يَادُنيَا وُجوهَ رِجالِ (٣)
قِستُ السؤالَ فَكَانَ أَعْظمَ قِيمةً مِنْ كلّ عَارِفَةٍ جَرَتْ بِسُؤال (٤)
كنْ بِالسّؤالِ أشَدّ عَقْدَ ضَنَانَة مِمّنْ يَضِنّ عَلَيْكَ بِالأمْوَالِ (٥)
وَصن الْمَحَامِدَ مَا اسْتَطعتَ فانها في الْوَزْنِ ترْجَحُ بَدْلَ كُلّ نوَال (٦)
وَإذَا ابتُلِيت بِبَذلِ وَجْهِكَ سَائلاً فابْذُلْهُ لِلْمُتَكَرّمِ المِفْضَالِ (٧)

---

(١) المطي : جمع مطية وهي الدابة التي تركب .
(٢) برد اليأس : راحته ولذته . جوانحي : هي عظام الصدر .
(٣) مخلقاً : اخلق الثوب ابلاه .
(٤) عارفة : معروف .
(٥) الضنانة : البخل .
(٦) النوال : العطاء .
(٧) ابتغيت : أصبت او اختبرت .

وَإذَا خَشِيتَ تَعَذّراً فِي بَلْـدَةٍ فاشْدُدْ يَدَيْكَ بِعَاجِلِ التَرْحَال (١)
وَاصْبِرْ عَلَى غِيَرِ الزّمَانِ فإنّمَا فَرَجُ الشدائِدِ مِثْلُ حَلّ عِقَالِ (٢)

٢ — الدار الفانية :

سَكَنٌ يَبْقَى لَهُ سَكَنُ مَا بِهَذَا يؤذنُ الزّمَنُ (٣)
نَحْنُ فِي دَارٍ يُخَبّرُنَا عَنْ بِلاَهَا نَاطِقٌ لسِنُ (٤)
دَارُ سُوءٍ لَمْ يَدُمْ فَرَحٌ لامْرِىءٍ فِيْهَا ولاَ حَزَنُ
مَا نَرَى مِنْ أهْلِهَا أحداً لَمْ تَغلْ فِيهَا بِهِ الْفِتَنُ (٥)
عَجَباً مِنْ مَعْشَرٍ سَلَفُوا أيّ غَبْنٍ بَيّنٍ غُبِنُوا ... (٦)
وَفَرُوا الدّنْيَا لِغَيْرِهِمْ وَابْتَنَوْا فِيهَا وَمَا سَكَنُوا
تَرَكُوهَا بَعْدَ مَا اشتَبَكَتْ بَيْنَهُمْ فِي حُبّهَا الإحَنُ (٧)
كُلّ حَيٍّ عِنْدَ مَيْتَتِهِ حَظّهُ مِنْ مَالِهِ الْكفَنُ
إنّ مَالَ الْمَرْءِ لَيْسَ لَهُ مِنْهُ إلاّ ذِكْرُهُ الْحَسَنُ
فِي سَبِيلِ الله أنْفُسُنَا كلّنَا بِالْموتِ مُرْتَهَنُ

---

(١) تعذرا : ضيقا .
(٢) غير الزمان : شدائده . العقال : القيد الذى تربط به رجلا الجمل لئلا يقوم .
(٣) السكن : الاليف والصاحب . يؤذن : يسمح .
(٤) دار : يعني بها الدنيا . عن بلاها : فنائها .
(٥) لم تغل : لم تهلك وتسطو عليه .
(٦) الغبن : الظلم .
(٧) الإحن : الاحقاد .

٣ — القبور وأهلها(١) :

أخويّ مُرا بِالْقُبُور وَسَلّمَا قَبْلَ الْمَسِيرِ
ثمّ ادْعُوا مَنْ عَادَهَا مِن مَاجِدٍ قَرمٍ فَخُورِ(٢)
وَمُسَوّدٍ رَحْبِ الفِنَاءِ أغَرّ كَالْقمَرِ الْمُنِيرِ (٣)
يَا مَنْ تضمّنه الْمَقَا بِرُ مِنْ كبير أوْ صَغير
هلْ فيكُمُ أوَ مِنْكُم مِنْ مُسْتَجَارٍ أوْ مُجير ؟
أوْ نَاطِق أوْ سَامعٍ يَوْماً بِعُرْفٍ أوْ نكير
أهْلَ القُبُور أحِبّتِي بَعْد الْجَذالة وَالسّرُور(٤)
بَعْدَ الْغضَارَة والنّضَا رَة والتّنَعّمِ وَالْحُبُور
بَعْد الْمَشَاهد وَالْمجَا لس وَالْعَساكر وَالْقُصُور
بَعْد الْحَسان الْمُسْمعَات وَبَعْد رَبّات الْخُدور
أصْبَحْتُمُ تحْتَ الثّرَى بَيْنَ الصّفَائح والصّخُورِ(٥)
أهْلَ الْقُبُور إليْكُمُ لا بُدّ عَاقِبَةُ الامُور

---

(١) هذه القصيدة جل ابياتها (مدور) أي بعض الكلمة في الشطر الاول وبعضها في الشطر الثاني.
(٢) القرم : السيد العظيم .
(٣) المسود : السيد . الفناء : الساحة امام البيت .
(٤) الجذالة : الفرح .
(٥) الصفائح : الحجارة العريضة .

صاحب القطع :

هو ابو العتاهية . اسماعيل بن القاسم ، ولد في الكوفة سنة ١٣٠ ﻫ من اسرة فقيرة ، وكان يبيع الجرار ولكنه ولع بالشعر فقاله وهو صغير ، ولما قوي عوده في الشعر وذاعت شهرته سعى الى بغداد وقد اتصل بثلاثة من الخلفاء العباسيين وهم المهدي والرشيد والمأمون ونال لديهم حظوة ، ثم اقبل على دراسة الفلسفة والحكمة فمال الى الزهد وانصرف بفنه اليه ، وبخاصة بعد ان تعرف الى (عتبة) جارية الرشيد التي اغرم بها ولكنها صدته فحزن ولبس الصوف وتنسك ، وتوفي في بغداد سنة ٢١٠ ﻫ .

وله شعر كثير في الغزل والمدح والرثاء والهجاء والحكم ولكن اظهر شعره هو الزهد الذي افتن فيه .

تحليل القطعة الاولى :

يقول انه قطع امله من الدنيا ووجد راحته في اليأس منها وذلك بعد ان صدته عتبة ، ونصح بألا يريق الانسان ماء وجهه بالسؤال ، وأن يضن بكرامته ، كما يضن صاحب المال البخيل بماله ، اذ ان المحامد ترجح في الوزن ما يبذل من مال وعطاء ، واذا اضطر الانسان فليسأل كريماً ، ونصح لمن يشعر بضيق في مكان ان يرحل إلى غيره وان يصبر على نوائب الدنيا فهي لا تدوم على حال .

تحليل القطعة الثانية :

ليس في طبع الزمن ان يبقي شمل الاصحاب مجتمعين بل يفرقهم بالموت ، لاننا في دار من طبيعتها الفناء ولم نشاهد فيها من لم يهلكه الموت ، واعجب لقوم جدّوا في طلب الدنيا والعمارة بها ، ولكنهم تركوا كل هذا ولم يخرجوا منها الا بالكفن ، ثم يحض على بذل المال لأن الانسان لن يبقى له الا الذكر الحسن ، ونحن في هذه الحياة محكوم علينا بالموت ، وكل منا ينتظر الساعة التي ينفذ فيها قضاء الله فيه .

تحليل القطعة الثالثة :

يقول أيها الاصدقاء : زوروا القبور ونادوا من سكنها من عظيم أو حقير وسلوهم هل فيهم من بجير أو بجار ، وأين أنتم بعد ما كنتم فيه في الدنيا من نعيم وسؤدد ومناصب وتمتع بلذاتها ، أصبحتم الآن تحت التراب وهذا مآل كل حي .

التعليق :

هذه القطع الثلاث تمثل لوناً من الأدب جد على المجتمع الاسلامي في القرن الثاني الهجري وهو (فن الزهد) وقد كان أبو العتاهية زعيم هذا اللون من الأدب ، ونلاحظ :

أن هذه القصائد قد قلّت فيها الصور الشعرية والأخيلة الجميلة ، فجاءت جافة أشبه بوعظ الواعظين منها بروائع الشعراء المحلقين . وذلك لأن هذا النوع من الأدب يتطلب السهولة والوضوح والقرب من أفهام الناس ، وتخير الأوزان الشعرية السهلة .

كما نلاحظ أن عماد زهديات أبي العتاهية الترغيب في الآخرة ، والتحذير من الدنيا ، والدعوة إلى القناعة ، واجتناب الشر ، والتجمل بالأخلاق الفاضلة ، والتذكير بالموت ، وضجعة القبر .

موضوعات للبحث

يقرر الرواة أن أبا العتاهية كان شحيحاً يكدس في بيته بدَر الاموال، وهم لهذا يقولون إن (زهدياته) ليست صدى لنفسه الزاهدة ، ولكنها أثر لفشله في حبه لعتبة ، ورغبته في الظهور على الناس بفن جديد .

— ناقش .

٢ — إن أبا العتاهية بحديثه في الزهد قد رسم جانباً مهماً من الحياة العباسية عند قوم لم تغمرهم زخارفها ، وضّح .

٣ — ما عماد زهديات أبـي العتاهية التي يمكن أن تستنبطها من خلال هذه النماذج ؟.

للمطالعة

١ — أبو العتاهية : لمحمد أحمد برانق .
٢ — أبو العتاهية : لعبد المتعال الصعيدي .
٣ — التصوف عند العرب : لجبور عبد النور .
٤ — ديوان أبـي العتاهية

الفصل التاسع عشر

الشعر الاجتماعي

كان الشعر العربي القديم يدور في فلك الخلفاء والأمراء والوزراء مدحاً ورثاء ، ولم يلتفت الشعراء ، إلا في النادر جداً للشعب يصفون أدواءه ويعالجون مشكلاته ، وكان الشعر العربي القديم ذاتياً خالصاً إذا خرج عن نطاق المدح والرثاء عبر عن أحاسيس الشاعر في فخره وحبه وحماسته وما شاكل ذلك من الاغراض التي لا تتصل بالحياة العامة من قريب أو بعيد .

فلما جاء العصر الحديث تنبهت الشعوب لحقوقها ، بعد أن اتصلنا بالأدب الغربي ، وعرفنا كثيراً عن حقوق الشعوب الغربية ، وتمتعها بالحرية ، ومطالبتها بالحياة الحرة الكريمة ، لأن الشعب هو الذي يزود الامة برجالها الحاكمين . وساستها القادرين ، ومهندسيها البارعين ، وأطبائها الافذاذ ، وعلمائها الاجلاء ، وهو ثروة معنوية عظيمة ، وكنز ثمين . وللشعوب في أوروبا مهابة عظيمة يترضاها الزعماء والحكام ، ويسعى الكل جادين على إنهاضها ورقيّها فهي حصن الامة حين الفزع ، وقوتها التي ترهب بها أعداءها .

ولقد تأثر العرب بهذه النهضة وبتلك النزعة ، وأخذ الشعراء ينظرون الى مشكلات الشعوب العربية وما خلفته عصور الضعف والاحتلال العثماني البغيض من ادواء وعلل تعوق ركب النهضة وتقدم الشعوب ووثباتها نحو الرقي ، وكان من أهمّ هذا المشكلات مشكلة الفقر والغنى ، فقد تخلف عن العهود المظلمة أن حظي فريق بثروة عريضة وغنى فاحش ، وأنفقوا بسرف ، بينما سواد الامة في فقر مدقع فكثر الاطفال المشردون نتيجة لهذا ، ونتيجة لجهل الطبقة الدنيا ، والإكثار من الزواج والطلاق

مع عدم قدرتهم المالية على تربية أولادهم . تحالف الجهل والفقر والمرض على الطبقة الدنيا من الشعب ، كما ان المدنية الحديثة المستوردة من أوروبا قد أفسدت كثيراً من الشباب ، وأخذوا يلتقطون نفاية الحضارة الغربية ، ويقلدون رذائلها ، ففشت نقائص كثيرة ، اخذ يئن منها المجتمع العربي ، وخفّت قبضة الدين على النفوس ، نتيجة لما بثه المستعمرون في ثقافاتهم العديدة من حملات ضد الدين والعقيدة ، علماً منهم بأن الدين هو الذي يذكر الأمة العربية بماضيها المجيد .

ولذلك رأينا لوناً جديداً من الشعر هو الشعر الاجتماعي أخذ يعلو صوته ويشتد منذ اول هذا القرن ؛ تجاوباً مع الشعراء العرب مع نهضة شعوبهم ، فيصفون الداء ويشخصونه ، ويحثون أولى الأمر على العناية بالشعب وحل مشكلاته، وينصحون ابناء الشعب بالبعد عن الآفات الاجتماعية التي تقوّض دعائم نهضتهم ، والتي لن يفيد منها إلاّ المستعمرون .

كما أنهم اخذوا يشجعون كل من يولي الشعب عنايته ، فيقيم ملجأ يأوي إليه الأيتام والاطفال المشردون ، او يؤسس مستشفى يعالج فيه المرضى العاجزون عن المداواة ، وغير ذلك من مظاهر النهضة الاجتماعية.

وقد برع في هذا اللون من الشعر في مصر : حافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي ، ومحمد عبد المطلب . وفي العراق : الرصافي والزهاوي .

المنتخبات

اولا – الارملة المرضعة

لمعروف الرصافي

لقيتُها ، لَيْتَني مَا كُنْتُ ألْقَاهَا تمْشي وَقَدْ أثْقَلَ الإملاقُ مَمْشَاها(١)

أثوابُها رثّةٌ ، والرِّجلُ حافيةٌ والدّمْعُ تَذْرِفُهُ في الخدّ عَيْناها(٢)

بَكَتْ مِن الفَقْر فاحْمرّتْ مدامعها واصفَرّ كالورس من جُوعٍ مُحيّاها(٣)

مَاتَ الّذي كَانَ يَحْميها ويُسْعِدها فالدّهْرُ من بعدِه بالفقْرِ أشْقَاها

الموتُ أفْجَعَها ، والفقرُ أوجَعَها والهمّ أنْحَلَها ، والغَمّ أضناها (٤)

فمنظَرُ الحزن مشهودٌ بمنظَرِها وَالبؤسُ مَرْآهُ مَقْرُونٌ بِمرْآها

كَرّ الجَدِيدَيْنِ قد أبلى عَبَاءَتَها فانْشَقّ أسفلُهَا ، وانشقّ أعْلاها(٥)

ومزّقَ الدّهْرُ – ويْلَ الدّهرِ – مِئزَرَها

حتّى بدا من شُقُوق الثوب جَنْبَاها(٦)

---

(١) الإملاق : الفقر والحاجة .

(٢) رثة : بالية .

(٣) الورس : نبات كالسمسم تصبغ به الثياب .

(٤) أنحلها : أهزلها . اضناها : اثقلها وامرضها .

(٥) الجديدان : الليل والنهار .

(٦) الإزار : كل ما يستر به .

تَمشي بأطْمَارِها والبردُ يَلْسَعُها　　　كأنّهُ عقربٌ شالت زُبَانَاها (١)
حتى غدا جسمُهَا بِالْبردِ مُرْتَجِفاً
كالغُصْنِ في الرّيح ، واصطكّتْ ثناياها(٢)

* * *

تمشي وتحْمل باليُسْرى وليدتَهَا　　　حَمْلاً على الصّدْرِ مَدْعُوماًبيُمناها
قد قَمّطَتْهَا بِأهدامٍ مُمَزّقَةٍ　　　فِي العَينِ مَنْشَرُهاسَمجٌوَمَطْوَاها(٣)
ماأنسَ لاَ أنْسَ أنّي كُنتُ أسمعُها　　　تشكو إلى ربّها أوصابَ دُنْيَاهَا
تقول: يارَبّ لا تَتْرُكْ بلا لَبَنٍ　　　هَذِي الرضيعة ، وارحمْني وإياها
ماتصْنَعُ الأمّ في تَرْبيب طِفْلَتِها　　　إنْ مَسّها الضّرّ حتى جف ثَدْيَاها؟
يا ربّ ما حِيلَتي فيها وقد ذبُلَتْ
كَزَهْرَةِ الرّوْضِ فَقْدُ الغَيْثِ أظْمَاها ؟
مابالُها وَهْيَ طول اللّيل باكيةٌ　　　والأمّ سَاهِرَةٌ تبكِي لمَبْكَاهَا ؟
يكاد ينقدّ قلبي حين أنْظُرهَا　　　تبكي ، وتفتح لي من جُوعها فَاهَا
وَيْلُمّها طفلةً باتتْ مُرَوّعَةً　　　وبتّ مِنْ حَوْلها في الليل أرْعَاها(٤)

---

(١) الاطار : جمع طمر ، هو الثوب الخلق او الكساء البالي من غير الصوف.الزباني : قرن العقرب او ذنبها .
(٢) الثنايا : مقدمة الاسنان .
(٣) اهدام : جمع هدم ، وهو الثوب المرقع .
(٤) ويلمها : اصله ويل لامها : وهو اسلوب عربي يستعمل في التفجيع او الندبة .

تبكي لتشكوَ مِنْ داءٍ ألمّ بِهَا ولستُ أفهم مِنها كُنْهَ شَكواها
قد فاتَهَا النّطقُ كالعَجْماءِ أرحمها ولستُ أعلَمُ أنّ السّقْمُ آذاهَا
وَيْحَ ابْنَتي : إنّ رِيْبَ الدّهر روّعَها بالفقر واليُتْم آهاً مِنْهما آها
كانت مصيبتها بالفقر واحدةً وموتُ والدها باليُتْم .. ثَنّاها

* * *

هَذا الّذي فِي طَرِيقي كنتُ أسمعه منها فأثّرَ في نفسي وأشجاها
حتّى دَنَوْت إليها وهي ماشيةٌ وأدْمُعي أوْسَعَتْ في الخدّ مجْرَاها
وقُلْتُ : يا أختُ مَهْلاً ! إنني رَجُلٌ أشَارِكُ النّاسَ طُرّاً في بلاياها
سَمِعْتُ يا أختُ شكْوى تَهْمِسِينَ بها
في قالةٍ أوْجَعَتْ قَلْبي بِفَحْواها (١)
هلْ تَسْمَحُ الأختُ لي أنّي أشاطرها مَا في يدي الآن أسْتَرْضي به اللهَ ؟
ثم اجْتَذَبْتُ لها مِنْ جَيْبِ مِلحفتي دراهماً كنت أسْتبقِي بقاياها (٢)
وقلت : يا أختُ أرجو منك تكْرمتي
بأخذها دون مَا مَنٍّ تغشّاها
فأرْسلتْ نَظْرَةً رعْشَاءَ رَاجفةً تَرْمي السّهامَ وقلبي من رماياها
وأخرَجَتْ زفرات منْ جوانحها كالنّار تصعدُ منْ أعماق أحْشاها

---

(١) القالة : القول .
(٢) الملحفة : الثوب يلبس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه .

وأجهشَتْ ثم قالتْ : وهي باكيـــة   وَاهاً لمثلك من ذِي رِقّةٍ واهـا (١)

لوْعمّ في النّاس حِس مثلُ حسّكَ لي   ما تَاهَ في فلواتِ الفَقْرِ من تاهـــا

لو كان في النّفس إنصَافٌ وَمَرْحمة   لم تَشْكُ أرملةٌ ضَنْكاً بدُنيَاهـا

* * *

هذي حكاية حالٍ جئتُ اذكُرُهـــا   وليْسَ يَخْفى على الأحرار مَغْزَاهـا

أوْلى الانام بعَطفِ النّاس أرملةٌ   وأشرف النّاس مَنْ في المال وَاسَاهـا

صاحب القطعة :

هو معروف الرصافي شاعر عراقي ولد ببغداد سنة ١٨٧٥ م وكان أبوه جندياً في شرطة الأرياف كثير التغيب عن البيت ، فاشتدت صلته بأمه ، وجده لأمه ، ودفعت به أمه الى المكتب صغيراً ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ القرآن ، ثم دخل المدرسة العسكرية ، وكانت الدروس تلقى فيها باللغة التركية ، فوجد عسراً شديداً في متابعة دروسها، فمكث بها عامين عانى فيهما تعباً كبيراً ، وانصرف بعدهما إلى الدرس الحر ، ولم يجد إلا المدارس الدينيـــة ، فالتحق بمدرسة محمود شكري الألوسي (صاحب بلوغ الأرب) ومكث بصحبته اثنّي عشرة سنة ، درس فيها علوم العربية والدين والمنطق ، وأفادته صحبته للألوسي ووجهته وجهة أدبية .

واضطر لشدة فقره ان يبحث عن عمل يرتزق منه ، وهو بعـــد صغير السن، فاحترف التعليم وتنقل في مدارس مختلفة ، ولما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . دعي الى تركيا ليقوم بتحرير جريدة (إقدام) ولم يلبث طويلاً في تركيا وعاد إلى العراق ، ثم عاد الى تركيا مرة ثانية، وقد انتخب نائباً عن لواء (المنتفك) ، وأعلنت الحرب العالمية الاولى وهو

(١) واها لمثلك : أسلوب تعجب . ويستعمل أحيانا للتلهف .

بتركيا فعهد اليه بتدريس الخطابة في مدرسة الواعظين،ولما أعلنت الهدنة عزم على العودة الى العراق ،وعرج في طريقه على القدس ليدرس آداب اللغة بدار المعلمين ، ولكن حكومة العراق استدعتـــه في سنة ١٩٢١ ، وأصدر بعد عودته جريدة سماها (الأمل) ولكن عمرها كان قصيراً ، ثم عين مفتشاً للغة العربية سنـة ١٩٣٤ ، وأخـــيراً استقال من الوظائف الحكومية في سنة ١٩٢٨ ولم يعد إلى التوظف،ثم انتخب نائباً في المجلس النيابـي لمدة ثمانية أعوام ، وعاش بعدها سبعة أعوام بعيداً عن الوظائف وعن النيابة ، حتى توفي في مارس ١٩٤٥ .

واشتهر الرصافي بميله الشديد للحرية إلى حدّ الثورة والتمرد على كل الأوضاع المعروفة في بلاده ، وانتهت به حريته إلى شيء من التحلل ، وكان يعد نفسه مصلحاً،وكان رقيق الشعور يؤلمه منظر البؤس والفاقة ، وشعره يَغَصّ بالقصائد الكثيرة التي تصور هذا البؤس مثل : « اليتيم في العيدين » و « السجن في بغداد »و« المطلقة »و « اليتيم المخدوع » و « الارملة المرضعة » .. إلى غيرها من القصائد الاجتماعية الكثيرة .

وكان الرصافي وطنياً غيوراً ، وعربياً صادق الولاء لعروبته، وشاعراً محافظاً على تقاليد الشعر العربـي في أوزانه وصفاء ديباجته ، وكان يرى ان الشعر يصلح لكل شيء ، حتى الكيمياء والطبيعة ، وله في ذلك شعر غير قليل ، ومع ذلك حافظ فيه على قوة الجـرس ، وحسن الأداء ، وإن جاء شعراً تعليمياً خالياً من العاطفة والخيال ويعد من أكبر شعـراء العراق في العصر الحديث .

تحليل القطعة :

تشتمل هذه القصيدة على ثلاثة معان :

المعنى الأول : تصوير الأرملة المرضعة في بؤسها وفاقتها وثيابها الزرية وطول بكائها ونحيبها وتمزق عباءتها . وارتجاف جسمها من البرد وبلى الثياب .

والمعنى الثاني : وصف وليدتها ملفوفة في الثياب الممزقة ، وشكوى الأرملة ، وتضرعها لربها ان يرحم هذه الطفلة الصغيرة ولا يتركها بلا

لبن ، وأن يدر لها اللبن حتى تحفظ حياتها ، لأنها لا تستطيع ان تفصح عن شكواها ، وقد تألب عليها الفقر واليتم .

والمعنى الثالث : تأثر الشاعر بهذا المنظر البئيس ، وإظهار شعوره لها ومشاركتها في حزنها وجوده بما ملكت يده ، وتأثر الأرملة من هــذه الأريحية ، وتمنيها أن تعم هذه الروح الكريمة جميع الناس ، ولو حدث هذا لانقضى البؤس والشقاء .

ويختم الشاعر هذا المنظر ببيان المغزى منه ، وهو مغزى يدركه الألباء وأحرار الناس مناشداً أهل المروءة أن يمدوا أيديهـــم للبائسين وأولاهم بالعطف والرحمة أرملة مرضعة .

ولقد كان الرصافي بارعاً في تصويره للأرملة المرضعة ، حيث وصفها وصفاً دقيقاً ليثير مشاعر القارىء بإبراز هذا المنظر البائس .

كما أجاد في تصوير الوليدة المحمولة على الصدر في اللفائف الممزقة ، وأراد بذلك ان تتم صورة البؤس ، حيث تضافر الجوع والفقر والبرد واليتم على هذه الطفلة ، وقد حرمت اللبن من ثدي امها ، وأورد مناجاة الأم لربها حتى يكون ابلغ في استثارته . وقد زاد هـذه الاستثارة قوة بأنه استجاب لمنظر البؤس ولم يتمالك نفسه فجاد بما معه لها . وكان بارعاً في خطابه حيث ناداها : يا اخت ، وفي استئذانه لها ان تسمـــح بأن يشاركها ما معه ، وطمأنته لها بأنه رجل يشارك الناس طراً في بلاياها مع انه ليس من ذوي اليسار .

وقد تأثرت المرأة لهذه الرقة وعجبت لها ، وتمنت ان تعم جميع الناس ، وان يكون لهم مثل هذا الحس المرهف . وهذه القصة مسلك جديد في الحث على البر والإحسان ، وهي أشد تأثيراً في النفس من الوعظ المباشر ؛ لأنه وضع امام القارىء والسامع صورة البؤس مجسمة حتى يرق قلبه لها ، فاذا طلب منه الإحسان لها كان قد قدم الدليل عليه . والأقصوصة الشعرية شاعت في عصرنا الحديث ، وإن كان لها أصل في شعرنا القديم .

والرصافي كما رأيت حافظ على الديباجة القوية والموسيقى الحلوة ، مع سهولة في الأداء وجمال في التعبير وعاطفـة حادة نحو البؤس والبائسين .

ثانيا – المرأة والرجل

لجميل الزهاوي

في الغرب حيث كلا الجنسين يشتغل — لا يَفْضُل المرأة المقدامةَ الرَّجُلُ
كلا القرينين معتزٌّ بصاحبه — عليه إن نال منه العجز يتّكِلُ
وكلٌّ جنسٍ له نقصٌ بمفرده — أمّا الحياة فبالجنسين تكتمل
بيتٌ نظيفٌ وأولادٌ قد ازدهروا — كأنهم زَهَرٌ في الروض تنتقل
والبيت فيه نظام حين تبصره — وإنه لنظام ما به خَلَل
تبقى المودّة حتى الموت بينهما — فما هنالك شَنْآن ولا مَلَلُ
وإنما غاية الزوجين واحدةٌ — وإن تعددت الأسباب والسُّبُل
وقد يطلقها أو قد تطلّقه — إذا قضى بالطلاق الكرهُ والملل

* * *

أما العراق ففيه الأمر يختلف — فقد ألمَّ بنصف الأمة الشَّلَلُ
ومَنْ تَزَوَّج لا عن خبرةٍ سبقت — فإنما خطبه في داره جَلَلُ
وقد يعالج همّاً لا يزايله — حتى يموت ، وجرحاً ليس يندمل
وقد يطلقها في حانة ثَمِلاً — وليس تدري لماذا طَلَّقَ الثَّمِلُ
في البيت بعد وفاق في الهوى دَعَةٌ — وفيه بعد خلاف في الهوى جَدَلُ
أعززْ فتاتك واخطب عن معاشرة — بريئة ولأم الناقد الهَبَلُ

* * *

كم قد تزوج ذو الستين يانعــةً والشيبُ في رأسه كالنار يشتعل
يقضي لباناته منهــا إلى أجــلٍ وقد يكون قصيراً ذلك الأجَــلُ
ولا يبالي بحبل الود بعدئــذ أكان متصــلاً أم ليس متصل
تزوجتْ وهْي لا تدري لشقوتها أزوجها أحدُ الغيــلان أم رَجُلُ
يسبها لا لذنب ثم يركُلها بالرجل منه مُهيناً وهي تحتمــل
وبعــد ذلك يجري كالنعــام إلى أصحابه وهو ممــا جاءه جَذِلُ
يروي لهم كيف أبكاها وآلمهــا كأنه في ميــادين الوغى بطل
ولم تكن أربــعٌ يُشْبعن نهمتَه والذئب يشبعه من جوعه حَمَلُ
لا تحسبنْ كلَّ من قد سار مهتدياً وكلَّ من كان معوجــاً سيعتدل
القوم إن واجهوا أعداءهم جبنــوا والقوم إن قابلوا أزواجهم بسلُوا
إلى السماء العيون النُّجْلُ شاخصة ماذا ترى في السماء الأعين النُّجُل
تلك الشتائم في الأعراض جارحــة للنفس أكثر ممــا تجرح الأسل
الغرب والشرق طوال الــدهر بينهما تنازعٌ عجزت عن حسْمه الحيل
بين الشقيقين من أجل البقاء وغىً ليت الصداقة عن هذا الوغى بدَل
والفرق بينهما في كل ناحيــة بادٍ إذا نظرت تستشرف المُقَل
ولا تكافــؤ فيما شبَّ بينهما هذا يفوز وهــذا كله فشل
هــذا على نفسه تلقاه معتمداً يسعى وهذا على الأقدار يتكــل
هــذا له من نشاط مــا يقدمه وذا يؤخره عن غــاية كسل

صاحب القطعة :

هو جميل صدقي الزهاوي ولد ببغداد سنة ١٨٦٣،وذهب الى المكتب ليتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة من عمره ، ولما شب أخذ يقرأ على بعض العلماء من تلامذة والده مبادىء النحو والصرف والمنطق وشيئاً من البلاغة ، وقرأ على والده ديوان المتنبي ، وتفسير البيضاوي ، ولم تكن دراسته منظمة؛وإنما اعتمد فيها على نفسه،فواصل قراءته بالعربية ، ولكنه بجانب هذا كان يجيد التركية والفارسية ، وقد أعجب بالشاعر التركي (نامق كمال) والتفت إلى العلوم العصرية يقف عندها ويستوعب ما يقع له منها وأول مجلة أعجب بها هي المقتطف ، كما اعجبته مؤلفات (فاندَيك) المستشرق الاميركي في العلوم العصرية ولا سيما الفلك ، وقرأ كتباً كثيرة بالتركية وبخاصة ما ترجم اليها من الأدب الغربي ، إذ لم يكن الزهاوي ممن يعرفون لغة غربية ، قرأ بالتركية لهوغو وأناتول فرانس وشكسبير وتولستوي وغيرهم .

وكان الزهاوي يجنح إلى التحرر من التقاليد ، ويدعي الفلسفة ، وقد اتخذ الشعر مطية لبث أفكاره وحمله ما لا يطيق من مسائل العلم والفلسفة فبعد به عن طبيعته .

عاصر الزهاوي عهد السلطان عبد الحميد وبطشه ، وإهماله للأقطار العربية ، واستبداده بأهلها ، وكانت العراق حينذاك تقع تحت الحكم التركي مباشرة،وقد زار الزهاوي الآستانة مراراً وشهد بعد ذلك الاحتلال الانكليزي للعراق ، وعهد الاستقلال .

عين في العهد الحميدي عضواً في مجلس معارف ولاية بغداد سنة ١٨٨٦ ، ثم عين واعظاً في اليمن سنة ١٨٩٧ ، وعين بعد ذلك استاذاً لفلسفة التشريع الإسلامي بالمدرسة الملكية باستانبول . وانتخب نائباً عن لواء المنتفك سنة ١٩١٤ . وفي العهد الوطني عين عضواً بمجلس الأعيان وبقي به أربع سنوات . سافر مراراً إلى تركيا ، ومرة إلى اليمن ومرة إلى مصر ماراً بسورية ولبنان،وقد عمر الزهاوي طويلاً ومات سنة ١٩٣٦ .

حاول الزهاوي التجديد في الشعر ، وكان مولعاً بالتجديد في كل شيء والخروج على كل ما هو مألوف حتى العقيدة . ولذلك اتهم في عقيدته ، كما كان من أشد الداعين إلى تحرر المرأة ، وهو القائل :

سئمت كل قديم عرفته في حياتي
إن كان عندك شيء من الجديد فهات

ولكن تجديده في الشعر كان محدوداً، يتمثل في محاولاته الخروج على نظام القصيدة العربية فينظم المقطعات ، ويأتي بكل بيتين في القصيدة من قافية واحدة على نظام القصيدة الغربية ، ويكثر من الرباعيات ، ويعتقد ان الشعر يصلح للتعبير عن كل شيء حتى العلوم الطبيعية ، ولم يكن يعنى بديباجته او موسيقى شعره او باختيار ألفاظه . اما اغراضه فمعظمها من الاغراض التقليدية ، وان كان له قليل من الشعر، وحاول ان ينظم الأقاصيص الشعرية، ولكنه أخفق، إذ أتت كلها طويلة غير جيدة السبك .

ترك الزهاوي عدة دواوين منها : الكلم المنظوم، والرباعيات والديوان، والأوشال ، واللباب ، والثمالة .

تحليل القطعة :

في هذه القصيدة يحاول الزهاوي ان يعرض بعض عيوب الأسرة العربية في العراق ، فابتدأ بالإشادة بالحياة الزوجية في الغرب ، وان المرأة والرجل كل منهما يكمل الآخر ويعتمد عليه في حال العجز، وأنهما يعملان معاً على سعادة الأسرة ، فالأولاد كالزهر النضر ، والبيت في نظام تام ، والمودة سائدة بينهما ، وقد يجدّ ما يفصم عرى الزوجية فينفصلان في سهولة .

ثم عرض حال الأسرة في العراق، فالزواج يتم من غير خبرة ومعرفة، فلا الزوجه تعرف الزوج ولا هو يعرفها .

ويتسبب من أجل ذلك همّ لا يدري كيف يعالجه ، وجرح لا يندمل ، والرجل قد يطلق زوجته وهو ثمل ولا تدري لماذا طلقها ، لأن الطلاق سهل ميسور يملكه الرجل ، ويطلب من الفتيان أن يعزوا فتياتهم ، وألا يتزوجوا إلا بعد عِشْرة ، وألا يهتموا بنقد الناقدين لهم على ذلك .

ثم يتناول بعد ذلك عيباً كان متفشياً في بلادنا وهــو زواج الشيب بالشابات ، وعدم مراعاة المرأة وشعورها بل كثيراً ما يعمد هذا الشيخ الذي تزوج من فتاة الى الإساءة إليها ، ويذهبُ الى اصحابه مفتخراً بما فعل وكثيراً ما يتزوج اربعة مع ان الذئب يكفيه حَمَل لكي يشبع جوعته . ولا تملك المرأة إزاء اهانته الا أن ترفع عينيهــا الى السماء ، وهو لا يهتم بسبابها مع ان سب الاعراض أنكى من وقع الرماح .

وأخيراً ينظر نظرة عامة الى الشرق والغرب ، فهما دائماً متنازعان في سبيل البقاء ، ولكن التكافؤ بينهما غير موجود ، فالغرب يعتمــد على نفسه ، والشرق دأبه التواكل ، وذاك عنــده النشاط ، والشرق عنده الكسل .

وعلى الرغم من أن الزهاوي لم يعش في الغرب ، فإنه صور الحياة الزوجية في الغرب بصورة مثالية ، ولعله تخيلها ، والا فالحياة الزوجية في كثير من البيوت الغربية ، ولا سيما بعد الحربين العالميتين قد دخلها كثير من الخلل والاضطراب . وما باله يذهب الى الغرب ، والإسلام يحث على حسن المعاملة « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ،ولكنها كانت بدعة الأمم الضعيفة حيث تتخذ مثلها العليا من الأقوياء وتتناسى ما عندها من ذخائر .

ورأيناه يدعو الى الخبرة والصداقة الطويلة قبل الزواج ، غير مدرك الأخطار العظيمة التي تنجم عن هذا ، وغير مبال بتقاليدنا وديننا ، وما يعانيه الغرب من مثل هذه الاحوال .

ولكن نزعته في هدم كل قديم ولو كان صالحاً واعتناق كل جديد ولو كان فاسداً هي التي وجهته هذه الوجهة . وهو على حق في نقده

لهؤلاء الذين لا يراعون الله ولا الأسرة حين يطلقون زوجاتهم من غير إثم اقترفنه ، وقد يكونون في حالة سكر ، والإسلام يقرر « أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

أما تصويره لزواج الشيب بالفتيات ، وسوء معاملة الرجال لزوجاتهم فذلك عيب ظـــاهر في الطبقات الدنيا الجاهلة . وكذلك نراه يشجب الزواج بأربع ، وقد تطور الفكر العربـي منذ قال هذه القصيـدة وندر من يتزوج بأربع ، وإن كان لتعدد الزوجات في الإسلام حكمة ليس هنا مجال بسطها .

وهو في آخر الأمر يظهر الغربـي بمظهر المتفوق في صراعه مع الشرقي لأنه يعتمد على نفسه وله نشاط بينما الشرقي كسلان ، متكل على سواه . وهذه نظرة الضعفاء دائماً الى الاقوياء .

كان الزهاوي — كما ذكرنا — من أشد أنصار تحرير المرأة وسفورها وممارستها حقوقها كاملة كالرجل سواء بسواء ، وهو هنا يدافع عنها ، وقد وفق أحياناً ، وأخطأ احياناً في دفاعه ، وفي نقده لأحوال المجتمع العراقي في عصره .

وقد سلك في تصويره حالة المجتمع الاسلوب المألوف في القصيـــدة العربية ، واكثر من أبيات الحكمة ، ولم يلجأ الى الاقصوصة الشعرية . وقد غلبت معانيه على ديباجته . فلم تأت الصياغة موسيقية متقنة .

وهذا الاسلوب المباشر في الموعظة اقل تأثيراً في النفوس من القصة .

ثالثاً – الفتاة الحزينة

لمحمد الحلوي

أَتَـدْرِي يَا أَبي أَنِّـي فَتَـــاة
فَكَيْفَ أَعِيشُ وَحْدِي فِي يَفَاعٍ ؟ (١)

أَنا وَحْدِي فَكَيْفَ إِذَا دَهَتْنِي مِنَ الغَابَاتِ أَسْرَابُ السِّبَاعِ ؟
أُقَاوِمُ ، أَمْ أُصِيحُ ؟ وَهَلْ بِقُرْبي مُجِيبٌ يَسْتَجِيبُ صَدَى ارْتِيَاعِي (٢)
إِذَا غَابَتْ ذُكاء وَوَدَّعَتْنِـــي فَلاَ طَيْرٌ يُحلِّقُ فِي ارْتِفَاعٍ (٣)
وَلِلأَشْجَارِ يَا أَبَتِي دَوِيٌّ يُذَكِّرُنِي بِغَمْغَمَةِ الضِّبَاعِ !
وَلِلرِّيحِ الَّتي اقْتَلَعَتْ كُوَيْخي وَمَا رَحِمَتْ قَضَاءٌ لاَ يُرَاعِي
وَيَسْمَعُ هَذِهِ الأَصْوَاتَ كَلْبِي فَيُنْكِرُهَا وَيَصْمُدُ لِلدِّفَاعِ
أَلَيْلَى لاَ تَخَافِي المَوْتَ إِنَّـا نُجِيبُ مَتَى دَعَانَا مِنْهُ دَاعٍ

* * *

نَعَمْ غَادَرْتَنِي فِي الغَابِ لَمَّـا دَعَاكَ إِلى الصَّبَابَةِ مِنْكَ دَاعٍ (٤)
سَعَيْتَ إِلى فَتَاتِكَ لَسْتَ تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ، وَلَمْ تَكُ قَبْلُ سَاعٍ

---

(١) اليفاع : التل المشرف ، او كل ما ارتفع من الارض .
(٢) الصدى : ما يرده الجبل او غيره الى المصوت مثل صوته .
(٣) ذكاء : الشمس .
(٤) الصبابة : العشق ، والوله الشديد .

فماذا كانَ بينَكُما ؟ وَهَلاّ   لقاؤ كما تَقرّرَ بعدَ ساعٍ ؟
أأمّي أينَ عطفُكِ في الرّزايا   علَى قلبٍ أراهُ في انصداعٍ ؟(١)
أنا الشّاةُ التي أودَعْت قَلْبي   على الأيّامِ تَقْديساً لرَاعي
فخَانَ رِعايَتي واختَارَ غيْري   فهمْتُ على الهضابِ بدُونِ راعٍ
أبي هَذي فتَاتُكَ فاصْطحِبْها   كما فارَقْتَها عنْد الوَداعِ
فقدْ طَالَ المقامُ هُنَا وَحنّتْ   حنينَ الخوْد للزّوْجِ المُطَاعِ(٢)

صاحب القطعة :

محمد الحلوي شاعر الجزالة والوطنية المغربية ولد بفاس سنة ١٩٢٣ ونشأ في بيت شديد التمسك بالدين قوي الحفاظ عليه، ثم التحق بالقرويين وحصل فيها على العالمية سنة ١٩٤٨ ثم انخرط في سلك التدريس بها ، وما يزال بها حتى الآن .

ولقد كان لبيئته المحافظة من جانب وللحصار الفكري الذي ضربه الاستعمار على أبناء المغرب فلا يتصلون بالحركات الفكرية في العالم العربي من جانب آخر أثر كبير في اتجاهه الأدبي وفي نتاجه ، فهو يميل الى الرصانة والكلاسيكية كرد فعل لبيئته المحافظة ، وهو مشبوب العاطفة الدينية والوطنية كرد فعل لمعركة المغرب مع الاحتلال .

وهذه القصيدة يعكس لنا فيها الشاعر زاوية من زوايا المجتمع، فهذه فتاة عاشت عقب وفاة أمها في هذه البقعة النائية مع أبيها الوادع الوقور، تعالج أن تنسى فجيعتها في أمها كلما هاج بها الشوق، وأجهدتها الذكرى،

(١) الرزايا : المصائب .
(٢) الخود : المرأة الشابة .

وتغيّب أبوها ليلة كاملة رأت فيها اهوال القيامة ، وهمس في أذنهـا شيطان قلبها قائلاً : إن أباك صريع فتاة في هذا الحي القريب ، فهو يؤثر الذهاب إليها كعاشق على ان ينام بقربك كأب .

تحليل القطعة :

هذه قصة كل فتـاة يحرمها الدهر أمها ، وهي بعد غضة العود ، قليلة الخبرة والتجربة بأمور الحياة ، وتتركهـا في كنف أب لا يعرف رسالته بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة لأولاده ولا يقدر عواقب الامور ، وكل همه من هذه الدنيا أن ينهل من ملذاتها في احضان امرأة يعشقها ، أو كأس يشربها ، او سهرة قمار يقضيها ، ويترك صبية له زغب الحواصل او فتياناً متطلعين الى الحيـاة من غير رائد يتوكأون عليه ، ويأخذون بإرشاده ، ويسيرون في حمايته وكنفه .

ويعز المصاب إذا كان الولد فتاة كهذه التي حدثنا عنها الشاعر حين تركها أبوها وحيدة ، وسعى الى عشيقته ، ولم يفكر في هـذه الذئاب البشرية التي لا تلبث أن تنتهز غيبته عن عرينه ، وتسرع إليـه لتعبث بعرضه ، في شخص جوهرته المكنونة التي لا تلبث ان تقع صريعة الإغراء .

ساق لنا الشاعر هذا الحديث في أسلوب قصصي عذب خفيف الحركة جميل الموسيقى ، وعبارة جياشة بالعاطفة الاجتماعية ، وكلمات باكيـة تستدر عطف الأب .

موضوعات للبحث

١ — لم يكن الرصافي صاحب مدرسة في الشعر الحديث ، وإن كان صاحب رسالة إصلاحية عمل لها طول حياته ، وظهرت واضحة في شعره.
اشرح هذه القضية ، مستشهداً ببعض الأحداث والأشعار التي درستها له .

٢ — درست قصيدة للزهاوي مطالعها :

في الغرب حيث كلا الجنسين يشتغل لا يفضل المرأة المقدامـة الرجل

اختر فكرتين متميزتين من أفكار هذه القصيدة ، وبين منهج الشاعر في تصويرهما .

٣ — ابحث في القاموس عن معاني الكلمات المرقومة في القصيدة وسجلها.

٤ — ما الفضيلة التي تحدث عنها الحلوي في قصيدته ؟ صور بإيجاز مشاعرك وأنت تقرأ هـــذه القصة ، وبين إلى أي حد نجح الشاعر في إثارة وجدانك ، وما رأيك في اسلوب القصيدة ؟ .

للمطالعة

١ — ديوان الرصافي

٢ — ديوان الزهاوي

٣ — الاتجاهات الأدبية : لأنيس المقدسي

٤ — الاتجاهات الوطنية : لمحمد حسين

٥ — الشعر العراقي المعاصر : جميل سعيد

الفصل العشرون

الشعر التمثيلي

تعريف به :

نشأ الشعر التمثيلي عند كثير من الأمم ، ولكنه لم ينتقل الى سواها الا الشعر التمثيلي الذي خلّفه الاغريق القدماء وكانت نشأته لديهم أول الأمر دينية احتفاء بالإله ديونيزوس إله الخصب والخمر ، ثم تطور هذا الفن لدى اليونان وخرج من المعبد الى الحياة . وكان نوعين : مأساة (تراجيديا) واشتهر في تأليفها أسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس . وملهاة (كوميديا) واشتهر في تأليفها ارستوفان . وقد خلد أرسطو في كتابه (فن الشعر) هؤلاء الأعلام ، ووضع أصول الفن المسرحي وبخاصة المأساة .

ثم ورث الرومان القدماء هذا الفن عن اليونان،وعنهم أخذت أوروبا عقب نهضتها ، وتطور في كل قطر من أقطارها تبعاً للظروف الخاصة به، ومن أعظم أعلامه في العالم وليم شكسبير الذي مات في القرن السابع عشر في عهد الملكة اليصابات بانكلترا ، وقد خرج في مسرحياته على تقاليد المسرح اليوناني فلم يتقيد بوحدة الزمان أو المكان أو العمل، وكان يبيح أعمال العنف على المسرح ، وقد أبدع في تصوير شخصياته واشتهر منها في العالم شيلوك في تاجر البندقية ، وعطيل ، وروميو وجولييت ، وهاملت وماكبث . وكان ماهراً في المأساة والملهاة على السواء، وترجمت مسرحياته الى كل لغات العالم .

أما في فرنسا فقد نشأت في عهد لويس الرابع عشر المدرسة التقليدية (الكلاسيكية) واشتهر منها في المأساة راسين وكورني ، وفي الملهاة موليير . وقد التزمت في التأليف المسرحي قواعد أرسطو . والشعر في هذه المدرسة منظوم بوزن خاص لا يخرج عنه وكل بيتين يشتركان في

قافية ، بخلاف شكسبير الذي اتخذ من الشعر المرسل الخالي من القافية أداة لنظمه ، والتزمت الوحدات الثلاث التزاماً دقيقاً ، فالقطعة المسرحية تقع في يوم واحد وفي مكان واحد ولا تشتمل الا على موضوع واحد، كما كان كل الشخصيات من الملوك والأمراء ورجال الطبقة العايا.

وثارت المدرسة الإبداعية (الرومانتيكية) في القرن التاسع عشر على تلك التقاليد ، وان ظل للشعر في فرنسا طابع المسرحيات ، ومن أشهر رجال المدرسة الإبداعية بفرنسا (فيكتور هوغو) ولكنه لم يتقيد بقانون الوحدات، وصارت المسرحية عنده قطعة من الحياة تصور تصويراً فنياً . ثم جاءت المدرسة الواقعية التي أسسها في المسرحية الكاتب النرويجي هنريك إبسن **Henrik Ibsen** وأخذت تعالج شؤون المجتمع وكل ما في الحياة من مشكلات ، وجنحت الى النثر ، ومن أشهر كتابها جورج برناردشو الكاتب الإيرلندي المشهور، وتتخذ هذه المدرسة أبطالها من جميع الطبقات، وتعنى بالفكرة وتتخذ المسرح أداة للاصلاح الاجتماعي، وفيها صار الحوار أهم من الأشخاص .

وقد أخذ العرب في نهضتهم الحديثة هذا الفن عن الأدب الغربي ، وترجمت مسرحيات كثيرة لشكسبير وموليير وراسين وغيرهم ، ثم بدأ دور المحاكاة، وبذلت جهود كثيرة قبل شوقي ولكنها لم تكلل بالنجاح، وكانت أول مسرحية شعرية في أدبنا الحديث هي مسرحية (المروءة والوفاء) لخليل اليازجي التي ظهرت طبعتها الاولى سنة ١٨٧٦ وتبعتها مسرحيات عديدة لم ترق الى المستوى الفني والأدبي حتى يكتب لها الخلود الى ان جاء شوقي فأخرج مسرحياته الشعرية منذ سنة ١٩٢٧ ومن أشهرها : (كليوباترا) و (مجنون ليلى) و (قمبيز) و (عنترة) فأعطى بذلك الشعر التمثيلي الرفيع نماذجه القوية ، وتبعه الشاعر عزيز أباظة ومن أشهر مسرحياته : قيس ولبنى ، وعبد الرحمن الناصر ، والعباسة . ثم الشاعر محمود غنيم ومن أشهر مسرحياته : غرام يزيد ، والمروءة المقنعة . وسنختار هنا نموذجاً من مسرحية مجنون ليلى لشوقي والعباسة لعزيز أباظة .

نماذج تطبيقيّة

أولا – مجنون ليلى

لأحمد شوقي

تمهيد :

أحب قيس بن الملوح ليلى العامرية بنت عمه منذ كانا صغيرين ، ولما بلغ قيس مبلغ الرجولة ، ونضجت ليلى تقدم قيس لخطبتها فرفض أبوها ، ورفضت ليلى كذلك ، لأنه تغزل بها في شعره وشاع ذلك بين الناس ، وكان من عادة العرب منذ الجاهلية ألا يزوجوا بناتهم ممن سبق أن تغزل فيهن حتى لا يُظن بهن الظنون ، وزُوجت ليلى من شخص اسمه(ورد) من ديار ثقيف بالطائف فجن قيس وهام على وجهه يلتمس دارها إلى أن وجدها فيقابله ورد .

قيس : أهـذا أنْتَ وَرْد بني ثقيف ؟

ورد : نَعَمْ ! والوردُ ينبتُ في رُباها

قيس : ولِمْ سُمِّيت ورداً ولم تُلقب بقُلاَّم العشيرة أو غَضَاها

« ورد في سكون وحلم »

وما ضرَّ الورودَ وماعليها ؟ إذا المزكوم لم يَطْعَم شذاها

قيس : (بربِّكَ هل ضَمَمْتَ إليك ليلى قُبَيْل الصبح أوْ قبَّلْتَ فاها)

(وهل رفَّت عليك قرونُ ليلى
رفيفَ الأقحوانة في نداها ؟)»

« ورد بعد فترة سكون »

: نَعَمْ ولا يا قيس

قيس : بَلْ لا بد من لا أو نعم
ورد : هَبْها نعم يا قيسُ هل مع الحلال من تُهَمْ ؟
المرءُ لا يُسْأل : هَلْ قبَّل أهــله ؟ وكَمْ ؟
أَجلْ لقــد قَبّلْتها من رأسها إلى القــدم

قيس غاضباً :
تلك لعمري قُبْلةُ الـ حُمَّى بلاءٌ وسقَمْ
أو قبلةُ الذئب إذا الذ ئب على الشاة جثَمْ

« يتراجع قليلا وكأنه يحدث نفسه »

قلبي يقــول لي : لا يا صدْقه فيما زعم

ورد : إذن تعــال قيس واسمــعْ في أنـــاة وكرم
لا تجعلنَّ الغضبَ الجــائر بيننـــا الحكم
اسمــع حديـــثي إنه ما خطَّ مثله القــلم
وسِــرُّه لا الأهلُ يد رون به ولا الخدَم
أنـا الذي ظُلمت قيـــس ما أنا الذي ظلمْ
أليَّـــةٌ ومـــا عـــليَّ لك يـــا قيس قسم
كم مرَّت الليلةُ بي والليلتـــان لم أنم

منذ حوت داريَ ليــلى ما خلوتُ من ندم
كانت إطافــتي بهــا كالوثــنيّ بالصَــنم
وربمــا جئتُ فِــراّا شها فخانتني القــدم
كأنهــا لي مَحْــرَمٌ وليس بيننــا رَحِــم
شعــرُك يا قيس جنَى عــليّ هذا واجْترَم
هيّبَهَــا فــامتنعــت كأنها صيدُ الحــرم
وهَبْتُهــا للحب والشعــر وقيــسٍ والألــم

قيس : ولكن تعالَ سَرِيّ ثقيف
أبن ليَ ما لم تُبيِّن تعَالَ
تقولُ لقيتَ بشعري الشقاء
وجَرّ عليك بياني الوبالا
لقد قلت قولاً فأوجزتَه فبالله إلا شرحت المقالا

ورد : إذن . أصِـغ قيس

قيس : قل الصدقَ وردُ

ورد : وهل كان لي الصدقُ إلا خلالا
فلولاك ما اخترتُ الا ثقيفاً
ولم أُلق للعامريّات بالا
ذهبتُ بشعرك منذ الشبابِ
أغنّي القصار وأروي الطِّوالا

أرى بين ألفاظِهِ ظلَّ ليلى   وألمح بين القوافي الخيالا
فلما رُددْتَ وقيل القصائد   والعشق بين المحبَّيْن حالا
خرجتُ الى حيِّها خاطباً   ولم أدخر دون مسعاي مالا
بنيـــتُ بهـــا فتهيبتهـــا
وأيُّ امرىء هاب قبلي الحلالا
فشعرك يا قيس اصل البلاء   لقيتُ به وبليلى الضلالا
كساها جــمالاً فعلقتهـــا   فلما التقينا كساها جلالا
اذ جئتُها لأنال الحقوق   نهتني قداستها ان أنالا
أمســك أبــا المهـــدي

« يستحيل كلامه الى همس اذ تبدو ليلى على باب الخباء »

انـــظـــر هـــــذه   ليلى علينا طلعت من الخبا

« ثم ينادي بصوت متهدج »

ليلى: تعاليْ اسرعي قيسٌ اتى   ليلى هنَاكِ . من تحبين هنا

قيس : أمازحٌ يا ورد قُل لي انت ام   تسخر مني ام تُرَى تهَزا بنا

ورد : بل قلتُ جداً لم اقل مُهازلا

« قيس هاماً بالذهاب اليها »

اذن فدعْهالا تُجشِّمْها الخُطا

« ورد وليلى تقترب »

اسمعْ أبا المهديّ همسَ خطوها
كأنه وَطْءُ غزال في الحصا

دعوتُ فاهتّمتْ ولو لم أدْعُها
لو َجدتْ رِحَلك من أقصى مدى
قيسُ تثبّتْ واستعدّ ، هي ذي
أتتْ ، فلا يذهبْ بلبِّك اللّقـا
الآن أمضي لسبيلي

قيس : بل أقمْ إلبث أعنّي ،إنني خرت قُوى

ورد : قيسُ أرى الموقفَ لا يجمَعُنا
أنتَ حبيبُ القلب ، والزوج أنا
يا لكما مني ، ويا لي منكما
نحن الثلاثة ، ارتطمنا بالقضا

« ينصرف وتقبل ليلى على قيس »

قيس : ليلاي ، ليلى القلب

ليلى : قيس مالي
دارتْ بـي الأرض وساء حالي

قيس : فداك ليلى مهجتي ومالي من السّقام ومن الهزال
تعاليْ اشكي ليَ النوى تعالي ألقي ذراعيْك على خيالي

« تصافحه بشوق »

ليلى : أحق حبيبَ القلب انت بجانبي
أحلمٌ سرى أم نحن منتبهـان
أبعد تراب المهد من أرض عامرٍ
بأرض ثقيف نحن مغـتربان

قيس : حنانيك ليلى ، ما لِخلٍّ وخِلَّة
من الأرض إلا حيث يجتمعان
فكلُّ بلادٍ قرَّبتْ منك منزلي
وكل مكانٍ انت فيه مكاني

ليلى : فمالي أرى خدَّيْكَ بالدمع بُلَّلا
أمِنْ نوح عيناك تبتدران

قيس : فداؤك ليلى الروح من شرِّ حادث
رماك بهذا السقم والذوبان

ليلى : تراني إذن مهزولةً قيس ؟ حبَّذا
هزالي و َمنْ كان الهزال كساني

قيس : هو الفكرُ ليلى ، فيمن الفكر ؟

ليلى : في الذي تجنىَّ

قيس : كفاني ما لقيتُ كفاني

ليلى : أأدركتَ أن السهمَ يا قيسُ واحدٌ
وأن كلينا للهوى هدفان؟

كلانا قيسُ مذبوحٌ قتيل الأب والأمٍّ
طعينان بسكّينٍ من العادة والوهم
لقد زُوِّجتُ ممن لم يكن ذوقي ولا طعمي
ومن يكبر عن سني ومَن يصغُر عن علمي

غريبٌ لا من الحيِّ ولا من ولد العمِّ
ولا ثروتُـه تُربى على مال ابـي الجمِّ
فنحن اليومَ في بيت عـلى ضِدين مُنضم
هو السجنُ وقد لا ينطوي السجن على ظـلم
هو القبر حوى ميْتيْن جارين عـلى الرغـم
شتيتـين وان لم يبعـد العَظْمُ من العظـم
فإن القـرب بالرُّوح وليس القـرُب بالجسم

قيس : تعاليْ نعشْ يا ليلى في ظل قفْرةٍ
من البيد لم تُنْقلْ بها قدمان
تعاليْ الى وادٍ خليٍّ وجدْول
ورنّة عُصفور وأيْكـة بان
تعاليْ الى ذكرى الصِّبا وجنونه
وأحلام عيشٍ من دَدٍ وأمان
فكم قبلة يا ليل في ميْعة الصبا
وقبل الهوى ليست بذات معان
أخذنا واعطينا اذ البهْمُ ترتعي
واذ نحن خلف البَهم مستّران
ولم نكُ ندري يوم ذلك ما الهوى
ولا ما يعود القلبَ من خفقان

مُنى النفس ليلى، قرِّبي فاكِ من فمي
كما لفَّ منقاريهما غردان
نذُق قُبلةً لا يعرف البؤس بعدها
ولا السُّقم روحانا ولا الجسدان
فكلُّ نعيم في الحياة وغبطة
على شفتينا حين تلتقيان
ويخفق صدرانا خفوقاً كأنما
مع القلب قلب في الجوانح ثان

« تنفر ليلى »

ليلى : وكيف

قيس : ولِمْ لا ؟

ليلى : لستَ يا قيسُ فاعلاً ولا لي بما تدعو اليه يدان

قيس : أتعصينني يا ليلى ؟

ليلى : لم أعصِ آمري
ولكنَّ صوتاً في الضمير نهاني
وورد يا قيسُ؟وردٌ ما حفلتَ به
لقد ذهلْتَ فلم تجعل له شانا

« قيس غاضباً » : تعنين زوجَك يا ليلى ؟

« ليلى منكسة رأسها » : نعم

قيس : ومتى أحببت ورداً ؟ ترى أحببته الآنا ؟

ليلى : فيم انفجارك ؟

قيس : من كيدٍ فجئتُ به

ليلى : إني أراك أبا المهـدي غيرانا

وردٌ هو الزوج فاعلم قيس أن له

حقاً عـلـيَّ أؤديه وسلطانا

قيس : إذن تحاببتما ؟

ليلى : بل أنت تظلمـني

فما أحبَّ سواك القلبُ إنسانا

ولست بارحةً من داره أبداً

حتى يُسرِّحني فضلاً وإحسانا

نحن الحرائر إن مال الزمانُ بنا

لم نشكُ إلا الى الرحمن بلوانـا

قيس : بل تذهبين معي !

ليلى : لا ، لا أخونُ له

عهداً فما حاد عن عهدي ولا خـانا

فتىً كنبع الصَّفا لم يختلفْ خُلقا

ولا تلوَّن كالفتيـان ألوانا

قيس متهكماً : أراكِ في حبِّ وردٍ جدَّ صادقةٍ

وكان حبُّك لي زوراً وبهتانـا

ليـلى : قيس !

قيس صارخاً : اتركيني بلاد الله واسعة

غـــداً أبدّلُ أحباباً وأوطانا

« يحاول ان يتركها فتمسك به ليلى »

ليـلى : العقلَ يا قيس !

قيس لا : َخليِّ الرِّداءَ دعي

« ثم يفلت منها ويندفع الى سبيله تاركاً اياها باكية في هيئـة استعطاف » .

صاحب المسرحية :

(أحمد شوقي وقد سبقت ترجمته في الفصل الرابع عشر)

تحليل القطعة :

يقع هذا المنظر والحوار في الفصل الرابع من المسرحية المكونـــة من خمسة فصول ، وفيه يلتقي قيس بورد زوج ليلى ويشكو ورد لقيس من أنه الذي ظلم ، فليلى لا تزال على حبها لقيس ، متيمة بحبيبهـا تعيش بقلبها وروحها معه وهو في البادية في حين يضمها وزوجها (ورد) بيت واحد ، وقد احترم زوجها هـــذا الحب ، فعاملها معاملة الشقيقة لا الزوجة فظلت في كنفه عذراء .

ويتقابل قيس وليلى ويراها هزيلة أضر بها الفكر في حبيبها كما أضر بقيس بعده عن حبيبته . وشوقي بذلك يمهد للحل ؛ اذ مرضت ليـــلى وماتت ، فمات البطل قيس بعدها .

وقد اظهر شوقي ليلى قوية الشخصية حريصة على كرامتها ، فهي لا تزال عذراء ، ومع ذلك حين طلب منها قيس حبيبها الذي تفكر فيـه ليلاً ونهاراً ، والذي اضناها حبه ، قبلة تأبـى عليه بشدة على الرغم من

إلحاحه ، وحين يطلب منها ان ترحل معه تستنكر ذلك منه ، فهي لن تبرح دار ورد حتى يسرحها فضلاً وإحساناً، وسترعى عهده ولن تخونه، كما احترم حبها وحفظ عهدها .

وفي هذا الحوار اعترفت ليلى بأنها وقيس قتيلان « بسكين من العادة والوهم » . هذه العادة التي انحدرت من الجاهلية وهي ألا تتزوج الفتاة ممن شبب بها ، والتي جعلت ليلى تضحي بنفسها وبحبيبها ، وتتزوج ورداً وهو كما قالت « ليس من ذوقي ولا طعمي، ومن يكبر عن سني ومن يصغر عن علمي ». وقد كانت هذه العادة متحكمة بالبوادي التي لم تتأثر كثيراً بالحضارة الجديدة بعد الاسلام .

ويؤخذ على هذا المنظر ان شوقي جعل « ورداً » يسمح لزوجته ليلى بالخلوة مع غريمه قيس ، وهو موقف يتنافى مع ما عرف عن العرب من حمية وأنفة وغضب شديد للعرض ، ففي هذا الموقف مناقضة صريحة للعادات العربية ولا يسوّغه إعجابِ (ورد) بقيس وشعره ، ورثائه لحال ليلى .

وقد رأينا كيف ادار شوقي الحوار في لباقة واخضع القافية العربية للحوار المسرحي . وقد ظل الشعر سامياً جيد السبك، حلو النغم والصياغة. وقد رأينا في هذه القطعة ان شوقي قد اتكأ احياناً على شعر المجنون (وهي الأبيات الموضوعة بين قوسين) وانه قد اقتبس منه وسما بعبارة شعره حتى اختلط شعر شوقي بشعر قيس ونكاد لا نفرق بينهما .

ثانيا – العباسة

لعزيز اباظة

تمهيد :

كانت العباسة اخت الرشيد ، وقد زانها الله بالعقل الراجح والجمال الباهر ، ولم يكن الرشيد يرضى ان تغيب عن مجلسه الخاص ، وكذلك كان لا يرضى بأن يغيب عنه وزيره جعفر بن البرمكي . فزوّجهما سراً حتى يستطيع ان يلقاهما معاً ، ولكنه اشترط عليهما عــدم اللقاء الا في مجلسه ، والا يكون بينهما ما بين الازواج ، حتى لا يتهم الرشيد بأنـه زوّج اخته الهاشمية لأعجمي ، وقد ولدت العباسة ولداً من جعفر واخفته في البادية وعلمت به زبيدة . وكانت (زبيدة) زوجة الرشيد تغار من العباسة لاستئثارها بالرشيد ، وكانت تكره جعفراً لأنه اقنع الرشيد بأن يتولى المأمون ولاية العهد بعد ابنها الأمين . واخذت تدبر المؤامــرات للإيقاع بجعفر ، واوهمت الرشيد ان البرامكة يتآمرون به ويحشدون الجنود في فارس وخراسان للانتقاض عليه.وهذا طرف من المؤامرة كما صورها الشاعر عزيز اباظة :

ابن الهادي (لهرثمة بن أعين القائد العربـي) :

تقدم فنبيء بالذي كنت مرسلاً لتفحص عنه

الرشيد : واذكر الحق واصدق

وكنتَ أميني مذ بعثتك رائــداً
وليس امـين القوم من لم يحقق
وما يوبق الإنسانَ مثـلُ اجترائـه
على الحق، فاخش الله في الناس واتق

هرثمة : قَفَلْتُ مُغِـذاً من خرسان بعدما
تبينت ما تخفي خراسان من غدر
وكنت بمروٍ قبلَ ذاك فهالني
بوادرُ لم تستخف تنــذر بالشر
وفي طوسَ أحسست انتقاضاً وفتنة
وفي همــذان النكر يلقح بالنكر
طالبت إليَّ لا شيء غيره
وحذرتني سوء الأحاديث والذكر
وخوفتني ظلم البريء وانني
لأضعف خلق الله عن ذلك الوزر
اتسألني ماذا شهدت ... كبــائراً
ودهياء بالأطراف توشك تستشرى
ومسمومةً من دعوة قـد تمكنت
فمالت عن السر المخافت للجهر
لقد صح عندي اغلب القول عنهمو
فلم يك وهماً ما انتهى لك من غدر

تنبهُ امينَ الله للثغر واستعن

عـــلى سَدِّه بالحزم والعزمة البكر

الرشيد : وهل صح ما جاءت به الكتبُ ؟

هرثمة : حلة تبلّجَ من اطوائه الصدقُ كالفجر

الرشيد : وما شأن يحي الطالبي ؟

هرثمة : فمضمر لك الحقد مطبوع على البغي والمكر

يلوذ بمطواعين لا يخذلونه

ويأوي اذا يأوي الى عسكر مَجْر

الرشيد (في جد وحدة) : اتدري الذي تلقيه ؟

هرثمة : أدري به كله

الرشيد : اتُقْسِم !

هرثمة : بالبيت المحرم والسِّرِّ

(يتقدم هرثمة فيطلع الرشيد على اوراق ورسائل يخرجها من صدره ويقرؤها الرشيد في تمهل وعناية ، ويعطي كتاباً منها أكبر قسط اهتمامـــه ، فيلوح عليه الانفعـــال بعد قراءته ثم يبقيه معه)

الرشيد : وددت وبيت الله أنيَ لم اقف

على مكرهم حتى اغيَّبَ في قبري

فليس يسيراً وأد ودٍّ ذخرته

فكان على الأيام من انفس الذُّخْر

وليس قليلاً فقد خدن صحبتُه
فشاطرته مجــدي ، وقاسمته عمري

(يتجه الرشيد الى الباب الذي يوصل الى حرم القصر ، ويقول لهرثمة مستطرداً في صوت مرهوب)

تأهب مع الحراس والجند ، قد رأى
فأبلغكم رأيـي وآمركم امري

(يخرج هرثمة ، ويبقى ابن الهـادي ، فيقـترب من الرشيد متردداً كأنما يريـد ان يحدثـه في امر خطير)

ابن الهادي (في اضطراب) : تمهل امين الله لي معك وقفة
اذا لم اقفها لمتُ نفسي مدى الدهر

الرشيد : تكلم وقل ما شئت ... ما لك واجماً

ابن الهادي : وجمت لخطب ضاق عن حمله صدري

: تهاب فلا يلقي اليك بسرّه
وان بات من بيت الى سامر يسري

الرشيد : وبعد !!

ابن الهادي : سأقضي بالذي قد علمته
وان كان يفري من ضلوعي ما يفري
يقولون يا عماه (ويكررها مضطرباً)

الرشيد (في شيء من الحدة) : يقولون واحذر قالة السوء والهجْر

ابن الهادي : يقولون يا عماه والقول قائم
على حجة ليست بتافهة القدر

يقولون عن ... ودٍّ نما بين جعفر

واخت امـين الله

الرشيد (في اضطراب ثم يتماسك) : يا لك من غُمْـر

الم تك تدري ان جعفـر زوجها

بلى والحوامـيم العلي انه صهري

ابن الهادي (في تهلل مصطنع) : حمدت إله العرش لا رب غيره

وعدت اليـه بالإنابة والشكـر

فان صح ما قالوه فيهـا

الرشيد : فإنه لفاجعة الدنيا وكارثـة الدهر

تعلمْ فإن الهاشميات مضغة

مبرأة صيغت من الصون والطهر

ابن الهادي : الآن عرفنا لابنها طهر مهده

الرشيد (في فزع ويسترد حكمه على نفسه) : تقول ابنها !! مالي كأني لا ادري

اجل قد ظلمناها يستر زواجها

وتلك هنات العنجهيـة والكـبر

ابن الهادي : أيأذن لي مـولاي

الرشيد : فاذهـب موفقـاً

(يخرج ابن الهادي ، ويستطرد الرشيد في مرارة)

تداعيت يا نفسي ، وعانيت يا صبري

ووكدت نهيي كرةً بعد كرة

اقول فأكني ، او اقول فلا اكني

زبيدة (في تحريض) : تحرم ما قد حلل الله للورى

لكي يرثوا الدنيا وتهدم ما بيني

اذا كنت تنهى انت والله آمر

فمن منكما نلقى له السمع خبرني

الرشيد (في إصرار) : عصوني

زبيدة : اطاعوا الله هارون

الرشيد : امسكي

اتهزأ بي أختي ويختاني خدني

غداً سيقول الناس زوجت حرة

قريشية من غير كفء ولا قِرن

وإن خدور المجد من آل هاشم

أبيح حماها للأعاجم والهُجْنِ

(يتقدم الرشيد خطوة لزبيدة ، ويقول لها في هدوء خطر)

وقيل لها ابنٌ ؟

زبيدة : هَب !! فأيٌ عجيبة

إذا ذاتُ زوج نضَّرَت عيشها بابن

الرشيد : عجبت لذاك العقل لم يزع الهوى
ولم يردع الإغراء عنهـا ولم يثن
زبيدة : أتخشى ابنها هارون ؟
الرشيد : رحمـاك فاصمتي دعيني لأنواء تهولن في ذهني
زبيدة : (في تحريض أشد) :
حسبتك تخشاه على الملك في غد
إذا ضم سيف العرب والفرس في جفن

صاحب المسرحية :

هو عزيز أباظة ولد سنة ١٨٩٨ بمدينة الزقازيق بمديرية الشرقية من أسرة مشهورة كثيرة العدد مهتمة بالثقافة ، وعلى شيء غـير قليل من الثراء ، وتربى تربية مدنية ، ونال شهادة الحقوق في سنة ١٩٢٣ ، ثم اشتغل بالمحاماة لمدة عامين ، ثم عين بعد ذلك وكيلاً للنائب العـام ، ثم قاضياً .

وفي سنة ١٩٣٠ تقدم للانتخابات مستقلاً عن الأحزاب ، فانتخب عضواً بمجلس النواب ، ولكنه لم يلبث ان عاد الى الوظائف الحكومية ، فعين مديراً لإدارة التجارة والصناعة ، ثم مفتشاً بوزارة الداخلية ، ثم وكيلاً للمديرية .

وانتخب مرة ثانية لعضوية مجلس للنواب مستقلاً عن الأحزاب ، وكان احد خمسة رفضوا المعاهدة المصرية الإنجليزية في سنة ١٩٣٦ .

وفي سنة ١٩٣٩ عين مديراً لمديرية القليوبيـة ، وظل ينتقل مديراً للأقاليم المختلفة حتى انتهى به المطاف في مديرية أسيوط سنة ١٩٤٦ ، ومنها استقال من الوظائف الحكومية واشتغل بالأعمال الحرة في المصارف والشركات . وتقدم مرة ثالثة للانتخابات بمجلس النواب ، ولكنه استقال بعد نجاحه ، فعـين عضواً بمجلس الشيوخ حتى حل في سنة ١٩٥٢ عقب الثورة .

أحب الادب منذ صغره ، وقرأ امهات الكتب الأدبية العربية ، على الرغم من ان الأعمال التي زاولها كانت بعيدة كل البعد عن المجال الأدبي ، وكان رائده في الادب العربي المرحوم الشيخ محمد الخضري المؤرخ والعالم المشهور ، وكذلك الشاعر حافظ ابراهيم ، وكانا من أصدقاء والده . وقد عالج الشعر منذ كان حدثاً وفي سن مبكرة، ولعل صحبته لحافظ وللشيخ الخضري تفسر لنا محافظته على تقاليد الشعر العربي ، وحسن ديباجته، وكمال صياغته ، وكان شوقي لا يزال مثَله الذي يتطلع إليه .

ونتاج عزيز أباظة شعر كله ، ابتدأه بديوانه أنات حائرة . وقد بكى فيه زوجته بكاءً مراً ، وجاء ذوب قلبه وعصارة نفسه ، ودلّ به على وفاء نادر ، وربما كان أول شاعر في العربية خصّ زوجته بديوان كامل يرثي فيه سجاياها . وقد ذاع أمر هذا الديوان ولقي تشجيعاً كبيراً ودل على شاعرية خصبة . فتوالى نتاجه واتجه به إلى المسرحية الشعرية .

فأنشأ : قيس ولبنى ، ثم العباسة ، والناصر ، وشجرة الدر، وغروب الأندلس،وشهريار ، وكلها مسرحيات تاريخية ، على النسق الذي نظم به شوقي مسرحياته ، وإن أفاد عزيز أباظه من تجربة شوقي وحاول ان يتجنب أخطاءه ، وكان كثير الاتصال بالمسرح فعرف أسراره .

وفي السنوات الأخيرة حاول تجربة جديدة وهي إنشاء مسرحيات تعالج مشكلات اجتماعية شعراً . وقد أشفق على نفسه ، وأشفق عليه أصدقاؤه من هذه التجربة، حين ظهرت مسرحيته أوراق الخريف ولكنها نجحت ، فأنشأ (قافلة النور) وعاد بعد ذلك إلى المسرحية التاريخية فأنشأ (قيصر) .

وقد انتخب عضواً بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٩ ، كما عين من قبل عضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب سنة ١٩٥٨ ، ولا يزال يوالي نتاجه القيم الى اليوم .

تحليل القطعة :

كان هرثمة بن أعين التميمي ضالعاً مع زبيدة ، حاقداً على البرامكة، شأن العرب جميعاً في ذلك الحين، وكان هرثمة من أبرع القواد وأشدهم بأساً ، وقد اختاره الرشيد ليذهب الى فارس ويتحقق من الإشاعات التي تدور حول البرامكة ، فجاء مؤكداً لهذه الإشاعات ، مع ان هذه الحشود في طوس وغيرها كانت لأعداء الدولة لا للكيد لها . ولكنها مؤامرة زبيدة ، وقد وفق المؤلف لاختيار هرثمة لهذه المهمة ، وقد وكد رسالته بالايمان وبالأسانيد حتى لا يدع في نفس الرشيد شيئاً ، وأهم ما يثير خليفة أو ملكاً ان يتآمر عليه وزراؤه . ويسعون للانتقاض عليه ، وقد هول هرثمة في الأمر وادعى أنه رأى « كبائراً ودهياء بالأطراف توشك تستشري » ، وقد أتى كذلك بأخبار يحي الطالبي ، وهو الذي ضمنه جعفر ، وكان عنده في بيتـه حتى يتصرف الرشيد في شأنه ، ولكنه سرحه ، وفي الفصل الثاني نجد جعفراً يؤكـد أن التسريح كان بأذن من الرشيد ، وكان المؤلف بارعاً حين أتى بهـذه القضية ضمن الدسائس التي تثير نفس الرشيد،فآل أبي طالب كانوا ينافسون العباسيين في الخلافة ، وكانت الدعوة أول الأمر لهم حتى غلبهم عليها العباسيون، ولهم أنصار كثيرون وبخاصة في فارس .

ونرى الرشيد يتردد بين البطش بالبرامكة والعفو عنهم ، على الرغم مما حدث،ويتذكر الود المكين « فليس يسيراً وأدُ وُدٍّ ذخرته » ولكن تردده يزول حين تقدم (ابن الهادي) وهو من الحانقين على البرامكة، وقد أوعزت إليه زبيدة أن يخبر الرشيد بنبأ العباسة وابنها من جعفر ، وقد صوره المؤلف صورة نفسية متقنة ، فنراه متردداً يتظاهر بالخوف من الإفضاء بهذا النبأ ، ويدعي انه لم يعرف نبأ زواجها من جعفر ، ويظهر التهلل المصطنع حين يعلم بذلك ويحمد الله على طهرها ، ولكنـه أدى رسالته وأخبر الرشيد بما أريد له ان يخبره به .

ونرى الرشيد تأخذه العزة ولكنه يتردد بعد ما سمع :

أجل قد ظلمناها بستر زواجها   وتلك هنات العنجهية والكبر

ويتذكر نواهيه لها،وهنا تأتي زبيدة لتقطع كل أثر للتردد في نفسه، ولكنها وهي المشهورة بكراهيتها للعباسة وجعفر تتظاهر اولاً بالدفاع عنهما وان الرشيد قد حرم عليهما ما أحلّ الله ، وتدافع عن الابن وان العباسة قد نضرت عيشها بابن ، وفي كل هذا إثارة خفية للرشيد، واخيراً تأتي بفكرة خبيثة وهي ان هذا الابن خطر لأنـــه (سيضم سيف العرب والفرس في جفن) ، وان من حق هارون الرشيد ان يخشى مثله . وان كانت هذه الفكرة لم تخطر بباله وقد اعتمد المؤلف على الاسطورة التي حيكت حول العباسة وان الرشيد زوجها سراً من جعفـر مع ان هذا لم يثبت تاريخياً .

كانت هذه حلقة من سلسلة المؤامرات التي اوْدت بجاه البرامكة ، وبغضتهم في قلب الرشيد ، واخيراً قضت عليهم .

وقد اتكأ المؤلف على التاريخ تارة وعلى الأساطير تارة اخرى،ولكنه كان بارعاً حقاً في تصوير الشخصيات وربط الحوادث بعضها ببعض ، كما جاء اسلوبه قوياً وإدارته الحوار في غايـــة المهارة وان كانت تنقصه موسيقية شوقي واتساع أفقه وسمو عبارته ، ولكنه افاد حقاً من تجربـــة شوقي فحاول ان يتجنب ما وقع فيه من اخطاء فجاءت مسرحياته اقوى حبكة ، وابرع فناً .

موضوعات للبحث

١ – قيل ان شوقي (لم يدرك المسرح في الصميم) .

(ا) ما موقفك من هذا القول ؟ .

(ب) اعرض لرأي النقاد في ذلك .

٢ — ما الاسباب التي تراها ادت الى تأخير ظهور الفن التمثيلي عند العرب ؟

٣ — ما المسرحية : تعريفها ، شرطها ، انواعها ، وما قيمتها الادبية والفنية في تراثنا المعاصر ؟

٤ — ما اثر عزيز اباظة في الفن المسرحي من خلال مسرحية العباسة (وكيف عرض حوادث التاريخ في مسرحيته) .

للمطالعة

١ — المسرحية : لعمر الدسوقي .
٢ — العباسة : لعزيز اباظة .
٣ — محاضرات عن مسرحيات شوقي : للدكتور محمد مندور .
٤ — مجنون ليلى : لأحمد شوقي .
٥ — المسرحية في الأدب العربي الحديث : للدكتور يوسف نجم .
٦ — مسرحيات شوقي : للدكتور محمود شوكت .
٧ — في الأدب الحديث : لعمر الدسوقي .

فهرست

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الباب الثاني

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

منشورات مكتبة الوحدة العربية

الدار البيضاء

+

- المواد الاجتماعية للشهادة الثانوية
- المواد الاجتماعية للسنة الرابعة الثانوية
- المواد الاجتماعية للسنة الخامسة الثانوية
- المواد الاجتماعية لطلاب البكالوريا
- الفكر الفلسفي والاجتماعي
- الجغرافية العصرية للشهادة الثانوية
- الحضارة الاسلامية للسنة الخامسة الثانوية
- الحضارة الاسلامية لطلاب البكالوريا
- النظم الاسلامية للسنه الرابعة الثانوية
- تاريخ الاسلام أول ثانى ثالث ثانوى
- الجديد فى علم التصريف
- المختار فى الرياضيات اول ثانى ثالث ثانوى

مطابع دار الكتاب ـ الدار البيضاء